

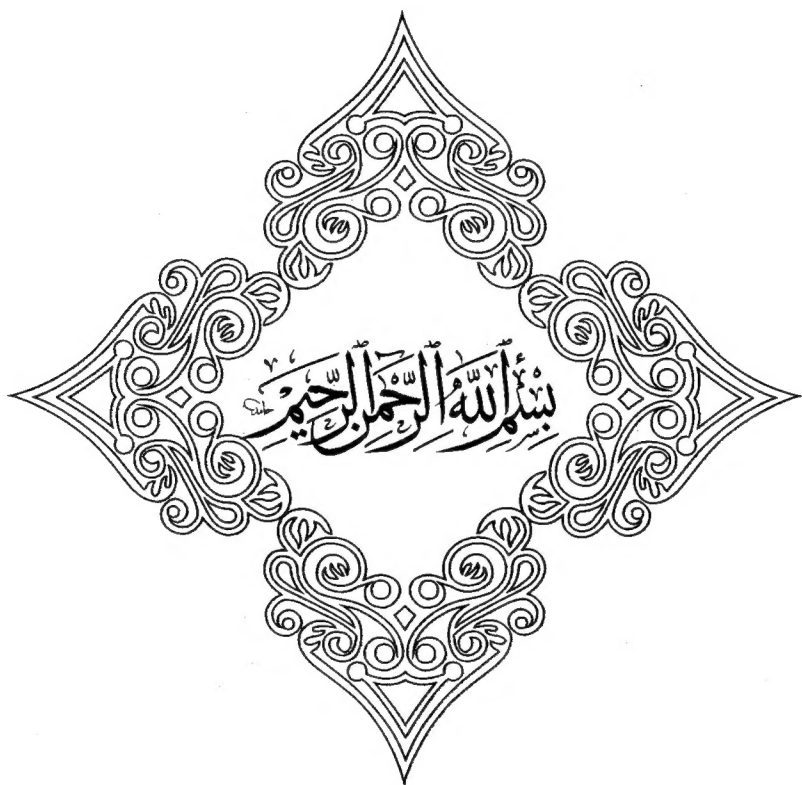
الحق المختوم

بَحْثٌ فِي السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ

لِلشَّيْخِ صَفِيِّ الرَّحْمَنِ الْمُبَارَكْفُورِيِّ



دار السلام للنشر والتوزيع
الرياض



الْحَقِيقُ الْمُخْتَوِمُ

بَحْثٌ فِي السَّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ

جميع حقوق الطبع محفوظة



دار السلام للنشر والتوزيع

شارع الأمير عبد العزيز بن جلوي (الضباب سابقاً) مقابل الغرفة التجارية

المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢٢٧٤٣ الرياض ١١٤١٦

هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢ - ٤٠٤٣٤٣٢ - ٠٠٩٦٦-١-٤٠٢١٦٥٩ فاكس: ٠٠٩٦٦-١-٤٠٢١٦٥٩

E-mail: darussalam@awalnet.net.sa, riyyadh@dar-us-salam.com Website: www.dar-us-salam.com

- | | |
|--|-------------------|
| دار السلام العليا : تلفون: 00966-1-4614483 | فاكس: 4644945 |
| دار السلام المملز : تلفون: 00966-1-4735220 | فاكس: 4735221 |
| دار السلام جدة: تلفون: 00966-2-6879254 | فاكس: 6336270 |
| دار السلام المدينة المنورة: تلفون: 00966-503417155 | فاكس: 8151121 |
| دار السلام خميس مشيط: تلفون: 00966-7-2207055 | 0500710328: |
| دار السلام الخبر: تلفون: 00966-3-8692900 | فاكس: 8691551 |
| دار السلام الشارقة: تلفون: 00971-6-5634623 | فاكس: 5632624 |
| دار السلام باكستان: تلفون: 0092-42-7240024 | فاكس: 7354072 |
| دار السلام لندن: تلفون: 0044-208-539 4885 | فاكس: 208-5394889 |
| دار السلام نيويورك: تلفون: 001-718-6255925 | فاكس: 718-6251511 |
| دار السلام هيوستن: تلفون: 001-713-7220419 | فاكس: 7220431 |
| دار السلام هونج كونج: تلفون: 00852-23692722 | فاكس: 23692944 |
| دار السلام ماليزيا: تلفون: 00603-77109750 | فاكس: 77100749 |

كلمة معالي الشيخ محمد علي الحركان «رحمه الله» الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي سابقاً

الحمد لله رب العالمين، خالق السموات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين، بَشْرَ وَأَنْدَر، ووعد وأوعد، أنقذ الله به البشر من الضلالة، وهدى الناس إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور، وبعد:

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة، وهدى المسلمين إلى محبته، وجعل اتباعه من محبته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ، وتتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه، ونشر سيرته العطرة ﷺ، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» والقرآن كتاب الله وكلماته التامة، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً.

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦ هـ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية:

- (١) أن يكون البحث متكاملًا مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها.
- (٢) أن يكون جيدًا ولم يسبق نشره من قبل.
- (٣) أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث.
- (٤) أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت.
- (٥) أن يكتب البحث بخط واضح، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة.
- (٦) تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى.
- (٧) يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الآخر ١٣٩٦ هـ، وينتهي موعد القبول بغرة المحرم

١٣٩٧هـ.

(٨) تُسَلِّمُ البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم، وتضع الأمانة عليه رقمًا تسلسليًا خاصًا.

(٩) تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن.

فكان هذا الإعلان حافزًا لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسولہ ﷺ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى. وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات، وقد بلغ عددهم واحدًا وسبعين ومائة بحث منها:

٨٤ بحثًا باللغة العربية، ٦٤ بحثًا باللغة الأردية، ٢١ بحثًا باللغة الإنجليزية، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية.

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي:

(١) الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفي الرحمن المباركفوري من الجامعة السلفية بالهند، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي.

(٢) الفائز بالجائزة الثانية الدكتور ماجد علي خان من الجامعة المليية الإسلامية نيودلهي الهند، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي.

(٣) الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي.

(٤) الفائزة بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمون من جمهورية مصر العربية، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي.

(٥) الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي.

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ. كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف.

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلًا كبيرًا، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة، حيث تَفَضَّلَ سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ. وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث

الفائزة ونشرها بعدة لغات، وتنفيذًا لذلك هاهي ذي تضع بين يدي القارئ الكريم باكورة طبعات تلك البحوث، وهو بحث الشيخ صفي الرحمن المباركفوري، من الجامعة السلفية بالهند لأنه الفائز بالجائزة الأولى، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعًا أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد بن علي الحركان «رحمه الله»
الأمين العام
لرابطة العالم الإسلامي سابقًا

مقدمة الناشر

ستظل سيرة الرسول ﷺ هي الرصيد التاريخي الأول الذي تستمد منه الأجيال المتلاحقة من ورثة النبوة وحملة مشاعل العقيدة زاد مسيرها، وعناصر بقائها، وأصول امتدادها. ومن دَرَسَ تاريخه ﷺ وأعطاه حَقَّهُ من النظر والفكر والتحقيق رأى نُسْقًا من التاريخ العجيب، استعلى به الرسول ﷺ والفئة المؤمنة معه على عناصر المادة وعوامل الجذب الأرضي، وارتقوا بالإنسانية إلى درجات لم تشهداها على امتداد عصورها وأزمانها. ومن يعمق النظر في سيرته ﷺ - محاولاً أن يتبع السِّر الذي وقع في التاريخ القفر المجدب فأخصب به، وأنبت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة، فأنشأ ﷺ رجالاً إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة، يجدها تقول له: - إن ههنا دنيا الصحراء التي تَرَبَّى في أحضانها الرجال الذين دخلوا بالإسلام على ما دخل عليه الليل.

ولو تأملت في أفعاله ﷺ وجدتها تقول لك:
إني أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد.

ولم يكن مثله ﷺ في الصبر على البلاء والثبات على الحق واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي، فهو قد خُلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة.

وبذلك كان ﷺ منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائماً، وللدنيا رأس نظام أفكارها الصحيحة.

ولقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول ﷺ، فباعد بينه وبين زيف الهوى وسرف الطبيعة، ولذلك يجب على من يقرأ سيرته ﷺ ويتعرَّف على شمائله وحديثه أن يبحث دائماً عن طابع الله في كل شيء فيها، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع أن تحقق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها، وأنه ﷺ كان إنساناً، وكان أيضاً حركة في تقدُّم الإنسانية، وأن من معجزاته ﷺ أنه أضاف في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها، وأن كل أموره ﷺ موضوعة وضْعاً إلهياً كأنها صفات كَوْنها الله وعلَّقها في التاريخ لمعاني الحياة تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة. ولو تأملت بيانه ﷺ، تجده ينقلك إلى مثل الحالة التي تتأمل فيها روضة تتنفس على القلب، أو منظرًا يهز خياله النفس، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم، على هدوء وروح وإحساس ولذة، ثم يزيد على ذلك أنه يُصلِّح من الجهات الإنسانية في نفسك، ثم يرزق الله منه من رَزَقَ النور، فإذا أنت في ذوق البيان كأنما ترى المتكلِّم ﷺ وراء

كلامه .

هذا يكون النظر في كلامه ﷺ، فهو كلام كلما زدته فكرًا زادك معنى، وتفسيره قريب . . . قريب كالروح في جسمها البشري، ولكنه بعيد كالروح في سرها الإلهي، فهو معك على قدر ما أنت معه، إن وقفت على حدّ وقف، وإن مددت مدّ، وما أدّيت به تأدّى، وليس فيه شيء من كل ما تراه لكل بلغاء الدنيا، من صناعة عبث القول، والرغبة في تكثير سواد المعاني، وترك اللسان يطيش طيشة اللغوي يتعلّق بكل ما عُرض له، إنما هو كلامٌ قيل لتصير به المعاني إلى حقائقها، فهو من لسان وراءه فكر، وراءه قلب، وراءه إيمان، وراءه الله جل جلاله، وهو كلام في مجموعته كأنه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة، لا تبرح ماضية في طريقها السوي على دين الفطرة فلا تتسع لخلاف ولا يقع بها التنافر.

من هنا تبرز الأهمية القصوى في أن تكون سيرة الرسول ﷺ وأقواله عاملة في النفس المؤمنة عمل القلب من الجسد، ورقية عليها رقابة الضمير على العقل، حتى يكون الارتقاء والسمو والعلو والارتفاع بالأجسام فوق جواذب المادة وقيود الأرض.

ولن تستطيع النفس أن تحقق هذه المقومات وبها بقايا من رواسب المادة أو جواذب الأرض، ولن تستطيع النفس أن ترفرف وتحلق إلا إذا أدركت غاية وجودها من خلال رصيدها التاريخي الطويل، الذي لم تظفر به أمة من الأمم كما ظفرت أمة الإسلام: «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة». عبارات تفيض إيمانًا وتشعُّ ضياءً، وخرجت من نفس تربت على يد القائد والمعلم الأول ﷺ، فأدركت غاية وجودها فعملت على تحقيقها . . . وهكذا يجب أن يكون كل من أراد أن يشارك الكتاب في سيرها في الطريق الطويل.

وللأهمية التي تحتلها سيرة الرسول ﷺ في حياة المسلمين على امتداد التاريخ وفي حياتهم الحاضرة؛ فقد وضعت كتب كثيرة اختلفت نظراتها للسيرة ومناهجها في تناولها، ولكن كانت هناك بعض الكتب في هذا المجال امتازت بشمولها وكمالها ودقة منهجها، بما يعين القارئ على أن يتناول مسيرة الرسول ﷺ في يسر يعينه على فهمها فهماً شاملاً كاملاً واستيعابها دونما نقص أو خلل.

وكان هذا الكتاب «الرحيق المختوم» للأستاذ صفي الرحمن المباركفوري - من الجامعة السلفية بالهند - من الكتب المتفردة في السرد التاريخي والذي امتاز بمنهجه الواضح وشموليته الجامعة في عرض السيرة العطرة عرضاً عميقاً يسيراً، خالياً من الشوائب أو الأباطيل التي أُلحِقَتْ ببعض كتب السيرة.

ويمتاز هذا الكتاب أيضًا في كونه مُعَيَّنًا لكل قارئ أو باحث في السيرة أن يجد بغيته فيه . وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم

الإسلامي .

ولا ننسى هنا أن ننوه بإضافة هذا الجهد إلى الجهود العظيمة التي بذلها العلماء الهنود على امتداد العصور، في حرصهم وحفظهم للتراث الإسلامي وإبداعهم الفذ في مجالات التفسير والسيرة والحديث وعلومه بخاصة .

وتفتخر إدارة دار السلام بتقديم هذه الطبعة الجديدة المصححة حيث عمل بها المؤلف - حفظه الله - على طلب الإدارة بعض التعديلات المهمة النافعة بعد التحقيق الشامل للنصوص والنظر العميق في وقائع حياة الرسول ﷺ ومراحل دعوته، وأودع فيها فوائد مستجادة وتعليقات مفيدة، وصحح بعض الأخطاء الواردة في الخرائط، فجزاه الله خيراً عنّا وعن أمة محمد ﷺ وجعل هذا العمل في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون .

ولم يأل الإخوة أعضاء اللجنة للتحقيق والإعداد بدار السلام جهداً في تصحيح الكتاب وإخراجه على الوجه المطلوب، فبعد هذه الإضافات الطيبة خرج الكتاب بصفة نراها أصحّ الطبعات وأسلمها من التصحيف والغلط وأنفعها للقراء الكرام .

ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعمّ به الفائدة والنفع للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كثيراً .

الناشر

خادم الكتاب والسنة

عبد المالك مجاهد

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، فجعله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، اللهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وفَجِّرْ لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيراً.

وبعد، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦هـ عن تنظيم مسابقة على مستوى العالم الإسلامي، للبحث حول موضوع السيرة النبوية - على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام - تنشيطاً للكاتبين، وتنسيقاً لجهودهم الفكرية، وإني أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان. فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام - إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار - هي المنبع الوحيد الذي تتفجَّر منه ينابيع حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري.

وإن من سعادتي وحسن حظي أن أقدم بحثاً أساهمُ في تلك المسابقة المباركة، ولكن أين أنا حتى ألقى ضوءاً على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ، وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره، حتى لا يتهالك في دياجير الظلمات، بل يحيا وهو من أمته، ويموت وهو من أمته، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته.

وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجي في مقالتي هذه: إني حين قررت كتابتها رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنباً التطويل الممل والإيجاز المخل، وقد وجدت في المصادر اختلافاً كبيراً في ترتيب الوقائع، أو في تفصيل جزئياتها، وفي مثل هذه المواقع قمت بالتحقيق البالغ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث، ثم أثبت في صلب المقالة ما ترجَّح لديَّ بعد التحقيق، ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين؛ لأن ذلك يُفْضِي إلى طول غير مطلوب. نعم! ربُّما أشرت إلى الدلائل حين خِفْتُ الاستغراب ممن يقرأ المقالة، أو حين

رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح.

اللَّهُمَّ قدر لي الخير في الدنيا والآخرة، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد.

الجمعة المباركة ١٣٩٦ / ٧ / ٢٤ هـ

١٩٧٦ / ٧ / ٢٣ م

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس - الهند

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ولا يمكن إحصاء صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها. ونظرًا إلى ذلك نُقدّم فصلًا عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام، وعن الظروف التي بُعث فيها محمد ﷺ.

موقع العرب:

كلمة العرب تنبئ عن الصحارى والقفار، والأرض المجبدة التي لا ماء فيها ولا نبات. وقد أُطلقَ هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب، كما أُطلقَ على قوم قطنوا تلك الأرض، واتَّخذوها موطنًا لهم.

وجزيرة العرب يحدها غربًا البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء، وشرقًا الخليج العربي وجزء من بلاد العراق الجنوبية، وجنوبًا بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند، وشمالًا بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود، وتُقدَّر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع.

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصنًا منيعًا لا يسمح للأجانب أن يحتلُّوها ويسيطروا عليها سيظرتهم ونفوذهم، ولذلك نرى سكان الجزيرة أحرارًا في جميع الشؤون منذ أقدم العصور، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتها لولا هذا السد المنيع.

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم. وتلتقي بها برًا وبحرًا. فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوروبا، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم وآسيا الوسطى والشرق البعيد، وتفضي إلى الهند والصين، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحرًا، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأسًا.

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطًا للأمم ومركزًا لتبادل التجارة، والثقافة، والديانة، والفنون.

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب فقد قَسَمَهَا المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها:

(١) العرب البائدة: وهم العرب القدامى الذين انقرضوا تمامًا، ولم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم، مثل: عاد وثمود وطسم وجديس وعملق وسواها.

(٢) العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان، وتُسَمَّى بالعرب القحطانية.

(٣) العرب المستعربة: وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل، وتُسَمَّى بالعرب العدنانية.

أما العرب العاربة - وهي شعب قحطان - فمهداها بلاد اليمن، وقد تشعَّبت قبائلها ويطونها فاشتهرت منها قبيلتان:

(أ) حمير، وأشهر بطونها زيد الجمهور، وقضاعة، والسكاسك.

(ب) كهلان، وأشهر بطونها همدان، وأنمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام وغيرها.

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن، وانتشرت في أنحاء الجزيرة، يقال: كانت هجرة معظمهم قبيل سيل العَرَم حين فشلت تجارتهم؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام، وقيل: بل إنها هاجرت بعد السيل.

ولا غرو إن كانت هناك مع ما تقدَّم منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدَّت إلى جلاء كهلان، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان.

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام:

(١) الأزد - وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزقياء. فساروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال والشرق. وهاك تفصيل الأماكن التي سكنوا فيها بعد الرحلة نهائيًا: عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز، فأقام بين الثعلبية وذي قار، ولما كَبُرَ ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة، فأقام بها واستوطنها. ومن أبناء ثعلبة هذا: الأوس والخزرج، ابنا حارثة بن ثعلبة.

وانتقل منهم حارثة بن عمرو - وهو خزاعة - وبنوه في ربوع الحجاز، حتى نزلوا بمر

الظهران، ثم افتتحوا الحرم فقتلوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة.

ونزل عمران بن عمرو في عمان، واستوطنها هو وبنوه، وهم أزد عمان، وأقامت قبائل نصر بن الأزد بتهامة، وهم أزد شنوءة.

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه، وهو أبو الملوك الغساسنة. نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولاً قبل تنقلهم إلى الشام.

(٢) لخم وجذام - انتقلوا إلى الشرق والشمال. وكان في اللخمين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة.

(٣) بنو طيء - ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى، وأقاموا هناك، حتى عرف الجبلان بجبلي طيء.

(٤) كندة - نزلوا بالبحرين، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بحضرموت، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين، ثم نزلوا نجد، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فثيت وذهبت آثارها.

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه - وهي قضاة - هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق^(١).

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى - وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام - من بلاد العراق، من بلدة يقال لها: «أر» على الشاطئ الغربي من نهر الفرات، بالقرب من الكوفة، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد.

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران، ومنها إلى فلسطين، فأتخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها^(٢) وقدم مرة إلى مصر، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً يزوجه سارة ولكن الله رد كيده في نحره، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله، حتى أخدمها ابنته^(٣) هاجر؛ اعترافاً بفضلها، وزوجتها سارة إبراهيم^(٤).

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها: نسب معد واليمن الكبير، جمهرة النسب، العقد الفريد، قلاند الجمان نهاية الأرب، تاريخ ابن خلدون، سبائك الذهب وغيرها. واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجح عندنا في هذا الباب من حيث الدليل.

(٢) انظر تاريخ ابن خلدون.

(٣) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري أنها كانت حرة، وكانت ابنة فرعون - انظر رحمة للعالمين - ٣٦/٢ - ٣٧. وانظر أيضاً تاريخ ابن خلدون ١/٢/٧٧.

(٤) المصدر نفسه ٣٤/٢ وانظر في تفصيل القصة: صحيح البخاري ١/٤٧٤.

ورجع إبراهيم إلى فلسطين، ورزقه الله من هاجر إسماعيل، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير - إسماعيل - فقدم بهما إلى الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالراية، تأتية السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء. فوضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفذ الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله، فصارت قوتاً لهما وبلاغاً إلى حين. والقصة معروفة بطولها^(١).

وجاءت قبيلة يمانية - وهي جرهم الثانية - فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال: إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة، وقد صرّحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يَسُبَّ، وأنهم كانوا يَمرون بهذا الوادي قبل ذلك^(٢).

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات، إلا أن المصادر التاريخية الموثوقة حفظت أربعة منها.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل، فقام بامتنال هذا الأمر ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَتَّخِذْهُمَا ۝ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلَوُ الْمُبِينُ ۝ وَقَدَّيْنَاهُ ۝ يَذْبَحْ عَظِيمٌ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٧].

وقد ذُكِرَ في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق، لأن البشارة بإسحاق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها.

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة - على الأقل - قبل أن يشبَّ إسماعيل، أما الرحلات الثلاث الأخرى فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعاً^(٣)، وملخصها أن إسماعيل لما شبَّ وتعلَّم العربية من جرهم، وأنفسهم وأعجبهم زُجُوه امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغيّر عتبة بابه، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه، فطلق امرأته تلك وتزوَّج امرأة أخرى، (وهي: ابنة مضاض بن عمرو، كبير جرهم وسيدهم على قول الأكثر).

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الأنبياء ١/ ٤٧٤، ٤٧٥، (ح ٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٧٥ (ح ٣٣٦٤).

(٣) ج ١/ ٤٧٥، ٤٧٦.

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا التزوج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما، فأثنت على الله، فأوصى إلى إسماعيل أن يُثَبِّت عتبة بابه.

وجاء مرة ثالثة فلقي إسماعيل وهو ييري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن، قلما يصبر فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا الكعبة، ورفعوا قواعدهما، وأذن إبراهيم في الناس بالْحَجِّ كما أمره الله.

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثني عشر ولداً ذكراً وهم: نابت أو نبايوط، قيدار، وأدبائيل، ومبشام، ومشماع، ودوما، وميشا، وحدث، ويتما، ويطور، ونفيس، وقيدمان، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة، وكان جلُّ معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها. ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار.

وقد ازدهرت حضارة الأنباط - أبناء نابت - في شمال الحجاز، وكوّنوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها، واتّخذوا البتراء عاصمة لهم، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان ففقضوا عليهم، وقد جنحت طائفة من المحققين إلى أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل، وبقيائهم في تلك الديار. وإليه جنح الإمام البخاري ورجّح الحافظ ابن حجر أن قحطان من آل نابت^(١).

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها. وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول: كذب النسابون، فلا يتجاوزه^(٢). وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان، مضعفين للحديث المشار إليه، وقالوا: إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أباً بالتحقيق الدقيق^(٣).

وقد تفرّقت بطون معد من ولده نزار - قيل: لم يكن لمعد ولد غيره - فكان لنزار أربعة أولاد، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة: إياد وأنمار وربيعة ومضر، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما، فكان من ربيعة: أسد بن ربيعة، وعنزة،

(١) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٠٧ وفتح الباري ٦/٦٢١-٦٢٣ وانظر نسب معد واليمن الكبير ١/١٣١.

(٢) انظر تاريخ الطبري ٢/ ١٩١-١٩٤ والأعلام ٥/٦.

(٣) ابن سعد ١/٥٦ وتاريخ الطبري ٢/٢٩١ وتاريخ ابن خلدون ٢/٢٩٨، وفتح الباري ٦/٦٢٢ ورحمة للعالمين ٢/

وعبد القيس، وابنا وائل - بكر، وتغلب - وحنيفة وغيرها.

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين: قيس عيلان بن مضر، وبطون إلياس بن مضر. فمن قيس عيلان: بنو سليم، وبنو هوازن، وبنو غطفان، ومن غطفان: عبس وذبيان، وأشجع وغني بن أعصر.

ومن إلياس بن مضر: تميم بن مرة، وهذيل بن مدركة، وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة ابن خزيمة، ومن كنانة: قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، من أشهرها: جمح، وسهم، وعدي، ومخزوم، وتيم، وزهرة، وبطون قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي.

وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبدشمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم عليه السلام.

قال عليه السلام: «إنَّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّ الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم تخيَّر القبائل، فجعلني من خير القبيلة، ثم تخيَّر البيوت فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً»^(٢).

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرَّقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب، متبعين مواقع القطر ومنابت العشب.

فهاجرت عبد القيس، وبطون من بكر بن وائل، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها.

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فزلوا بحجر، قصبة اليمامة. وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر، فأطراف سواد العراق، فالأبلة فهيت.

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية، ومنها بطون كانت تسكن بكرًا. وسكنت بنو تميم ببادية البصرة.

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة، من وادي القرى إلى خير إلى شرقي المدينة إلى حد

(١) رواه مسلم عن وائلة بن الأسقع، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم ٢٤٥/٢ والترمذي ٢٠١/٢.

(٢) رواه الترمذي، كتاب المناقب باب ما جاء في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ٢٠١/٢.

الجبيلين، إلى ما ينتهي إلى الحرة.

وسكنت ثقيف بالطائف، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس، وهي على الجادة بين مكة والبصرة.

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة، بينهم وبين تيماء ديار بحتري من طيء، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال.

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران.

وبقي بتهامة بطون كنانة، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب، فجمعهم، وكوّن لهم وحدة شرفتهم ورفع من أقدارهم^(١).

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلّم عن أحوال العرب قبل الإسلام؛ رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام.

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين: قسم منهم ملوك متوجّجون، لكنهم كانوا في الحقيقة غير مستقلين، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر، لهم ما للملوك من الحكم والامتياز، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال. وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوجّج، والملوك المتوجّجون هم ملوك اليمن، وملوك مشارف الشام، وهم آل غسان، وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان.

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ، وقد عُثِرَ على ذكرهم في حفريات «أور» بخمسة وعشرين قرنًا قبل الميلاد. ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرنًا قبل الميلاد.

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي:

(١) ما بين ١٣٠٠ - إلى - ٦٢٠ ق.م، عرفت دولتهم في هذا العهد بالدولة المعينية، وكان ملوكهم يلقبون بـ: «مكرب سبأ» وكانت عاصمتهم بلدة: «صرواح» التي توجد أنقاضها على مسافة ٥٠ كيلومترًا إلى الشمال الغربي من بلدة «مأرب» وعلى بعد ١٤٢ كيلومترًا شرقي صنعاء، وتعرف باسم «خريبة» وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد مأرب، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن، ويقال: إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل بلاد العرب وخارجها.

(٢) ما بين سنة ٦٢٠ ق.م إلى سنة ١١٥ ق.م عرفت دولتهم في هذا العهد بدولة سبأ، وفي هذا الزمن تركوا لقب «مكرب» وعرفوا بملوك سبأ، واتخذوا «مأرب» عاصمة لهم بدل «صرواح» وتوجد أنقاض مأرب على بعد ١٩٢ كيلومترًا شرقي صنعاء^(١).

(٣) منذ سنة ١١٥ ق.م إلى سنة ٣٠٠ م، عُرفت الدولة في هذا العهد بالدولة الحميرية

(١) اليمن عبر التاريخ ص ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، تاريخ العرب قبل الإسلام ١٠١-١١٢.

الأولى، لأن قبيلة حمير استقلّت بمملكة سبأ، واتّخذت بلدة «ريدان» عاصمة لها بدل «مأرب». ثم سميت بلدة «ريدان» باسم ظفار، وتوجد أقاضها على جبل مدور بالقرب من «يريم» وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير؛ لبسط سيطرة الأنباط في شمال الحجاز أولاً، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمال الحجاز ثانيًا، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثًا. وهذه العناصر هي التي تسببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة.

(٤) منذ سنة ٣٠٠م إلى أن دخل الإسلام في اليمن. وعرفت الدولة في هذا العهد بالدولة الحميرية الثانية، وفي هذا العهد توالى عليهم الاضطرابات والحوادث، وتتابعت الانقلابات، والحروب الأهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم، ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م. ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠م أو ٤٥١م. وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب.

وفي سنة ٥٢٣م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على النصارى من أهل نجران، وحاول صرفهم عن النصرانية قسراً. ولما أبوا أخذ لهم الأخدود وألقاهم في النيران، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله: ﴿قِيلَ أَخَذُوا الْقُلُوبَ﴾ الآيات، وكان هذا الحادث هو السبب في نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان على بلاد العرب، فقد حرّضوا الأحباش، وهبوا لهم الأسطول البحري، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة، واحتلوا اليمن مرة ثانية، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة بن الصباح الأشرم - أحد قواد جيشه - سنة ٥٤٩م، وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة، وأبرهة هذا هو الذي جنّد الجنود لهدم الكعبة، وعُرف هو وجنوده بأصحاب الفيل، وقد هلك بعد عودته إلى صنعاء فخلفه ابنه واحداً بعد الآخر، وكانا شرّاً من أبيهما.

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥م بقيادة معديكرب بن سيف ذي يزن الحميري، واتخذوه ملكاً لهم، وكان معديكرب أبقي معه جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه، فاغتالوه ذات يوم، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن، وولى كسرى عاملاً فارسياً على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨م. وبإسلامه انتهى نفوذ فارس

على بلاد اليمن^(١).

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧-٥٢٩) ق.م ولم يكن أحد يناوئهم، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ ق.م فهزم ملكهم دارا الأول، وكسر شوكتهم، حتى تجزأت بلادهم وتولّاهم ملوك يُعْرَفُونَ بملوك الطوائف، واستمرّوا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠ م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون، واحتلّوا جزءاً من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية.

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير - مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦ م - فإنه جمع شمل الفرس، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه، وكان هذا سبباً في رحيل قضاة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار.

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الواضح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصية تؤيده وتمنعه، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان، وكان يبقى عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية، وكان موت جذيمة حوالي سنة ٢٦٨ م.

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة والأنبار عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، (٢٦٨-٢٨٨ م)، أول ملوك اللخمين - في عهد كسرى سابور بن أردشير - ثم لم تزل الملوك من اللخمين يتولون الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز (٤٤٨-٥٣١ م)، وفي عهده ظهر مزدك، وقام بالدعوة إلى الإباحية، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة - وهو المنذر بن ماء السماء (٥١٢-٥٥٤ م) - يدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به، فأبى عليه حمية وأنفة، فعزله قباذ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي.

(١) انظر في تفصيل ذلك: اليمن عبر التاريخ ٧٧، ٨٣، ١٢٤، ١٣٠، ١٥٧، ١٦١ وغيرها، وتاريخ أرض القرآن ج ١/ من ص ١٢٣ إلى نهاية الكتاب، وتاريخ العرب قبل الإسلام ١٠١-١٥١ وفي تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِطُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وخلف قباز كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٨م)، وكان يكره هذا المذهب جدًا، فقتل المزدك وكثيرًا ممن دان بمذهبه، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة، وطلب الحارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب، فلم يزل فيهم حتى مات.

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه، حتى كان النعمان بن المنذر، وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبّرها زيد بن عدي العبادي، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه، فخرج النعمان حتى نزل سرًا على هانيء بن مسعود سيد آل شيان، فأودعه أهله وماله، ثم توجه إلى كسرى، فحبسه كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي، وأمره أن يرسل إلى هانيء بن مسعود يطلب منه تسليم ماعنده، فأبى ذلك هانيء حماية، وأذن الملك بالحرب، ولم تلبث أن جاءت مرازية كسرى وكتائبه في موكب إياس، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذي قار، وانتصر فيها بنو شيان، وانتهزت الفرس هزيمة منكرة، وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم^(١)، قيل: وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل، فإنه عليه السلام وُلِدَ لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة.

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكمًا فارسيًا اسمه آزاذبه، حكم سبعة عشر عامًا (٦١٤-٦٣١م)، وفي سنة ٦٣٢م عاد الملك إلى آل لخم، فتولى منهم المنذر بن النعمان الملقب بالمعرور، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين^(٢).

الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجع بن سليح المعروفون باسم الضجاعة، فاصطنعهم الرومان؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكًا، ثم تعاقب الملك فيهم سنين، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهايته تقريبًا، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان، الذين غلبوا الضجاعة على ما بيدهم وانتصروا عليهم، فولتهم الروم ملوكًا على عرب الشام، وكانت قاعدتهم حوران، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهن عملاً لملوك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣ هـ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٣).

(١) روى ذلك مرفوعاً: مسند خليفة بن خياط ص ٢٤، وابن سعد ٧/٧٧.

(٢، ٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢. والتفصيل عند الطبري والمسعودي وابن قتيبة وابن خلدون والبلاذري وابن الأثير وغيرهم.

الإمارة بالحجاز:

ولي إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته. وتوفي وله ١٣٧ سنة^(١). ثم ولي اثنان من أبنائه نابت ثم قيدار، ويقال العكس، ثم ولي أمر مكة بعدهما جدّهما مضاض بن عمرو الجرهمي، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم، وظلت في أيديهم، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم؛ لما لأبيهم من بناء البيت، ولم يكن لهم من الحكم شيء^(٢).

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلاً لا يذكر، حتى ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً بل كان عدنان نفسه^(٣).

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ ق.م)، وذهب برخيا صاحب يرمياه النبي الإسرائيلي بمعد إلى حران من الشام، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمه، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً^(٤).

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك، وضائق أحوالهم، فظلموا الوافدين إليها، واستحلوا مال الكعبة^(٥)، الأمر الذي كان يغضب العدنانيين، ويشير حفيظتهم، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك، فقامت بمعونة من بطون عدنان - وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة - بمحاربة جرهم، حتى أجلتهم عن مكة، واستولت على حكمها، في أواسط القرن الثاني للميلاد.

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم، ودرسوا موضعها، ودفنوا فيها عدة أشياء، قال ابن إسحاق: فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي^(٦) بغزالي الكعبة، وبحجر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً، وفي ذلك قال عمرو:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كُنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر^(٧)

(١) سفر التكوين ٢٥ : ١٧ وتاريخ الطبري ١ / ٣١٤.

(٢) ابن هشام ١ / ١١١ - ١١٣، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام.

(٣) تاريخ الطبري ١ / ٥٥٩.

(٤) المصدر نفسه ١ / ٥٥٩، ٥٦٠، ٢٧١ / ٢، وفتح الباري ٦ / ٦٢٢.

(٥) تاريخ الطبري ٢ / ٢٨٤.

(٦) هذا غير مضاض الجرهمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام.

(٧) ابن هشام ١ / ١١٤، ١١٥.

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرناً قبل الميلاد، فتكون إقامة جرهم في مكة واحداً وعشرين قرناً تقريباً، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرناً، واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال:

الأولى: الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة، والإجازة بهم يوم النفر من منى، وكان يلي ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر، وكانوا يُسمَّون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لا يرمون يوم النفر حتى يرمي رجل من صوفة، ثم إذا فرغ الناس من الرمي، وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانيي العقبة، فلم يجز أحد حتى يمروا، ثم يخلون سبيل الناس، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم.

الثانية: الإفاضة من جُمع غداة النحر إلى منى، وكان ذلك في بني عدوان.

الثالثة: إنساء الأشهر الحرم. وكان ذلك إلى بني تميم بن عدي من بني كنانة^(١).

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة^(٢). وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وهم حلول وصرم^(٣)، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة. وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب^(٤).

ويذكر من أمر قصي أن أباه مات وهو في حضن أمه، ونكحت أمه رجلاً من بني عذرة - وهو ربيعة بن حرام - فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام، فلما شب قصي رجع إلى مكة، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشية من خزاعة، فخطب قصي إلى حليل ابنته حبى، فرغب فيه حليل وزوجه إياها^(٥)، فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيراً إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت.

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب .

الأولى: أن قصياً لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر، وأن قريشاً رؤوس آل إسماعيل وصريحهم، فكللهم رجلاً من قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه^(٦).

(١) ابن هشام ٤٤/١ - ١١٩، ١٢٠ - ١٢٢.

(٢) ياقوت مادة «مكة» فتح الباري ٦/٦٣٣.

(٣) الحلول جمع حال بتشديد اللام: النازل، والصرم بكسر فسكون: قوم يتزلون بإبلهم ناحية من الماء. والجمع أصرام.

(٤) ابن هشام ١١٧/١.

(٥) ابن هشام ١١٧/١، ١١٨. حليل بالضم مصغراً، وحبشية بفتح فسكون، وقيل: بضم فسكون وحُبى بضم فتشديد مع الإمالة.

(٦) المصدر نفسه ١١٧/١، ١١٨.

الثانية: أن حليلاً - فيما تزعم خزاعة - أوصى قصياً بالقيام على الكعبة وبأمر مكة^(١).

الثالثة: أن حليلاً أعطى ابنته حُبى ولاية البيت، واتخذ أبا غبشان الخزاعي وكيلاً لها، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حُبى، فلما مات حليل خدعه قصي واشترى ولاية البيت من أبي غبشان بزق من الخمر، أو بأذواد من الإبل ولم ترض خزاعة بهذا البيع، وحاولوا منع قصي عن البيت، فجمع قصي رجالاً من قريش وبني كنانة لإخراج خزاعة من مكة، فأجابوه^(٢).

وأيّما ما كان، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاها قصي بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال: نحن أولى بهذا منكم، فقاتلوه فغلبهم قصي على ما كان بأيديهم، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي، فبدأهم قصي، وأجمع لحربهم، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، صار جمع من الفريقين فريسة له، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر ابن عوف أحد بني بكر، فقصى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة، وكل دم أصابه قصي منهم موضوع يشدّخه تحت قدميه، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية، وأن يخلي بين قصي وبين الكعبة - فَسُمِّيَ يعمر يومئذ الشداخ^(٣) - وكان استيلاء قصي على مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠م^(٤)، وبذلك صارت لقصي، ثم لقريش السيادة التامة، والأمر النافذ في مكة، وصار قصي الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تقد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة.

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة، وقطّعها رباعاً بين قومه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها، وأقرّ النساء وآل صفوان، وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب؛ لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره^(٥).

ومن مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة، وجعل بابها إلى المسجد، وكانت مجمع قريش، وفيها تفصل مهام أمورها، ولهذه الدار فضل على قريش؛ لأنها ضُمَّت اجتماع الكلمة وفُض المشاكل بالحسنى^(٦).

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف:

(١) رياسة دار الندوة، ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور، ويزوجون فيها

(١) المصدر نفسه ١١٨/١.

(٢) فتح الباري ٦/٦٣٤، البعقوبي ١/٢٣٩، المسعودي ٢/٥٨ وغبشان بضم الغين.

(٣) ابن هشام ١/١٢٣، ١٢٤.

(٤) فتح الباري ٦/٦٣٣ قلب جزيرة العرب ص ٢٣٢.

(٥) ابن هشام ١/١٢٤، ١٢٥.

(٦) ابن هشام ١/١٢٥، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٣٦، وأخبار الكرام ص ١٥٢.

بناتهم.

(٢) اللواء، فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده، أو بيد أحد أولاده، وفي هذه الدار.
(٣) القيادة، وهي إمارة الركب، فكانت لا تخرج ركب لأهل مكة في تجارة أو غيرها إلا تحت إمارته أو إمارة أولاده.

(٤) الحجابة وهي حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها.

(٥) سقاية الحاج، وهي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضًا من الماء، يحلّونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

(٦) رفاة الحاج، وهي طعام كان يصنع للحجاج على طريقة الضيافة، وكان قصي فرض على قريش خرجًا تخرجه في الموسم من أموالها إلى قصي، فيصنع به طعامًا للحجاج، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد^(١).

وكان كل ذلك لقصي، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته، وكان عبد الدار بكره، فقال له قصي: لألحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش، فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة، وكان قصي لا يخالف ولا يُرَدُّ عليه شيء صنعه، وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب، واختلفت قريش فرقتين، وكاد يكون بينهم قتال، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح، واقتسموا هذه المناصب، فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف، فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، وولي بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام والولاية إلى العباس بن عبد المطلب^(٢). ويقال: إن قصيًا هو الذي قسّم المناصب بين أولاده ثم توارثها أبناؤه.

وكانت لقريش مناصب أخرى سوى ذلك وزّعوها فيما بينهم، وكوّنوا بها دويلة - بل بتعبير أصح: شبه دويلة ديمقراطية. وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه في عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها، وهاك لوحة من تلك المناصب:

(١) الإيسار، أي: تولية قدام الأئمن للاستقسام، كان ذلك في بني جمح.

(١) ابن هشام ١/١٣٠. تاريخ يعقوبي ١/٢٤٠، ٢٤١.

(٢) ابن هشام ١/١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٧، ١٤٢، ١٧٨، ١٧٩.

- (٢) تحجير الأموال، أي: نظم القربات والندور التي تهدى إلى الأصنام، وكذلك فصل الخصومات والمرافقات. كان ذلك في بني سهم.
- (٣) الشورى، كانت في بني أسد.
- (٤) الأشناق، أي: نظم الدِّيَّات والغرامات، كان ذلك في بني تيم.
- (٥) العقاب، أي: حمل اللواء القومي، كانت ذلك في بني أمية.
- (٦) القبة، أي: نظم المعسكر، وكذلك قيادة الخيل، كانت في بني مخزوم.
- (٧) السفارة، كانت في بني عدي^(١).

الحكم في سائر العرب:

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعًا لملك العرب بالحيرة، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعًا للغساسنة، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية، وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة.

وفي الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيائها السياسي الوحدة العصبية، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها. وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك، فكانت القبيلة تبعًا لرأي سيدها في السلم والحرب، لا تتأخر عنه بحال، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور قوي، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس، من بذل الندى، وإكرام الضيف، والكرم، والحلم وإظهار الشجاعة، والدفاع عن الغير؛ حتى يكسبوا المحامد في أعين الناس، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين.

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة، فكانوا يأخذون من الغنيمة المربع والصفى والنسيطة والفضول، يقول الشاعر:

لك المربع فينا والصفايا وحكمك والنسيطة والفضول

والمربع: ربع الغنيمة، والصفى: ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة، والنسيطة: ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم. والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصحُّ قسمته على عدد الغزاة، كالبعير والفرس ونحوهما.

(١) تاريخ أرض القرآن ٢/ ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦. والمعروف أن حمل اللواء كان في بني عبدالدار والقيادة في بني أمية.

الحالة السياسية :

وبعد أن ذكرنا حكام العرب، نذكر جملة من أحوالهم السياسية، فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه، فقد كان الناس بين سادة وعبيد، أو حكام ومحكومين، فالسادة - ولا سيما الأجانب - لهم كل الغنم، والعبيد عليهم كل الغرم، وبعبارة أوضح إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات، فتستخدمها في ملذاتها وشهواتها، ورغائبها، وجورها، وعدوانها، أما الناس فهم في عمايتهم يتخبطون، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمُّر والشكوى، بل هم يسامون الخسف، والجور، والعذاب ألواناً ساكتين، فقد كان الحكم استبدادياً، والحقوق ضائعة مهدورة، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذبذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض، مرة يدخلون في أهل العراق، ومرة يدخلون في أهل الشام. وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال، تَغْلُبُ عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

لم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم، أو مرجع يرجعون إليه، ويعتمدون عليه وقت الشدائد. وأما حكومة الحجاز؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية، وحكمت في الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان - كما أسلفنا - ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضع يوم غزو الأحباش.

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل - عليه السلام - حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم - عليه السلام - فكانت تعبد الله وتوَحَّده وتدين بدينه، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًّا مما ذكروا به، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس، ودانوا له ظنًّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء، ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنَّه حقًّا، لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله، فأجابوه. ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة، لأنهم ولاية البيت وأهل الحرم^(١).

ومن أقدم أصنامهم مناة، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، ثم اتخذوا اللات في الطائف، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة، هذه الثلاث أكبر أوثانهم، ثم كُثِرَ الشرك، وكثُرَت الأوثان في كل بقعة من الحجاز، ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رثي من الجن، فأخبره بأن أصنام قوم نوح - ودًّا وسواعًا ويعوق ونسرا - مدفونة بجدة فأتاها فاستشارها، ثم أورها إلى تهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل^(٢)، فذهبت بها إلى أوطانها، حتى صار لكل قبيلة، ثم في كل بيت صنم. وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنهما حتى تساقطت، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت^(٣).

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم.

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم:

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٢.

(٢) صحيح البخاري ١/٢٢٢.

(٣) صحيح البخاري ١٦١٠، ٢٤٧٨، ٣٣٥١، ٣٣٥٢، ٤٢٨٧، ٤٢٨٨، ٤٧٢٠ ومختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ

محمد بن عبد الوهاب ص ١٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤.

- (١) كانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها.. ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجاتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق لهم ما يريدون.
- (٢) وكانوا يحجّون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها.
- (٣) وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسماؤها.
- وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣] وفي قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].
- (٤) وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخضّون للأصنام شيئاً من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك يخضّون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم. ومن الطرائف أنهم كانوا يخضّون من ذلك جزءاً لله أيضاً، وكانت عندهم أسباب كثيرة ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصُلُّ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِنْ شِئَئَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].
- (٥) وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نُسَاءَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرِمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨].
- (٦) وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. قال ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سبيت، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنّها، ثم خُلّي سبيلها مع أمها، فلم يركب ظهرها، ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها، فهي البحيرة بنت السائبة. والوصيلة: الشاة إذا أتامت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة. قالوا: قد وصلت، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره، فلم يركب، ولم يجز وبره، وخُلّي في إبله يضرب فيها، لا ينتفع منه بغير ذلك، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] وأنزل: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ١٣٩] وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك^(١).

وقد صرَّح سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم^(١) وفي الصحيح مرفوعاً: أن عمرو بن لحي أول من سبَّ السوائم^(٢).

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه كما في القرآن: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش عليه، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع: نوع فيه «نعم»، و «لا» و«غفل»، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالهما، فإن خرج «نعم» عملوا به وإن خرج «لا» أخرجه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع غفل أعادوا الضرب، ونوع فيه المياه والدية، ونوع فيه «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فكانوا إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وبمائه جزور، فأعطوها صاحب القداح، فإن خرج «منكم» كان منهم وسيطاً، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفاً، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته فيهم، لا نسب ولا حلف^(٣).

ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من ضروب القمار، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التي يذبحونها بحسب القداح.

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين، والكاهن: هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن في المستقبل، ويدَّعي معرفة الأسرار، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعا من الجن يلقي عليه الأخبار، ومنهم من يدَّعي إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدلُّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يُسمَّى عرافاً، كمن يدعي معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما. والمنجم: من ينظر في النجوم أي: الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل^(٤) والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا^(٥).

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهي التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فيفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا، وعدَّوه حسناً، وإن أخذ ذات

(١) صحيح البخاري ٤٩٩/١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن هشام ١٥٢/١، ١٥٣. فتح الباري ٢٧٧/٨.

(٤) اللسان وكتب اللغة.

(٥) انظر صحيح البخاري ج ٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧، ٧٥٠٣، صحيح مسلم، كتاب الإيمان ٥٩/١.

الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أي: بومة تطير في الفلوات وتقول: صدى صدى أو اسقوني اسقوني، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح^(١).

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله، مثل تعظيم البيت والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف بعرفة، والمزدلفة وإهداء البدن، نعم ابتدعوا في ذلك بدعاً. منها أن قريشاً كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاة البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا - وكانوا يسمون أنفسهم الحمس - فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّكَاسُ﴾^(٢) [البقرة: ١٩٩].

ومنها أنهم قالوا: لا ينبغي للحمس أن يأتقنوا ولا يسلثوا السمن، وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرماً^(٣).

ومنها أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به من الحل إلى الحرم إذا جاؤوا حجاجاً أو عماراً^(٤).

ومنها أنهم أمروا أهل الحل أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله في ذلك: ﴿يَنْبَغِي لِمَنْ حُدِّثَ زِينَتُهُ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف، ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيره^(٥).

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينتبئون في ظهور

(١) انظر صحيح البخاري ٨٥١/٢، ٨٥٧ مع حاشيته الهندية.

(٢) ابن هشام ١٩٩/١، صحيح البخاري ٢٢٦/١.

(٣) المصدر نفسه الأول ٢٠٢/١.

(٤) ابن هشام ٢٠٢/١.

(٥) ابن هشام ٢٠٢/١، ٢٠٣ وصحيح البخاري ٢٢٦/١.

البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء براً وقد منعه القرآن: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

كانت هذه الديانة - ديانة الشرك وعبادة الأوثان، والاعتقاد بالوهميات والخرافات - ديانة معظم العرب، وقد وجدت اليهودية، والنصرانية، والمجوسية والصابئية سبيلاً للدخول في ربوع العرب.

ولليهود دوران - على الأقل - مثلوهما في جزيرة العرب:

الأول: هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والآشورية في فلسطين، فقد نشأ عن الضغط على اليهود، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م وسبي أكثرهم إلى بابل أن قسما منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز، وتوطن في ربوعها الشمالية^(١).

الدور الثاني: يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة تيطس الروماني سنة ٧٠م، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء، وأنشأت فيها القرى والأطام والقلاع، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام، والتي حدثت في صدره، وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي: خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع، وذكر السهمودي في وفاء الوفاء (ص ١١٦) أن عدد القبائل اليهودية التي نزلت بيثرب بين حين وآخر يزيد على عشرين^(٢).

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تبان أسعد أبي كرب، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بني قريظة إلى اليمن، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها، ولما ولي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على نصارى نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود، وأحرقهم بالنار، ولم يفرّق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيخوخ الكبار، ويقال: إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً^(٣)، وقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣م^(٤). وقد ذكر القرآن جزءاً من هذه القصة في سورة البروج.

(١) قلب جزيرة العرب ص ١٥١.

(٢) وفاء الوفاء ١/١٦٥ مع المصدر السابق.

(٣) انظر ابن هشام ١/٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٣١، ٣٥، ٣٦ وكتب التفسير سورة البروج.

(٤) اليمن عبر التاريخ ص ١٥٨، ١٥٩.

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠م، واستمر إلى سنة ٣٧٨م^(١)، وفي ذلك الزمان دخل التبشير النصراني في ربوع اليمن، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات وصاحب كرامات - وكان يُسمَّى فيميون - إلى نجران، ودعاهم إلى الدين النصراني، ورأى أهل نجران من أمارات صدقه وصدق دينه ما لبثوا لأجله النصرانية واعتنقوها^(٢).

ولما احتلَّت الأحباش اليمن مرة أخرى سنة ٥٢٥م كردَّ فعل لما أتاها ذو نواس، وتمكَّن أبرهة من حكومتها؛ أخذ ينشر الديانة النصرانية بأوفر نشاط، وأوسع نطاق، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كنيسة باليمن كانت تُسمَّى الكعبة اليمانية، وأراد أن يصرف حجَّ العرب إليها، ويهدم بيت الله الذي بمكة، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرهما لمجاورة الرومان، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة.

أما المجوسية فكان معظمها في العرب الذين كانوا بجوار الفرس، فكانت في عراق العرب وفي البحرين - الأحساء - وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي.

أما الصابئية فقد دلَّت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق، وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانين، وقد دان بها كثير من أهل الشام، وأهل اليمن في غابر الزمان، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعف ببناء الصابئية وحمد نشاطها، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس، أو مجاورين لهم، في عراق العرب، وعلى شواطئ الخليج العربي^(٣).

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبور، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنَّهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق، فكثرت معاصيهم، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً.

(١) المصدر نفسه وتاريخ العرب قبل الإسلام ص ١٢٢.

(٢) انظر في ذلك مفصلاً ابن هشام ٣١/١، ٣٢، ٣٣، ٣٤.

(٣) تاريخ أرض القرآن ١٩٣/٢ إلى ٢٠٨.

أما اليهود فقد انقلبت رياء وتحكمًا، وصار رؤساؤها أربابًا من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حضَّ الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها.

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم، وأوجدت خلطًا عجيبًا بين الله والإنسان، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها.

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين، فقد تشابهت قلوبهم، وتواردت عقائدهم، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم.

صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها؛ بقي لنا أن نتكلّم حول الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والخلقية، وفيما يلي بيانها بإيجاز:

الحالة الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة، تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدّم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تُسَلُّ دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة، وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتت عليهم.

بينما كانت هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نُعبّر عنه إلا بالدّعارة والمجون والسفاح والفاحشة، روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدًا حتى يتبيّن حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحبّ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح يُسمّى نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط دون العشرة. فيدخلون على المرأة كلهم يصيها. فإذا حملت، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت، وهو ابنك يا فلان، فتسمي من أحببت منهم باسمه فيلحق به ولدها، ونكاح رابع: يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهن رايات، تكن علمًا لمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودُعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما

بعث الله محمدًا ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم^(١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يُسبي نساء المهزوم فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كان يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهي إليه، وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها: ﴿وَلَا تُنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّكُمْ كَانَتْ فِجْشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۚ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّنَّكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُ الْأَخِي وَأَخَوَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٢، ٢٣] وكان الطلاق بيد الرجال لا إلى حد معين^(٢).

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط، لا نستطيع أن نخُصَّ منها وسطًا دون وسط أو صنفًا دون صنف، إلا أفرادًا من الرجال والنساء ممن كان تعاضم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة، وكانت الحرائر أحسن حالًا من الإماء والطامة الكبرى هي الإماء، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحسُّ بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قام رجل فقال: يا رسول الله! إن فلانًا ابني، عاهرت بأمه، في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(٣)، وقصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة - وهو عبد الرحمن بن زمعة - معروفة^(٤).

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول:

إِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنُنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ نَزْفُكُمْ وَإِسَافُكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۚ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النساء: ١٥٨].

(١) صحيح البخاري ح ٥١٢٧ أبو داود، كتاب النكاح، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية.

(٢) المصدر الأخير نفسه باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث. وهذا الذي ذكره المفسرون في سبب نزول قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان﴾.

(٣) أبو داود، باب الولد للفراش، ومستند أحمد ٢/٢٠٧.

(٤) انظر صحيح البخاري مع الفتح ٤/٣٤٢ وغيره.

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٨﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَتَّىٰ إِمْلَئَ نَحْنُ نَرِزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ﴾ [التكوير: ٨] ولكن لا يمكننا أن نعدّ هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشدّ الناس احتياجاً إلى البنين، ليتقوا بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية، ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسرون على المثل السائر: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» على المعنى الحقيقي، من غير التعديل الذي جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيرًا ما كان يُفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعيس وذبيان، ويكر وتغلب وغيرها.

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تمامًا، وكانت قواهم متفانية في الحروب. إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفي بعض الحالات كانت الموالاة والحلف والتبعية تُفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعونًا لهم على حياتهم وحصول معاشهم.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعمية فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصوله والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تُباع وتُشترى وتُعامل كالجمادات أحيانًا، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة، وما كان من حكومات فجّل همّها امتلاء الخزائن من رعيّتها، أو جر الحروب على مُناوئِها.

الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية، فتبعت الحالة الاجتماعية، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معاش العرب، فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام، وكان ذلك مفقودًا في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم، وهذه هي الشهور التي كانت تُعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ، وذي المجاز، ومجنة وغيرها.

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة، ومشارف الشام، نعم كانت في داخل الجزيرة شيء من الزراعة، والحرث، واقتناء الأنعام، وكانت نساء العرب كافة يشغلن بالغزل، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب، وكان الفقر والجوع والعري عامًا في المجتمع.

الأخلاق:

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنيا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم، وبأبائها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحموده ما يروع الإنسان، ويُقضي به إلى الدهشة والعجب، فمن تلك الأخلاق.

(١) الكرم، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم، بين ممتدح به ومثن على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع، وليس عنده من المال إلا ناقتة التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم، فيقوم إليها، ويذبحها لضيفه، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الدَّيات الهائلة والحملات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات.

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمر، لا لأنها مفخرة في ذاتها، بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السرف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم، وخمره بينت الكرم. وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك باباً من أبواب المديح والفخر، يقول عنترة بن شداد العبسي في معلقته:

ولقد شربت من المدامة بعدما	ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة	قُرنت بأزهر بالشمال مفدم
فإذا شربت فإنني مستهلك	مالي، وعرضي وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى	وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه، أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين، ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: ﴿وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

(٢) ومن تلك الأخلاق الفاضلة الوفاء بالعهد، فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به، ويستهنون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفي في معرفة ذلك قصة هانيء ابن مسعود الشيباني، والسمؤال بن عاديا، وحاجب بن زارة التيمي.

(٣) ومنها عزة النفس وإلباء عن قبول الخسف والضيء، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة، وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل.

- (٤) ومنها المضي في العزائم فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد، والافتخار لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله.
- (٥) ومنها الحلم، والأناة، والتؤدة، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود، لفرط شجاعتهم، وسرعة إقدامهم على القتال.
- (٦) ومنها السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة، ومكائدها، وكان من نتائجه الصدق والأمانة، والنفور عن الخداع والغدر.
- نرى أن هذه الأخلاق الثمينة - مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم - كانت سبباً في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يُفَضِّي إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثمينة، تُدِرُّ المنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح، وهذا الذي فعله الإسلام.
- ولعلَّ أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعا بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضي في العزائم، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد، وإقامة نظام العدل والخير؛ إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم.
- ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها وليس قصدنا استقصاءها.

نسب النبي ﷺ وأسرته

نسب النبي ﷺ:

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء: جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقائل به، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام، وجزء لا نشك أن فيه أموراً غير صحيحة، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا، وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة:

الجزء الأول: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - واسمه شيبه - بن هاشم - واسمه عمرو - بن عبد مناف - واسمه المغيرة - بن قصي - واسمه زيد - بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر - وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة - بن مالك بن النضر - واسمه قيس - بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عامر - بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان^(١).

الجزء الثاني: ما فوق عدنان، وعدنان هو: ابن أد بن هيمس بن سلامان بن عوص بن بوز ابن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيضر بن عبقير بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربي بن يحزن ابن يلحن بن أرعوي بن عيضر بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سُمَي بن مزي بن عوضه بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام^(٢).

الجزء الثالث: ما فوق إبراهيم عليه السلام، وهو ابن تارح - واسمه آزر - بن ناحور بن ساروع - أو ساروغ - بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن سام بن نوح - عليه السلام - بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ - يقال هو إدريس عليه السلام - بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوشة بن شيث بن آدم عليهما السلام^(٣).

(١) ابن هشام ١/١، ٢، تاريخ الطبري ٢/٢٣٩-٢٧١.

(٢) ابن سعد ١/٥٦، ٥٧ تاريخ الطبري ٢/٢٧٢ وانظر للاختلاف في هذا الجزء تاريخ الطبري ٢/٢٧١-٢٧٦ وفتح الباري ٦/٦٢١-٦٢٣.

(٣) ابن هشام ٢/٣، ٤ تاريخ الطبري ٢/٢٧٦ واختلفت المصادر في تلفظ بعض هذه الأسماء وكذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء.

الأسرة النبوية:

تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية - نسبة إلى جدّه هاشم بن عبد مناف - وإذن فلنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده.

(١) هاشم - وقد أسلفنا أن هاشمًا هو الذي تولّى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما، وهاشم كان موسرًا ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمرو فما سُمّي هاشمًا إلا لهشمه الخبز، وهو أول من سنّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف، وفيه يقول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأضياف

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجرًا، فلما قدم المدينة تزوّج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام - وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب - فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م، وسُمّته شيبة لشيبة كانت في رأسه^(١)، وجعلت تربيته في بيت أبيها في يثرب، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم: أسد، وأبو صيفي، ونضلة، وعبد المطلب. وخمس بنات وهن: الشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية، وجنة^(٢).

(٢) عبد المطلب - قد عَلِمْنَا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف (وكان شريفًا مُطَاعًا ذا فضل في قومه، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبة - عبد المطلب - وصيفًا أو فوق ذلك ابن سبع أو ثمان سمع به المطلب. فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه، وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت فقال:

إنما يمضي إلى ملك أبيه، وإلى حرم الله، فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم، فأقام عنده حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن، فولي بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم، وشرف في قومه شرفًا لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبّه قومه، وعَظُمَ خطرُه فيهم^(٣).

(١) ابن هشام ١/١٣٧، ١٥٧ وأيضًا الروض الأنف.

(٢) ابن هشام ١/١٠٧.

(٣) ابن هشام ١/١٣٧، ١٣٨ وتعيين السن من تاريخ الطبري ٢/٢٤٧.

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغصبه إياها، فسأل رجالاً من قريش النصره على عمه، فقالوا: لا نُدْخِلُ بينك وبين عمك، فكتب إلى أخواله من بني النجار أبياتاً يستنجدهم، وسار خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين راكباً، حتى نزل بالأبطح من مكة، فتلقاه عبد المطلب، فقال: المنزل، يا خال! فقال: لا والله! حتى ألقى نوفلاً، ثم أقبل فوقف نوفل، وهو جالس في الحجر مع مشايخ قريش، فسأل أبو سعد سيفه وقال: ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأمكنن منك هذا السيف، فقال: رددتها عليه، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثاً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة، فلما جرى ذلك حالف نوفل بني عبد شمس بن عبد مناف على بني هاشم، ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب قالوا: نحن ولدناه كما ولدتموه، فنحن أحق بنصره - وذلك أن أم عبد مناف منهم - فدخلوا دار الندوة، وحالفوا بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل، وهذا الحلف هو الذي صار سبباً لفتح مكة كما سيأتي^(١).

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيان^(٢):

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل.

وخلاصة الأول: أنه أمر في المنام بحفر زمزم ووُصِفَ له موضعها، فقام يحفر، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء، أي: السيوف والدروع والغزاليين من الذهب، فضرب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب الغزاليين صفائح من ذهب، وأقام سقاية زمزم للحجاج.

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب، وقالوا له: أشركنا قال: ما أنا بفاعل، هذا أمر خُصِّصت به، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد بأطراف الشام ونفذ الماء في الطريق فأنزل الله مطراً على عبد المطلب، ولم ينزل عليهم قطرة، فعفروا تخصيص عبد المطلب بزمزم ورجعوا، وحيث نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة.

وخلاصة الثاني: أن أبرهة الصباح الحبشي، النائب العام عن النجاشي على اليمن، لما رأى العرب يُحْجُّون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء، وأراد أن يصرف حج العرب إليها، وسمع بذلك رجل من بني كنانة، فدخلها ليلاً فطبخ قبلتها بالعذرة، ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه، وسار بجيش عرمرم - عدده ستون ألف جندي - إلى الكعبة ليهدمها، واختار لنفسه

(١) فصله الطبري في تاريخه ٢/ ٢٤٨ - ٢٥١.

(٢) ابن هشام ١/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧.

فيلاً من أكبر الفيلة، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلاً، وواصل سيره حتى بلغ المغمس، وهناك عباً جيشه، وهيئاً فيله، وتهيئاً لدخول مكة، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل، ولم يقدّم إلى الكعبة، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، فيبناهم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجله أمثال الحمص، لا تصيب منهم أحداً إلا صارت تتقطع أعضاؤه، وهلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هارين يموج بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق، وهلكوا على كل منهل، وأما أبرهة فبعث الله عليه داءً تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك.

وأما قريش فكانوا قد تفرّقوا في الشباب وتحرزوا في رؤوس الجبال، خوفاً على أنفسهم من معرة الجيش، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين^(١).

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً - عند الأكثر - وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١م، وكانت مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته، لأننا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله سيطروا على هذه القبلة مرتين، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ ق.م، والرومان سنة ٧٠م، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصارى - وهم المسلمون إذ ذاك - مع أن أهلها كانوا مشركين.

وقد وقعت هذه الواقعة في الظروف التي يبلغ نبأها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك، فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم، ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الواقعة، وهاتان الدولتان كانتا تمثّلان العالم المتحضر في ذلك الوقت. فهذه الواقعة لفتت أنظار العالم ودلّته على شرف بيت الله، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس، فإذا لو قام أحد من أهله بدعوى النبوة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الواقعة، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله للمشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب.

وكان لعبد المطلب عشرة بنين، وهم: الحارث والزبير وأبو طالب، وعبد الله، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، والمقوم، وصفار، والعباس، وقيل: كانوا أحد عشر، فزادوا ولداً

(١) ابن هشام ٤٣/١ إلى ٥٦، وتفسير سورة الفيل من كتب التفسير.

اسمه قثم، وقيل: كانوا ثلاثة عشر، فزادوا عبد الكعبة وحجلاً، وقيل: إن عبد الكعبة هو المقوم، وحجلاً هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم، وأما البنات فست وهن: أم الحكيم - وهي البيضاء - وبيرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة^(١).

(٣) عبد الله والد رسول الله ﷺ - أمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة، وكان عبدالله أحسن أولاد عبد المطلب، وأعفهم وأحبهم إليه، وهو الذبيح، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة، وعرف أنهم يمنعونهم أخبرهم بنذره فأطاعوه، فكتب أسماءهم في القداح، وأعطاهم قيم هبل، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله، فأخذه عبد المطلب، وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه، فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب، فقال عبد المطلب: فكيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرّافة فيستأمرها، فأتاها، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشرًا من الإبل حتى يرضى ربه، فإن خرجت على الإبل نحرها، فرجع وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشرًا عشرًا ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها، فنحرت عنه، ثم تركها عبد المطلب لا يردُّ عنها إنسانًا ولا سبعًا، وكانت الدّية في قريش وفي العرب عشرًا من الإبل، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل، وأقرّها الإسلام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يعني إسماعيل، وأباه عبدالله^(٢).

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يؤمئذ تُعدُّ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، وأبوها سيد بني زهرة نسبًا وشرافًا، فزوجه بها، فبنى بها عبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرًا، فمات بها، وقيل: بل خرج تاجرًا إلى الشام، فأقبل في غير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودُفن في دار النابغة الجعدي، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل: بل توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر^(٣). ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم وجاور لحدا خارجًا في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

(١) سيرة ابن هشام ١٠٨/١، ١٠٩ تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٨، ٩.

(٢) ابن هشام ١٥١/١ إلى ١٥٥، تاريخ الطبري ٢/٢٤٠ - ٢٤٣.

(٣) ابن هشام ١٥٦/١، ١٥٨، تاريخ الطبري ٢/٢٤٦، الروض الأنف ١/١٨٤.

عشية راحوا يحملون سريره تعاوزه أصحابه في التراحم
 فإن تلك غالته المنايا وربها فقد كان معطاء كثير التراحم^(١)
 وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم
 أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ^(٢).

(١) طبقات ابن سعد ١/١٠٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٤ صحيح مسلم ٩٦/٢.

المولد وأربعون عامًا قبل النبوة

المَوْلِد:

وُلِدَ سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا^(١).

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت: لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام، وروى أحمد والدارمي وغيرهما ما يقارب ذلك^(٢).

وقد روي أن إرهابات بالبعثة وقعت عند الميلاد، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت، روى ذلك الطبري والبيهقي وغيرهما^(٣) وليس لها إسناد ثابت.

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جدّه عبد المطلب تبشّره بحفيده، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة، ودعا الله وشكر له^(٤)، واختار له اسم محمد - وهذا الاسم لم يكن معروفاً في العرب - وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون^(٥).

وأول من أرضعته من المراضع - بعد أمه ﷺ - ثوية مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له: مسروح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي^(٦).

في بني سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم، ابتعاداً لهم عن

(١) نتائج الأفهام للفلكي ص ٢٨-٣٥ ط: بيروت، رحمة للعالمين ١/٣٨، ٣٩ والاختلاف في تعيين تاريخ أبريل حسب التقويم القديم والجديد.

(٢) ابن سعد ١/٦٣، مسند أحمد ٤/١٢٧، ١٢٨، ١٨٥، ٢٦٢/٥، الدارمي ٩/١.

(٣) دلائل البيهقي ١/١٢٦، ١٢٧، تاريخ الطبري ٢/١٦٦، ١٦٧، البداية والنهاية ٢/٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) ابن هشام ١/١٥٩، ١٦٠، ابن سعد ١/١٠٣ والطبري ٢/١٥٦، ١٥٧.

(٥) قيل إنه ولد مختوناً، انظر تلقيح فهم أهل الأثر ص ٤ وقال ابن القيم: ليس فيه حديث ثابت. انظر زاد المعاد ١/١٨.

(٦) صحيح البخاري ح ٢٦٤٥، ٥١٠٠، ٥١٠١، ٥١٠٦، ٥١٠٧، ٥٣٧٢.

أمراض الحواضر، لتقوى أجسامهم، وتشدّ أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ المراضع، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر - وهي حليلة بنت أبي ذؤيب - وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة، من نفس القبيلة.

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء - لقب غلب على اسمها -) وكانت تحضن رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ.

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليلة، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين، من جهة ثوية ومن جهة السعدية^(١).

ورأت حليلة من بركته ﷺ ما قصّت منه العجب، ولتركها تروي ذلك مفصلاً:

قال ابن إسحق: كانت حليلة تحدّث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان لي قمراء، معنا شارف لنا، والله! ما تبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجتُ على أتانتي تلك فلقد أدمت بالركب حتى شقّ ذلك عليهم ضعفاً وعجزاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله! إني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله! لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلاخذه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه، فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنّي لم أجد غيره، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجرني أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كُنَّا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياء وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله، يا حليلة! لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله! إنّي لأرجو

ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله! لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمهم، حتى إن صواحي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، وبحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله! إنها لهي هي، فيقلن: والله! إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضًا من أرض الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبْنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياغًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لُبْنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشبُّ شبابًا لا يشبُّه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفراء، قالت: فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلّمنا أمه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردّته معنا^(١).

وهكذا بقي رسول الله ﷺ في بني سعد، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة^(٢) من مولده وقع حادث شق صدره، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علة، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره - فقالوا: إن محمدًا قد قُتِل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون - أي متغير اللون - قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره^(٣).

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الواقعة حتى ردّته إلى أمه، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين^(٤).

ورأت أمة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره ببشر، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو مترًا، ومعها ولدها اليتيم - محمد ﷺ - وخادمتها أم أيمن، وقيمتها

(١) ابن هشام ١/١٦٢، ١٦٣، ١٦٤.

(٢) انظر دلائل النبوة لأبي نعيم ويقتضي سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع في بداية السنة الثالثة، (انظر ابن هشام ١/١٦٤، ١٦٥) وهو شبه متناقض لأن رعي الغنم لا يتصور من صبي لم يكمل من عمره إلا سنتين. ولا يزال في بداية الثالثة.

(٣) صحيح مسلم، باب الإسرائ ١/٩٢.

(٤) تلقيح فهم أهل الأثر ص ٧، ابن هشام ١/١٦٨.

عبد المطلب، فمكثت شهرًا، ثم قفلت، وبينما هي راجعة إذ لحقها المرض في أوائل الطريق، ثم اشتدَّ حتى ماتت بالأبواء بين مكة والمدينة^(١).

إلى جدّه العطف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم، الذي أُصِيبَ بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده، فكان لا يدعه لوحده المفروضة، بل يؤثره على أولاده، قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني هذا فوالله! إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع^(٢).

ولثمانى سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ تُوفِّيَ جده عبد المطلب بمكة، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه^(٣).

إلى عمه الشقيق:

ونهبض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه، وضمه إلى ولده، وقَدَّمه عليهم، واختصّه بفضل احترام وتقدير، وظل فوق أربعين سنة يعزُّ جانبه. ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها.

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قریش: يا أبا طالب! أقحط الوادي، وأجذب العيال، فهلَمَ فاستسقى، فخرج أبو طالب ومعه غلام، كأنه شمس دجن، تجلَّتْ عنه سحابة قماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب، فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعة الغلام، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق واغدوق، وانفجر الوادي وأخضب النادي والبادي، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٤)

(١) ابن هشام ١٦٨/١، تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧.

(٢) ابن هشام ١٦٨/١.

(٣) ابن هشام ١٦٩/١، تلقيح الفهوم ص ٧.

(٤) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي ص ١٥، ١٦.

بحيرا الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة - قيل: وشهرين وعشرة أيام^(١) - ارتحل به أبو طالب تاجرًا إلى الشام، حتى وصل إلى بصرى - وهي معدودة من الشام وقصبة لحوران، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحكم حكم الرومان - وكان في هذه البلد راهب عرف ببحيرا واسمه فيما يقال: جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك فجعل يتخلّلهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول ربّ العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال أبو طالب وأشياخ قريش: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خرّ ساجدًا، ولا تسجدان إلّا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، ثم أكرمهم بالضيافة، وسأل أبا طالب أن يرّده، ولا يقدم به إلى الشام، خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة^(٢).

حرب الفجار:

ولعشرين سنة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سنًا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس. وسمّيت بحرب الفجار لانتهاك حرمة الشهر الحرام فيها، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ، وكان ينبّل على عمومته، أي: يجهز لهم النبل للرمي^(٣).

حلف الفضول:

وعلى إثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسنه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلّا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُردّ عليه مظلّمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لقد

(١) قاله ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٧.

(٢) الترمذي ح ٣٦٢٠، المصنف لابن أبي شيبة ٤٨٩/١١ دلائل البيهقي ٢٤/٢، ٢٥، الطبري ٢/٢٧٨، ٢٧٩، ووقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالا وهو من الغلط الواضح، فإن بلالًا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا، وإن كان موجودًا فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر. زاد المعاد ١٧/١.

(٣) ابن هشام ١/١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، المنق لابن حبيب ص ١٦٤-١٨٥، الكامل لابن الأثير ١/٤٦٨-٤٧٢.

شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحبُّ أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»^(١).

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، ويقال في سبب هذا الحلف: إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار، ومخزوماً، وجمحاً، وسهمًا، وعديًا، فلم يكثرثوا له، فعلا جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف^(٢).

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه، إلا أن الروايات تواترت أنه كان يرعى غنماً، رعاها في بني سعد^(٣)، وفي مكة لأهلها على قراريط^(٤) وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجرًا إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام^(٥).

زواجه خديجة:

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة، وشمائل كريمة، وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين. وجدت ضالتها المنشودة - وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها، فتأبى عليهم ذلك - فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية، وهذه ذهبت إليه ﷺ فتفاتهحه أن يتزوج خديجة، فرضي بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة، وخطبوا إليها، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر،

(١) ابن هشام ١/ ١١٣، ١٣٥، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٣٠، ٣١.

(٢) طبقات ابن سعد ١/ ١٢٦-١٢٨. نسب قريش للزبيدي ص ٢٩١.

(٣) ابن هشام ١/ ١٦٦.

(٤) صحيح البخاري: الإجازات، باب رعي الغنم على قراريط ح ٢٢٦٢.

(٥) ابن هشام ١/ ١٨٧، ١٨٨.

وذلك بعد رجوعه من الشام شهرين، وأصدقها عشرين بكرة، وكانت سنّها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى مات.

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم، ولدت له أولًا القاسم - وبه كان يكنى - ثم زينب ورقية، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ، سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخّرت بعده ستة أشهر، ثم لحقت به^(١).

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة، وذلك لأن الكعبة كانت رضمًا فوق القامة، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها، وكانت مع ذلك قد تعرّضت - باعتبارها أثرًا قديمًا - للعوادي التي أوهمت بنيانها، وصدّعت جدرانها، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم، انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكائنها، واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها إلا طيبًا، فلا يدخلوا فيها مهر بغي، ولا بيع ربّا، ولا مظلمة أحد من الناس، وكانوا يهابون هدمها، فابتدأ بها الوليد بن المغيرة المخزومي، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء، ولم يزلوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد إبراهيم، ثم أرادوا الأخذ في البناء، فجزأوا الكعبة، وخصصوا لكل قبيلة جزءًا منها، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة، وأخذوا يبنونها، وتولى البناء بناء رومي اسمه باقوم، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه، واستمرّ النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتدّ حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يُحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد. فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر طلب الرداء، فوضع الحجر وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده، فوضعه في مكانه، وهذا حل حصيف رضي به القوم.

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوًا من ستة أذرع، وهي التي

(١) ابن هشام ١/١٨٩، ١٩١، وفتح الباري ٧/٥٠٧ وتلقيح الفهوم ص ٧ وبين المصادر اختلاف يسير أخذنا ما هو الأرجح عندها.

تسمى بالحجر والحطيم، ورفعوا بابها من الأرض؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعًا سقفوه على ستة أعمدة.

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا يبلغ ارتفاعه ١٥ مترًا، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠م، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠م من أرضية المطاف. والضلوع الذي في الباب المقابل له ١٢م وبابها على ارتفاع مترين على الأرض، ويحيط بها من الخارج قسبة من البناء أسفلها، متوسط ارتفاعها ٢,٢٥م ومتوسط عرضها ٣,٣٠م وتُسَمَّى بالشاذروان، وهي من أصل البيت لكن قريبًا تركتها^(١).

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل، وإدمان الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عاش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حُسْنًا شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذُبِحَ على النُصْبِ، ولا يحضر للأوثان عيدًا، ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغضُ إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف بالآلات والعزى^(٢).

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها، روى ابن الأثير قال رسول الله ﷺ: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب! فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فممت، فما أيقظني إلا حر الشمس، فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت: ليلة أخرى مثل ذلك،

(١) انظر في تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٢/١٩٢ إلى ١٩٧، وتاريخ الطبري ٢/٢٨٩ وما بعده، وصحيح البخاري باب فضل مكة وبنائها ١/٢١٥، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٦٤، ٦٥.

(٢) انظر لذلك ابن هشام ١/١٢٨. والطبري ٢/١٦١ وتهذيب تاريخ دمشق ١/٣٧٣، ٣٧٦.

ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة . . ثم ما هممت بسوء»^(١).

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال: لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «إزاري، إزاري»، فشدَّ عليه إزاره^(٢) وفي رواية فما رُئيت له عورة بعد ذلك^(٣).

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزَّهم جوارًا، وأعظمهم حِلْمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عريكة، وأعفَّهم نفسًا، وأكرمهم خيرًا، وأبرَّهم عملاً، وأوفاهم عهدًا، وأمنهم أمانة، حتى سمَّاه قومه «الأمين»؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها: يحمل الكلَّ، ويكسب المعدوم، ويُفْرِى الضيف، ويعين على نوائب الحق^(٤).

(١) اختلفوا في صحة هذا الحديث فصحه الحاكم والذهبي وضعَّه ابن كثير في البداية والنهاية ٢/٢٨٧.

(٢) صحيح البخاري باب بَيَان الكعبة ١/٥٤٠.

(٣) المصدر نفسه مع شرح القسطلاني.

(٤) صحيح البخاري ٣/١.

العهد المكي

تنقسم حياة رسول الله ﷺ بعد أن أكرمه الله بالنبوة والرسالة إلى عهدين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز. وهما:

(١) العهد المكي: ثلاث عشرة سنة تقريباً.

(٢) العهد المدني: عشر سنوات كاملةً.

ويشتمل كل من العهدين على عدة مراحل، لكل مرحلة منها خصائص تمتاز بها عن غيرها، ويظهر ذلك جلياً بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال العهدين.

ويمكن تقسيم العهد المكي إلى ثلاث مراحل:

١ - مرحلة الدعوة السرية، ثلاث سنوات.

٢ - مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة.

٣ - مرحلة الدعوة خارج مكة، وفشوها فيهم، من أواخر السنة العاشرة من النبوة، وقد اشتملت العهد المدني، وامتدت إلى آخر حياته ﷺ.

أما مراحل العهد المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه.

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء :

ولما تقاربت سنة ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حُبَّبَ إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور، على مبعدة نحو ميلين من مكة - وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد - فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه.

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وليكون انقطاعه عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة نقطة تحول لاستعداداته لما ينتظره من الأمر العظيم، فيستعدُّ لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.. دَبَّرَ الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبَّر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله^(١).

جبريل ينزل بالوحي :

ولما تكامل له أربعون سنة - وهي رأس الكمال، وقيل: ولها تُبْعَثُ الرسل - بدأت آثار النبوة تتلوح وتلمع فمن ذلك أن حجراً بمكة كان يسلم عليه، ومنها أنه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى مضت على ذلك ستة أشهر - ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة - فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض، فأكرمه بالنبوة، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن^(٢).

(١) انظر لأصل القصة صحيح البخاري ح ٣ وابن هشام ٢٣٥/١، ٢٣٦.

(٢) قال ابن حجر: وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول، بعد إكماله أربعين سنة، وابتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري ١/٢٧).

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يوماً، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و ٢٠ يوماً^(١).

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الواقعة التي كانت نقطة بداية النبوة وأخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال، حتى غيّرت مجرى الحياة، وعدلت خط التاريخ. قالت عائشة رضي الله عنها:

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبّد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ: فقلت: «ما أنا بقارىء»، قال: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما

(١) اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة، وإنزال الوحي، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان، وقيل هو شهر رجب (انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب النجدي ص ٧٥) ورجحنا الثاني - أي أنه شهر رمضان - لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣] ولأن جواره ﷺ بحراء كان في رمضان، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف.

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم، فقيل: هو اليوم السابع، وقيل: السابع عشر، وقيل: الثامن عشر (انظر مختصر سيرة الرسول المذكور ص ٧٥، ورحمة للعالمين ٤٩/١) وقد أصر الخضري في محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٩/١). وإنما رجحنا أنه اليوم الحادي والعشرون لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الإثنين، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن صوم يوم الإثنين، فقال: «فيه ولدت وفيه أنزل علي» وفي لفظ: «ذاك يوم ولدت فيه ويوم بُعِثْتُ أو أنزل علي فيه» (صحيح مسلم ٣٦٨/١، أحمد ٢٩٧/٥، ٢٩٩، البيهقي ٢٨٦/٤، ٣٠٠، الحاكم ٦٠٢/٢) ويوم الاثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع، والرابع عشر، والحادي والعشرين، والثامن والعشرين، قد دلّت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان وأنها تنتقل فيما بين هذه الليالي، فإذا قارنا بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وبين رواية أبي قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الإثنين وبين حساب التقويم العلمي في وقوع يوم الإثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلاً.

أنا بقارىء. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(١) [العلق: ١-٣] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: «مالي» وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا، والله! ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة - وكان امرأ تنصّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي - فقالت له خديجة: يا ابن عم! اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي! ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ: «أو مُخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(٢).

فترة الوحي:

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً^(٣) وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب، وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال، وليس هذا موضع التفصيل في رده. وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيباً محزوناً، تعتربه الحيرة والدهشة، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه:

وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً عدا^(٤) منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلّما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال: يا محمد! إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقرّ نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك^(٥).

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية:

قال ابن حجر: وكان ذلك (أي انقطاع الوحي أياماً)، ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع،

(١) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

(٢) صحيح البخاري ٢/١، ٣، وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا.

(٣) فتح الباري ٢٧/١، ٣٦٠/١٢.

(٤) بالعين المهملة من العدو، وهو الذهاب بسرعة، وفي بعض النسخ «غدا» بالعين المعجمة.

(٥) صحيح البخاري كتاب التعبير باب أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ١٠٣٤٠/٢.

وليحصل له التشوف إلى العود^(١)، فلما حصل له ذلك، وأخذ يرتقب مجيء الوحي، جاءه جبريل للمرة الثانية. روى البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، قال: «فينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجئت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي فقلت: زملوني زملوني، فزملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾ إلى قوله: ﴿فَاهْجُرْ﴾، ثم حمى الوحي وتتابع^(٢)» وفي الصحيح: «جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جوارى هبطت فلما استبطنت الوادي فنوديت» ثم ذكر نحو ما تقدم، ومعناه أنه نزل بعد إكمال جوار شهر رمضان، فتكون الفترة بين الوحين عشرة أيام. لأنه لم يجاور رمضان آخر بعد نزول أول الوحي.

وهذه الآيات هي مبدأ رسالته ﷺ، وهي متأخرة عن النبوة بمقدار فترة الوحي. وتشتمل على نوعين من التكليف مع بيان ما يترتب عليه.

النوع الأول: تكليفه ﷺ بالبلاغ والتحذير، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَرُّ فَأَذِرْ﴾ فإن معناه: حذر الناس من عذاب الله إن لم يرجعوا عما هم فيه من الغي والضلال وعبادة غير الله المتعال، والإشراك به في الذات والصفات والحقوق والأفعال.

النوع الثاني: تكليفه ﷺ بتطبيق أوامر الله سبحانه وتعالى على ذاته، والالتزام بها في نفسه، ليحرز بذلك مرضاة الله، ويصير أسوة حسنة لمن آمن بالله، وذلك في بقية الآيات. فقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ معناه خصّه بالتعظيم، ولا تشرك به في ذلك أحداً. وقوله: ﴿وَبِأَبْكَ فَطَهِّرْ﴾ المقصود الظاهر منه تطهير الثياب والجسد، إذ ليس لمن يكبر الله ويقف بين يديه أن يكون نجساً مستقذراً، وإذا كان هذا التطهر مطلوباً فإن التطهر من أدران الشرك وأرجاس الأعمال والأخلاق أولى بالطلب، وقوله: ﴿وَالزَّخْرَ فَاهْجُرْ﴾ معناه ابتعد عن أسباب سخط الله وعذابه، وذلك بالالتزام طاعته وترك معصيته. وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْكَرُ﴾ أي: لا تُحسِنُ إحساناً تريد أجره من الناس أو تريد له جزاء أفضل في هذه الدنيا.

أما الآية الأخيرة ففيها تنبيه على ما يلحقه من أذى قومه حين يفارقهم في الدين، ويقوم بدعوتهم إلى الله وحده، وبتحذيرهم من عذابه وبطشه فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

ثم إن مطلع الآيات تضمّنت النداء العلوي - في صوت الكبير المتعال - بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفع إلى الجهاد والكفاح والمشقة: ﴿يَأْتِيهَا

(١) فتح الباري ١/٢٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٢/٧٣٣.

الْمَدِيرُ قُرْ فَأَذَرُ ، كأنه قيل: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافئ؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح؟ قم للأمر العظيم الذي ينتظرك. والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب، والكد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل، والجهد الطويل الشاق، قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد.

إنها لكلمة عظيمة رهيبة، تنزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء.

وقام رسول الله ﷺ ، فظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا! لم يسترح ولم يسكن، ولم يعيش لنفسه ولا لأهله. قام وظل قائمًا على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا. لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد منذ أن سمع النداء العلوي الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب... جزاه الله عتًا وعن البشرية كلها خير الجزاء^(١).

وليست الأوراق الآتية إلا صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذي قام به رسول الله ﷺ خلال هذا الأمد.

استطرد في بيان أقسام الوحي:

قبل أن نأخذ في تفصيل حياة الرسالة والنبوة، نرى أن نتعرف أقسام الوحي الذي هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة. قال ابن القيم - وهو يذكر مراتب الوحي:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ.

الثانية: ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها. فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته».

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

(١) في ظلال القرآن تفسير سورتي المزمل والمدثر، ج ٢٩/١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٨٢.

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك، حتى أن جبينه لتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فنقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خُلِقَ عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم.

السادسة: ما أوحاه الله إليه، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن. وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء.

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة: وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف. انتهى مع تلخيص يسير في بيان المرتبة الأولى والثامنة^(١)، والحق أن هذه الأخيرة ليست بثابتة.

المرحلة الأولى من جهاد الدعوة إلى الله

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب، وكان بها سدة الكعبة، والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عمّا لو كان بعيداً عنها، فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية، لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم.

الرعيّل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألق الناس به وآل بيته، وأصدقائه، فدعاهم إلى الإسلام، ودعا إليه كل من توسّم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه، يعرفهم بحب الحق والخير، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح، فأجابه من هؤلاء - الذين لم تخلجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره - جمع عُرُفُوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي^(١) وابن عمه علي بن أبي طالب - وكان صبيّاً يعيش في كفالة الرسول - وصديقه الحميم أبو بكر الصديق، أسلم هؤلاء في أول يوم الدعوة.

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام، وكان رجلاً مألُفاً محبوباً سهلاً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي، والزبير ابن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيدالله التيمي، فكان هؤلاء نفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيّل الأول وطلعية الإسلام.

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي، ثم تلاهم أمين هذه الأمة^(٢) أبو عبيدة عامر

(١) كان قد أسير ورُقّي، فملكته خديجة، ووهبته لرسول الله ﷺ، وجاءه أبوه وعمه ليندبا به إلى قومه وعشيرته، فاخترار عليهما رسول الله ﷺ، فتبناه حسب قواعد العرب، وكان لذلك يقال: زيد بن محمد، حتى جاء الإسلام فأبطل التّبي. قُتل يوم مؤتة، وهو أمير العسكر، في جمادى الأولى سنة ٨هـ.

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي، ثم تلاهم أمين هذه الأمة^(١) أبو عبيدة عامر ابن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد العدوي، وامراته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم، وأولئك هم السابقون الأولون، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا^(٢). وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر.

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به^(٣).

أسلم هؤلاء سرًا، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفيًا؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر. وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك.

الصلاة:

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة، قال ابن حجر: كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعًا، وكذلك أصحابه، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا؟ فقليل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. انتهى. وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة: أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحى إليه أتاه جبريل، فعلمه الوضوء، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فوضح بها فرجه. وقد روى ابن ماجه بمعناه، وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس، وكان ذلك من أول الفريضة^(٤).

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعليًا يُصَلِّيَانِ مرة، فكلَّمهما في

(١) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ٥٣٠/١.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢٤٥/١ إلى ٢٦٢.

(٣) المصدر نفسه ٢٦٢/١.

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٨٨.

ذلك، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات^(١).

الخبر يبلغ إلى قريش إجمالاً:

والدعوة - في هذه المرحلة - وإن كانت سرية وفردية، لكن بلغت أنباءها إلى قريش، بيد أنها لم تكثر بها حيث لم يتعرض رسول الله ﷺ لدينهم، ولم يتكلم في آلهتهم. مرت ثلاث سنين والدعوة لم تنزل سرية وفردية، وخلال هذه الفترة تكوّنت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها، ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه، ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم.

(١) ابن هشام ١/٢٤٧.

المرحلة الثانية

الدعوة جهارًا

أول أمر بإظهار الدعوة:

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وقد ورد سياق ذكرت فيه أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، ونجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله.

وكأن هذا التفصيل إنما جيء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجًا لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم.

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسول، من قوم نوح، وعاد واثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة - عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه - ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين.

الدعوة في الأقربين:

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بني هاشم بعد نزول هذه الآية فجاؤوا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلًا. فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّبابة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أيلك، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحدًا جاء على بني أبيه بشرٌ مما جئت به، فسكت رسول الله ﷺ، ولم يتكلم في ذلك المجلس.

ثم دعاهم ثانية وقال: «الحمد لله أحمده، وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم قال: إن الرائد لا يكذب أهله والله، الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله! لتموتنَّ كما تنامون، ولتبعثنَّ كما تستيقظون، ولتَحَاسِبُنَّ بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا». فقال أبو طالب: ما أحبُّ

إلينا معاوتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشدُّ تصديقنا لحديثك، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم غير أنني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به. فوالله! لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله! لنمنعه ما بقينا^(١).

على جبل الصفا:

وبعدما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته، وهو يبلغ عن ربه، قام يومًا على الصفا فصرخ: يا صباحاه، فاجتمع إليه بطون قريش، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر، وقد روى البخاري طرفًا من هذه القصة عن ابن عباس. قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولًا لينظر ما هو؟ فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم. ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ﴾^(٢) [المسد: ١].

وروى مسلم طرفًا آخر من هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعمَّ وخصَّ فقال: «يا معشر قريش! أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النار، فإني والله! لا أملك لكم من الله شيئًا، إلا أن لكم رحمًا سألها ببلالها»^(٣).

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم. وأن عصية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

الصدع بالحق وردود فعل المشركين:

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فقام رسول الله ﷺ يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين

(١) الكامل لابن الأثير ٥٨٤/١، ٥٨٥.

(٢) صحيح البخاري ٧٠٢/٢، ٧٤٣، والرواية مخرجة في صحيح مسلم أيضًا ١١٤/١.

(٣) صحيح مسلم ١١٤/١، صحيح البخاري ٣٨٥/١، ٧٠٢/٢، مشكاة المصابيح ٤٦٠/٢.

ونوادبهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم، وكان يصلي بفناء الكعبة نهارًا جهارًا، وعلى رؤوس الأشهاد.

وقد نالت دعوته مزيدًا من القبول، ودخل الناس في دين الله واحدًا بعد واحد، وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد، واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يبصرون.

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشًا أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضًا، ويردُّ قولكم بعضه بعضًا، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا. والله! ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول: مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بختقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول؟ قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر. جاء بقول هو سحر يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك^(١).

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما ردَّ عليهم كل ما عرضوا له، قالوا: أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه، فقال لهم: أمهلوني حتى أفكر في ذلك، فظل الوليد يفكر ويفكر، حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفًا.

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المائدة (من ١١ إلى ٢٦) وفي خلالها صور كيفية تفكيره، فقال: ﴿إِنَّهُمْ فَكَرُوا وَدَرَّ فَقُلْ كَيْفَ قَدَرْتُمْ قُلْ كَيْفَ قَدَرْتُمْ نَظَرْتُمْ عَبَسَ وَبَسَرْتُمْ أَذَبَرْتُمْ وَاشْتَكَبَرْتُمْ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾.

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره^(١).

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس إذا وافى الموسم في منازلهم وفي عكاظ، ومجنة، وذبي المجاز، يدعوههم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب^(٢).

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما فرغت قريش من الحج فكّرت في أساليب تقضي على الدعوة في مهدها، فاختارت ما يلي:

١ - السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك، قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة وشائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] ويصمونهم بالسحر والكذب: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعة هائجة: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١] وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزؤوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه ﴿مَنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] وكانوا كما قص الله علينا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ۚ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۚ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

٢ - تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات، وبث الدعايات الكاذبة، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم، وحول ذاته وشخصيته، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته، فكانوا يقولون عن القرآن: ﴿أَسْطِيزُ الْأُولَآئِكَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] وكانوا يقولون: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ: ﴿مَا لَ هَذَا أَلْأَسْوَلُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَتَشَبَّهِ فِي الْأُنثَىٰ﴾ [الفرقان: ٧] وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها.

(١) ابن هشام ١/٢٧١.

(٢) روى فعله هذا الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٩٢، ٤/٣٤١. وانظر البداية والنهاية ٥/٧٥ وكنز العمال ١٢/٤٤٩، ٤٥٠.

٣ - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن ومعارضة القرآن بأساطير الأولين، وتشغيل الناس بها عنه، فقد ذكروا أن النضر بن الحارث ذهب إلى الحيرة، وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نعمته خلفه النضر، ويقول: والله! ما محمد بأحسن حديثًا مني، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثًا مني؟^(١).

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينة، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول: أطعميه واسقيه واغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢) [لقمان: ٦].

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئًا فشيئًا لكفّ الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تُجدي لهم نفعًا في إحباط الدعوة الإسلامية؛ اجتمعوا مرة أخرى، واستشاروا فيما بينهم، فقرروا القيام بتعذيب المسلمين، وفتنتهم عن دينهم، فانقض كل رئيس على من دان من قبيلته بالإسلام وتبعه الأذنان والأوباش، فجرؤوا على المسلمين ويلات تقشعر منها الجلود وتتفطر لسماعها القلوب.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به^(٣).

وكان عمّ عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته^(٤). ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتخشف جلده تخشف الحية^(٥).

وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذَّب حتى يفقد وعيه، ولا يدري ما يقول^(٦).

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً، ثم يسلمه إلى

(١) ملخصًا من ابن هشام ٢٩٩/١، ٣٠٠، ٣٥٨.

(٢) الدر المنثور: تفسير سورة لقمان: ٦ (٣٠٧/٥).

(٣) ابن هشام ٣٢٠/١.

(٤) رحمة للعالمين ٥٧/١.

(٥) أسد الغابة ٤/٤٦٠، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠.

(٦) الإصابة ٣، ٢٥٥/٤، ابن سعد ٢٤٨/٣.

الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه، وكان أمية يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، وكان يلجئه إلى الجلوس في حرِّ الشمس، كما كان يُكرِّهه على الجوع، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجُه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللآلئ والعزى. فيقول - وهو في ذلك - أحد، أحد، حتى مر به أبو بكر يومًا وهم يصنعون ذلك به، فاشتره بـغلام أسود، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه^(١).

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء، فيعذبونهم بحرما، ومرَّ بهم النبي ﷺ وهم يُعَذَّبون فقال: «صبرًا آل ياسر! فإن موعدكم الجنة» فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وشدّدوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبالتغريق أخرى. وقالوا: لا نتركك حتى تسبَّ محمدًا، أو تقول: في اللآلئ والعزى خيرًا، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبي ﷺ، فأُنزل الله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾^(٢) [النحل: ١٠٦].

وكان أبو فكيهة - واسمه أفلح - مولى لبني عبد الدار، فكانوا يبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، وقد ربطوا رجله مرة بحبل وجروه وألقوه في الرمضاء وخنقوه، حتى ظنوا أنه مات، فمر به أبو بكر فاشتره وأعتقه الله^(٣).

وكان خباب بن الارت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية، فكان المشركون يذيقونه أنواعًا من التنكيل، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبًا، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وقد ألقوه على النار ثم سحبوه عليها فما أطفأها إلا ودك ظهره^(٤).

وكانت زينة والنهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا، وأسلمت جارية لبني مؤمل - وهم حي من بني عدي - فكان عمر بن الخطاب - وهو يومئذ مشرك - يضربها، حتى إذا ملَّ قال: إني لم أتركك إلا ملالة^(٥).

(١) تلقيح الفهم ص ٦١، ابن هشام ٣١٧/١، ٣١٨.

(٢) ابن هشام ٣١٩/١، ٣٢٠، ابن سعد ٢٤٨/٣، ٢٤٩، وروى بعض ذلك العوفي عن ابن عباس، انظر تفسير ابن كثير: الآية المذكورة.

(٣) أسد الغابة ٢٤٨/٥، الإصابة ٧، ١٥٢/٨.

(٤) أسد الغابة ٥٩١/١، ٥٩٢، تلقيح فهم أهل الأثر ص ٦٠.

(٥) ابن هشام ٣١٩/١.

وابتاع أبو بكر هذه الجواري فأعتقهن، كما أعتق بلالًا وعامر بن فهيرة^(١).

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر، ثم يلقونه في حر الرمضاء، ويلبسون بعضًا آخر درعًا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتتهبة^(٢).

وقائمة المعذبين في الله طويلة ومؤلمة جدًّا، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدُّوا له وأذوه.

موقف المشركين من رسول الله ﷺ:

وأما بالنسبة لرسول الله ﷺ فإنه ﷺ كان رجلًا شهمًا وقورًا ذا شخصية فذة، تتعاضده نفوس الأعداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثله إلا بالإجلال والتشريف، ولا يجترىء على اقتراف الدنيا والردائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم، ومع ذلك كان في منعة أبي طالب، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين كان معظَّمًا في أصله، معظَّمًا بين الناس، فكان من الصعب أن يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أفلق قريشًا وأقامهم وأقعدهم، ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا في محذور لا يحمد عقباه، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع المسئول الأكبر: أبي طالب. ولكن مع شيء كبير من الحكمة والجدية، ومع نوع من أسلوب التحدي والتهديد الخفي حتى يذعن لما يقولون.

وفد قريش إلى أبي طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَهَ أحلامنا، وضلَّلَ آباءنا، فإما أن تكفَّ عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقًا، وردَّهم ردًّا جميلًا، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه^(٣) ولكن لم تصبر قريش طويلًا حين رآته ﷺ ماضيًا في عمله ودعوته إلى الله. بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه حتى قررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق.

قريش يهددون أبا طالب:

وجاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب! إن لك سنًا وشرفًا ومنزلة

(١) ابن هشام ٣١٨/١، ٣١٩.

(٢) رحمة للعالمين ٥٨/١.

(٣) ابن هشام ٢٦٥/١.

فيما. وإنا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تنتهه عنا، وإنا والله! لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا ابن أخي! إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا كذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تُحْمِلني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وأنه ضُغِف عن نصرته، فقال: «يا عم! والله! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته»، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا ابن أخي! فقل ما أحببت، فوالله! لا أسلمك لشيء أبدًا^(١) وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينًا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وابشر وقر بذاك منك عيونًا^(٢)
وذلك في أبيات:

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله عرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: يا أبا طالب! إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذ به فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم، فقتله، فإنما هو رجل برجل، فقال: والله! لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكُم ابني تقتلونه؟ هذا والله! ما لا يكون أبدًا. فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: والله يا أبا طالب! لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا، فقال: والله! ما أنصفتموني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ، فاصنع ما بدا لك^(٣).

ولما فشلت قريش في هذه المفاوضات، ولم توفق في إقناع أبي طالب بمنع رسول الله ﷺ وكفَّه عن الدعوة إلى الله قررت أن تختار سبيلًا قد حاولت تجنبه والابتعاد منه مخافة مغيبته وما يؤول إليه، وهو سبيل الاعتداء على ذات الرسول ﷺ.

(١) ابن هشام ١/١٦٥، ١٦٦.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي ٢/١٨٨.

(٣) ابن هشام ١/٢٦٦، ٢٦٧.

اعتداءات على رسول الله ﷺ:

واخترقت قريش ما كانت تتعاطمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعب على غطرسها وكبرائها أن تصبر طويلًا، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله ﷺ، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشويه والتليبس والتشويش وغير ذلك. وكان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رؤوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدوًا لدودًا للإسلام وأهله، وقد وقف موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك. وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا، وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة، حتى طلقاهما^(١).

ولما مات عبد الله - الابن الثاني لرسول الله ﷺ - استبشر أبو لهب، وذهب إلى المشركين يشرهم بأن محمدًا صار أتر^(٢).

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه^(٣).

وكانت امرأة أبي لهب - أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان - لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حربًا شعواء على النبي ﷺ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب.

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله! لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله! إني لشاعرة. ثم قالت:

مذممًا عصينا * وأمره أينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأيته، لقد أخذ الله

(١) أسد الغابة ٦/ ترجمة رقية وأم كلثوم..

(٢) تفسير ابن كثير: سورة الكوثر.

(٣) كنز العمال ٤٤٩/١٢.

ببصرها عني^(١).

وروى أبو بكر البزار هذه القصة. وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت: «أبا بكر هجانا صاحبك، فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به، فقالت: إنك لمصدق».

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عمُّ رسول الله ﷺ وجاره، كان بيته ملصقًا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته.

قال ابن إسحاق: كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي - وكانوا جيرانه - لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص^(٢)، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجرًا ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف! أي جوار هذا؟ ثم يلقى في الطريق^(٣).

وإزداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)^(٤) فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي ﷺ وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أُعْني شيئًا، لو كانت لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطراً)، ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سَمَى، اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط - وعد السابع فلم يحفظه - فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القلب، قلب بدر^(٥). والسابع هو عمارة بن الوليد^(٦).

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣٣٥/١، ٣٣٦.

(٢) هو أبو الخليفة الأموي مروان بن الحكم.

(٣) ابن هشام ٤١٦/١.

(٤) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ٥٤٣/١.

(٥) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على المصلي قدر أو جيفة ٣٧/١.

(٦) صحيح البخاري ح ٥٢٠ آخر حديث في كتاب الصلاة.

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناب سراً ويؤذيهم^(١).

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين، وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبيًا أنه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل، وأبي بن خلف نفسه فت عظمًا رميًا ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ^(٢).

وكان الأخنس بن شريق الثقيفي ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ فَمٍ مِّمَّنْ ۖ وَهَمَّازٌ مِّمَّنْ ۖ وَنَمِيمٌ ۖ مِّنَّا لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ ۖ أَيْمِرٌ ۖ عَثَلٌ ۖ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾ [القلم: ١٠-١٣].

وكان أبو جهل يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالاً بما يفعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئاً يذكر، وفيه نزل: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ [القيامة: ٣١] إلخ وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال: يا محمد! ألم أنهك عن هذا، وتوعدته فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد! بأي شيء تهددني؟ أما والله! إني لأكثر هذا الوادي نادياً. فأنزل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَعُ الرِّيَازِ﴾ [العلق: ١٧] وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخنقه، وهزه، وهو يقول له: ﴿أَوَلَيْكَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ ۖ ثُمَّ أَوَلَيْكَ لَكَ فَأُولَٰئِكَ﴾ [القيامة: ٣٤، ٣٥] فقال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله! لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشي بين جبلتيها^(٣).

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتহার، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللآلئ والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعقرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخدقاً من نار وهؤلاء أجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»^(٤).

هذه صورة مصغرة جداً لما كان يتلقاه رسول الله ﷺ والمسلمون من ظلم وخسف وجور

(١) ابن هشام ١/٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) المصدر نفسه ١/٣٦١، ٣٦٢.

(٣) ابن جرير في التفسير، الترمذي تفسير سورة اقرأ ابن كثير ٤/٤٧٧، الدر المنثور ٦/٤٧٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه. صفات المنافقين ح ٣٨.

على أيدي طغاة المشركين الذين كانوا يزعمون أنهم أهل الله وسكان حرمه.

دار الأرقم:

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولاً أو فعلاً، وأن لا يجتمع بهم إلا سراً؛ لأنه إذا اجتمع بهم علناً فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تركية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة، وربما يُفْضِي ذلك إلى مصادمة الفريقين، بل وقع ذلك فعلاً في السنة الرابعة من النبوة، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب، فيصلون فيها سراً، فرآهم نفر من كفار قريش، فسؤوهم وقتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه، وكان أول دم أهرق في الإسلام^(١).

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم، فكان من الحكمة الاختفاء، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهرائي المشركين، لا يصرفه عن ذلك شيء، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سراً؛ نظراً لصالحهم وصالح الإسلام، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي على الصفا، وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم، فكان اتّخاذها مركزاً لدعوته، ولا اجتماعه بالمسلمين فكان يتلو عليهم فيها آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل يوماً فيوماً وشهراً شهراً حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة، حتى نبا بهم المقام في مكة، وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِقُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يُظَلَم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن.

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة، كان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد قال النبي ﷺ فيهما: إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما

السلام^(١).

كان رحيل هؤلاء تسللاً في ظلمة الليل - حتى لا تفطن لهم قريش - خرجوا إلى البحر، ويمموا ميناء شعبية، وقِيضَتْ لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار^(٢).

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين:

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم، وهناك جمع كبير من قريش، كان فيه ساداتها وكبرائها، فقام فيهم، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضاً، من قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب - لا يحيط بروعته وجلالته البيان - تفانوا عما هم فيه، وبقي كل واحد مصغياً إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ: ﴿فَاصْبِرُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢] ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خرَّ ساجداً، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين^(٣).

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفناؤه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها: «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى»، جاؤوا بهذا الإفك المبين، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يؤلفون الكذب، ويطيّلون الدس والافتراء.

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشاً أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار، وعرفوا جلية الأمر، رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من

(١) زاد المعاد ٢٤/١.

(٢) زاد المعاد ٢٤/١.

(٣) روى البخاري قصة السجود مختصراً عن ابن مسعود وابن عباس، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركون ١٤٦/١، وباب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥٤٣/١.

سائرهم أحد إلا مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش^(١).

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

ثم اشتدَّ عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائريهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله ﷺ بُدّاً من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وكانت هذه الهجرة الثانية أشقَّ من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسّر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا.

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثمانين عشرة أو تسع عشرة امرأة^(٢).

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

عزَّ على المشركين أن يجد المهاجرون مأمنًا لأنفسهم ودينهم، فاخترأوا رجلين جليدين لببيين، وهما: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقه، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يُطَرِّدُ بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يسيروا على النجاشي بإقصائهم، حضروا إلى النجاشي، وقدموا له الهدايا ثم كلَّماه، فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم، لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيئاً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة: صدَّقاً أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم.

ولكن رأي النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعاً، فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضرُوا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان، فقال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتكلِّم عن المسلمين -: أيها الملك، كُنَّا قومًا أهل

(١) زاد المعاد ١/٢٤، ٢/٤٤، وابن هشام ١/٣٦٤.

(٢) انظر زاد المعاد ١/٢٤.

جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي بالفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوي الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدّد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وآمنا به، واتّبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحلّلنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجعنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ فقال له جعفر: نعم! فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدرًا من: ﴿كَهَيَّصَ﴾ [مريم: ١] فبكى والله! النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا، والله! لا أسلمهم إليكما ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن ربيعة: والله! لا يَبَيْتَهُ غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصرّ عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان، فلما دخلوا عليه، وسألهم قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله! ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقه، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي - والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة - من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم - والدبر: الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله! ما أخذ الله مني الرشوة

حين ردّ علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجنا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاؤوا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار^(١).

هذه رواية ابن إسحاق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفاة كانت مرتين لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفاة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحاق تقريباً، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مرافعة قُدِّمت إلى النجاشي.

الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ:

ولما أُخْفِقَ المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين استشاطوا غضباً، وكانوا يتميزون غيظاً، فاشتدَّت ضراوتهم، وانقضوا بقية المسلمين، ومدُّوا أيديهم إلى رسول الله ﷺ بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله ﷺ. ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم.

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقيين منهم في مكة كانوا قليلين جداً، وكانوا إما ذوي شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم، ويتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان. ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور.

وأما رسول الله ﷺ فقد كان يصلي ويعبد الله أمام أعين الطغاة، ويدعو إلى الله سرّاً وجهراً. لا يمنعه عن ذلك مانع، ولا يصرفه عنه شيء، إذ كان ذلك من جملة تبليغ رسالة الله منذ أمره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، وبذلك كان يمكن للمشركين أن يتعرضوا له إذا أرادوا. ولم يكن في الظاهر ما يحول بينهم وبين ما يريدون إلا ما كان له ﷺ من الحشمة والوقار، وما كان لأبي طالب من الدمة والاحترام، وما كانوا يخافونه من مغبة سوء تصرفاتهم، ومن اجتماع بني هاشم عليهم. إلا أن كل ذلك لم يعد له أثره المطلوب في نفوسهم، إذ بدؤوا يستخفون به منذ شعروا بانهيار كيانهم الوثني وزعامتهم الدينية أمام دعوته ﷺ.

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة من الأحداث التي تشهد القرائن بأنها وقعت في هذه الفترة أن عتية بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ فقال: أنا أكفر بـ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ وبالذي ﴿دَنَا فَذَلَّلَ﴾ ثم تسلَّط عليه بالأذى، وشقَّ قميصه، وتفل في وجهه، إلا أن البراق لم يقع

(١) ابن هشام ملخصاً ١/ ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨.

عليه، وحيتند دعا عليه النبي ﷺ وقال: «اللهم! سلط عليه كلبًا من كلابك»، وقد استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتية مرة في نفر من قريش، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتية يقول: يا ويل أخي، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ، قتلني وهو بمكة، وأنا بالشام، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه^(١).

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبة الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان^(٢).

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فيينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال: أسمعون يا معشر قريش! أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إنَّ أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد، ويقول: انصرف يا أبا القاسم! فوالله! ما كنت جهولاً.

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول: أقتلونا رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه. قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط^(٣). انتهى ملخصاً.

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ، قال بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي، وقال: أقتلونا رجلاً أن يقول ربي الله؟^(٤).

وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا، وعليه غداثر أربع، فخرج وهو يقول: أقتلونا رجلاً أن يقول: ربي الله؟ فلهوا عنه، وأقبلوا

(١) الاستيعاب، والإصابة، ودلائل النبوة، والروض الأنف، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٣٥.

(٢) المصدر الأخير نفسه ص ١١٣.

(٣) ابن هشام ١/٢٨٩، ٢٩٠.

(٤) صحيح البخاري - باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٤.

على أبي بكر، فرجع إلينا لا نمسُّ شيئًا من غداثه إلا رجع معنا^(١).

إسلام حمزة بن عبد المطلب:

خلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضواء الطريق، وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة.

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يومًا عند الصفا، فأذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه، حتى نزل منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك، وأقبل حمزة من القنص متوشحًا قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب حمزة - وكان أعز فتى في قريش وأشدّه شكيمة - فخرج يسعى، لم يقف لأحد، مُعدًا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له: يا مصفر أسته، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم - حي أبي جهل - وثار بنو هاشم - حي حمزة - فقال: أبو جهل: دعوا أبا عماره، فإنني سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا^(٢).

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل أبي أن يهان مولاة، ثم شرح الله صدره، فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتزّ به المسلمون أيما اعتزاز.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وخلال هذا الجو الملبد بسحاب الظلم والطغيان أضواء برق آخر أشدُّ بريقًا وإضاءة من الأول، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة^(٣). بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه. وكان النبي ﷺ قد دعا الله تعالى لإسلامه، فقد أخرج الترمذي عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي ﷺ قال: «اللهم! أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام» فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه^(٤).

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التي رُوِيَتْ في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في قلبه

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١١٣.

(٢) ابن هشام ملخصًا ٢٩١/١، ٢٩٢.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١١.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، مناقب أبي حفص عمر بن الخطاب ٢٠٩/٢.

كان تدريجًا، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن نشير إلى ما كان يتمتع به رضي الله عنه من العواطف والمشاعر.

كان رضي الله عنه معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة، احترامه للتقاليد التي سنّها الآباء والأجداد، ثم إعجابه بصلاية المسلمين واحتمالهم البلاء في سبيل عقيدتهم، ثم الشكوك التي كانت تساوره - كأبي عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجلّ وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يثور حتى يخور.

وخلاصة الروايات مع الجمع بينها - في إسلامه رضي الله عنه - أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبى ﷺ قائم يصلي وقد استفتح سورة «الحاقة» فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال: فقلت - أي في نفسي - هذا والله شاعر كما قالت قريش، قال: فقرأ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] قال: قلت: كاهن. قال: ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ۝ نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر السورة. قال فوقع الإسلام في قلبي^(١).

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، والعصبية التقليدية، والتعاطف بدين الآباء هي غالبية على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقي مجددًا في عمله ضد الإسلام، غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة.

وكان من حدة طبعة وفرط عداوته لرسول الله ﷺ أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه، يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي^(٢)، أو رجل من بني زهرة^(٣)، أو رجل من بني مخزوم^(٤) فقال: أين تعمد يا عمر؟ قال: أريد أن أقتل محمدًا قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا؟ فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت وتركت دينك الذي كنت عليه، قال أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وختنتك قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامرًا حتى أتاهما وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها: ﴿طه﴾ يقرئهما إياها - وكان يختلف إليهما يقرئهما القرآن - فلما سمع خباب

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦، ويقرب من هذا ما رواه ابن إسحاق عن عطاء ومجاهد. لكن في آخره ما يخالف ذلك. انظر ابن هشام ٣٤٧، ٣٤٨، ويقرب من هذا أيضًا ما أورده ابن الجوزي عن جابر، وفي آخره أيضًا ما يخالف هذه الرواية انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ٩، ١٠.

(٢) وهذا على رواية ابن إسحاق، انظر ابن هشام ٣٤٤/١.

(٣) روى ذلك أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٠، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله ابن محمد النجدي ص ١٠٣.

(٤) روى ذلك ابن عباس انظر المصدر الأخير ص ١٠٢.

حسن عمر توارى في البيت، وستر فاطمة - أخت عمر - الصحيفة، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال: ما هذه الهينة التي سمعتها عنكم؟ فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا. قال: فلعلكما قد صبوتما. فقال له ختته: يا عمر! رأيت إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختته فوطئه وطأً شديدًا. فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفعها نفحة بيده، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشحها - فقالت - وهي غضبي -: يا عمر! إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فلما يش عمر، ورأى ما بأخته من الدم ندم واستحي، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عنكم فأقرؤه، فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ ﴿طه﴾ حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِرِّ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلوني على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر! فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس (اللهم! أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) ورسول الله ﷺ في الدار التي في أصل الصفا.

فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فأخبر رسول الله ﷺ، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر، فقال: وعمر، افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرًا قتلناه بسيفه، ورسول الله ﷺ داخل يوحى إليه فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحماثل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال: «أما أنت متهيأ يا عمر! حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة؟ اللهم! هذا عمر بن الخطاب، اللهم! أعز الإسلام بعمر بن الخطاب» فقال عمر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله. وأسلم فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد^(١).

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين بالذلة، والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرقا وسرورا.

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال: لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيته حتى ضربت عليه بابه فخرج إليّ، وقال: أهلاً وسهلاً،

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ص ٧، ١٠، ١١، ابن هشام ١/٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦.

ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أنني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قَبَّحَكَ اللهُ، وَقَبَّحَ ما جئت به^(١).

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا أسلم تعلّق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أي: حين أسلمت - إلى خالي - وهو العاص بن هاشم - فأعلمته فدخل البيت، قال: وذهبت إلى رجل من كُبراء قريش - لعلّه أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت^(٢).

وذكر ابن هشام وكذا ابن الجوزي مختصراً، أنه لما أسلم أتى إلى جميل بن معمر الجمحي - وكان أنقل قريش للحديث - فأخبره أنه أسلم، فنادى جميل بأعلى صوته أن ابن الخطاب قد صبأ، فقال عمر: - وهو خلفه - كذب، ولكني قد أسلمت، فثاروا إليه، فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطلح - أي: أعيا عمر - فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا^(٣).

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله، روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بينما هو - أي: عمر - في الدار خائفاً، إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، وعليه حلة سبرة وقميص مكفوف بحريز، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية، فقال له: مالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني أن أسلمت، قال لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقي الناس قد سال بهم الوادي، فقال أين تريدون؟ فقالوا: هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ، قال: لا سبيل إليه، فكر الناس^(٤) وفي لفظ، في رواية ابن إسحاق: والله! لكأنما كانوا ثوباً كشط عنه^(٥).

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين؛ فروى مجاهد عن ابن عباس قال: سألت عمر بن الخطاب، لأي شيء سُميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام - ثم قصّ عليه قصة إسلامه وقال في آخره - قلت: - أي: حين أسلمت - يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: «بلى! والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم»، قال: قلت: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنّ، فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال:

(١) المصدر الأخير ٣٤٩/١، ٣٥٠.

(٢) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٨ وابن هشام ٣٤٨/١، ٣٤٩.

(٤) صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ٥٤٥/١.

(٥) ابن هشام ٣٤٩/١.

ففظرت إلي قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلاً، فسمّاني رسول الله ﷺ «الفاروق» يومئذ^(١).

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما كُنَّا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر^(٢).

وعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، قال: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حُلَقًا، وطُفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر^(٤).

ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ:

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما - أخذت السحائب تتقشع، وأفاق المشركون عن سُكْرِهِم في إدلاء العذاب والنكال إلى المسلمين، وحاولوا مساومة مع النبي ﷺ بإغداق كل ما هو ممكن أن يكون مطلوباً له؛ ليكفوه عن دعوته، ولم يكن يدري هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دعوته، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا.

قال ابن إسحاق: حَدَّثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال: حَدَّثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيِّداً، قال يوماً، وهو في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش! ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلّمه، وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكفّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ، يكثرّون ويزيدون، فقالوا: بلى، يا أبا الوليد! قم إليه، فكلّمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من السطة^(٥) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّحت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد! أسمع»، قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً جمعنا لك من

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٦، ٧.

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله التجدي ص ١٠٣.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ١٣.

(٤) صحيح البخاري، باب إسلام عمر بن الخطاب ٥٤٥/١.

(٥) هي المنزلة الرفيعة المهيبة.

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه: قال: «أو قد فرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاسمع مني»، قال: أفعل، فقال: ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّجِيحَ الرَّجِيحَ﴾، ﴿حَمَّ هَذَا نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ه كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ه بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ه وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ١-٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد! ما سمعت، فأنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني سمعت قولاً والله! ما سمعت مثله قط، والله! ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله! ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله! يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(١).

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول ﷺ، إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فقام مذعوراً، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ، يقول: أنشدك الله والرحم! وذلك مخافة أن يقع النذير، وقام إلى القوم فقال ما قال^(٢).

رؤساء قريش يفاوضون الرسول وأبو جهل يريد القضاء عليه ﷺ:

وكان رجاء قريش لم ينقطع بجوابه ﷺ، لأنه لم يكن صريحاً في الرفض أو القبول، فتشاوروا ثم اجتمعوا يوماً عند ظهر الكعبة بعد غروب الشمس، وأرسلوا إلى النبي ﷺ يدعونه، فلما جاء عرضوا عليه نفس المطالب التي عرضها عتبة، فبيّن أنه ليس به ذلك، وإنما هو رسول يبلغهم رسالات ربه، فإن قبلوه فهو حظهم من الدنيا والآخرة، وإلا يصبر حتى يحكم الله بينه وبينهم.

فطلبوا منه آيات، أن يسأل ربه أن يسير عنهم الجبال، ويسط لهم البلاد، ويفجر فيها الأنهار، ويحيي لهم الموتى حتى يصدّقوه، فأجابهم بنفس ماتقدّم.

(١) ابن هشام ٢٩٣/١، ٢٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ١٥٩/٦، ١٦٠، ١٦١.

فطلبوا منه أن يسأل ربه أن يبعث له ملكًا يصدقه، ويجعل له جنات وكنوزًا وقصورًا من ذهب وفضة، فأجابهم بنفس الجواب.

فطلبوا منه العذاب: أن يسقط عليهم كسفًا من السماء. فقال: ذلك إلى الله إن شاء فعل. فردوا عليه ثم هددوه، فرجع كثيرًا حزينًا^(١).

لما انصرف رسول الله ﷺ قال أبو جهل في كبريائه: «يامعشر قريش! إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشمم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشم آلهتنا، وإنني أعاهد الله لأجلسنَّ له بحجر ما أطيع حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم»، قالوا: والله! لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد.

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديةهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا منتقمًا لونه، مرعوبًا، قد يبست يده على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عُرِضَ لي دونه فحل من الإبل، لا والله! ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني.

قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه»^(٢).

مساومات وتنازلات:

ولما فشلت قريش في مفاوضاتهم المبنية على الإغراء والترغيب، والتهديد والترهيب، وخاب أبو جهل فيما أبداه من الرعونة وقصد الفتك، تيقظت فيهم رغبة الوصول إلى حلٍ حصيف ينقذهم عما هم فيه، ولم يكونوا يجزمون أن النبي ﷺ على باطل، بل كانوا - كما قال الله تعالى -: ﴿لَفِي سَكِّ مَنَّهُ مُرِيبٌ﴾. فرأوا أن يساوموه ﷺ في أمور الدين، ويلتقوا به في منتصف الطريق. فتركوا بعض ما هم عليه، ويطالبوا النبي ﷺ بترك بعض ما هو عليه، وظنوا أنهم بهذا الطريق سيصيبون الحق، إن كان ما يدعو إليه النبي ﷺ حقًا.

روى ابن إسحاق بسنده، قال: اعترض رسول الله ﷺ - وهو يطوف بالكعبة - الأسود بن

(١) ملخص مما رواه ابن إسحاق، ابن هشام ٢٩٥/١ - ٢٩٨.

(٢) ابن هشام ٢٩٨/١، ٢٩٩.

المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف والعاص بن وائل السهمي - وكانوا ذوي أسنان في قومهم - فقالوا: يا محمد! هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيرًا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيرًا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿قُلْ يَتَائِبَ الْكَافِرُونَ ه لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ السورة كلها^(١).

وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أن قريشًا قالت: لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك. فأنزل الله: ﴿قُلْ يَتَائِبَ الْكَافِرُونَ﴾ السورة كلها^(٢).

وأخرج ابن جرير وغيره عنه أن قريشًا قالوا لرسول الله ﷺ تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فأنزل الله: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾^(٣).

ولما حسم الله تعالى هذه المفاوضة المضحكة بهذه المفاضلة الجازمة لم تيسر قريش كل اليأس، بل أبدوا مزيدًا من التنازل بشرط أن يجري النبي ﷺ بعض التعديل فيما جاء به من التعليمات، فقالوا: ﴿أَنْتَ بِشُرْعَانِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] فقطع الله هذا السبيل أيضًا بإنزال ما يرد به النبي ﷺ عليهم فقال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يَوْحِيَ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ونبه علي عظم خطورة هذا العمل بقوله: ﴿وَلَنْ كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَلَيَّ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ لِنَفْتَنِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ه وَلَوْلَا أَنْ نَبْنِيَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْنًا قَلِيلًا ه إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود:

أظلمت أمام المشركين السبل بعد فشلهم في هذه المفاوضات والمساومات والتنازلات، واحتاروا فيما يفعلون، حتى قام أحد شياطينهم: النضر بن الحارث، فنصحهم قائلاً: يا معشر قريش! والله! لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتهم: ساحر. لا، والله! ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفتهم وعقدهم، وقلتم: كاهن. لا، والله! ما هو بكاهن. قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر. لا، والله! ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا، والله! ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه، ولا

(١) ابن هشام ١/ ٣٦٢.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٦٩٢.

(٣) تفسير ابن جرير الطبري: سورة الكافرون.

رسوسته، ولا تخليطه. يامعشر قريش! فانظروا في شأنكم، فإنه والله! لقد نزل بكم أمر عظيم.

وحينئذ قررت قريش أن يتصلوا باليهود حتى يتأكدوا من أمره ﷺ، فكلفوا النضر بن الحارث بأن يذهب مع آخرين إلى يهود المدينة. فأتاهم، فقال أحبارهم: سلوه عن ثلاث، فإن أخبر فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقوّل. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرهم؟ فإن لهم حديثاً عجباً، وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟.

فلما قدم مكة قال: جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد. وأخبرهم بما قاله اليهود، فسألت قريش رسول الله ﷺ عن الأمور الثلاثة، فنزلت بعد أيام سورة الكهف فيها قصة أولئك الفتية، وهم أصحاب الكهف، وقصة الرجل الطوّاف، وهو ذو القرنين، ونزل الجواب عن الروح في سورة الإسراء، وتبيّن لقريش أنه ﷺ على حقّ وصدق، ولكن أبى الظالمون إلا كُفُوراً^(١).

موقف أبي طالب وعشيرته:

هذا ما فعله المشركون، أما أبو طالب فإنه واجه مطالبة قريش بتسليم النبي ﷺ لهم ليقتلوه، ثم رأى في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفاره ذمته - مثل ما فعله عقبة بن أبي معيط، وعمر بن الخطاب، وأبو جهل بن هشام - جمع بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي ﷺ، فأجابوه إلى ذلك كلهم - مسلمهم وكافرهم - حمية للجوار العربي، وتعاهدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة، إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارقههم وكان مع قريش^(٢).

(١) سيرة ابن هشام ٢٩٩/١ - ٣٠١.

(٢) ابن هشام ٢٦٩/١.

المقاطعة العامة

ميثاق الظلم والعدوان:

زادت حيرة المشركين إذ نفذت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ نبي الله ﷺ، والقيام دونه، كائنًا ما كان، فاجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المحصب فتحالفوا، على بني هاشم وبني المطلب أن لا يناكحهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يُسَلِّمُوا إليهم رسول الله ﷺ للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق (أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يُسَلِّمُوهُ للقتل) قال ابن القيم: يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشُلَّتْ يده^(١).

تم هذا الميثاق، وعُلِّقَت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحُسِّسُوا في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة. وقيل غير ذلك.

ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب:

واشتدَّ الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا بيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يُسَمَعُ من وراء الشعب أصوات نسائهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سِرًّا - وكانوا - لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعوا الشراء.

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة - رضي الله عنها - وقد تعرَّض له مرة أبو جهل فتعلَّق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البختری، ومكَّنه من حمل القمح إلى عمته.

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله ﷺ، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو

(١) صحيح البخاري مع الفتح ٥٢٩/٣ ح ١٥٨٩، ١٥٩٠، ٣٨٨٢، ٤٢٨٤، ٤٢٨٥، ٧٤٧٩ زاد المعاد ٤٦/٢.

إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله ﷺ، وأمره أن يأتي بعض فرشهم.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب.

نقض صحيفة الميثاق:

مر عامان أو ثلاثة أعوام كاملة والأمر على ذلك، وفي المحرم^(١) سنة عشر من النبوة حدث نقض الصحيفة وفك الميثاق، وذلك أن قريشًا كانوا بين راض بهذا الميثاق وكاره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها.

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي - وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال: يا زهير! أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأخوالك بحيث تعلم؟ فقال: ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله! لو كان معي رجل آخر لقمّت في نقضها، قال: قد وجدت رجلاً. قال: فمن هو؟ قال: أنا. قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم: ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانيًا، قال من هو؟ قال: أنا قال: أبغنا ثالثاً. قال: قد فعلت. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعاً.

فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم، فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم. قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامسًا.

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه، وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم ثم سَمَى له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير: أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم.

فلما أصبحوا غدوا إلى أُنديتهم، وغدا زهير عليه حُلَّة، فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس. قال: يا أهل مكة! أناكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى، لا يُبَاعون ولا

(١) الدليل على هذا أن أبا طالب مات بعد نقض الصحيفة بستة أشهر، والصحيح في موت أبي طالب أنه في شهر رجب. ومن يقول: إنه مات في رمضان فهو يقول إنه مات بعد نقض الصحيفة بشمانية أشهر وأيام.

يبتاع منهم؟ والله! لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت، والله! لا تشق. فقال: زمعة بن الأسود: أنت والله! أكذب. ما رضينا كتابتها حيث كُتبت، قال أبو البختری: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقر به.

قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبأ إلى الله منها ومما كُتِبَ فيها.

وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك.

فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بليل، تُشَوَّرُ فيه بغير هذا المكان.

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد. إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خلينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعت عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا: قد أنصفت.

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم». وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله.

ثم نقض الصحيفة، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من الشعب، وقد رأى المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم كما أخبر الله عنهم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَعِيرٌ﴾ [القمر: ٢] أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كُفْرًا إلى كفرهم^(١).

(١) جمعنا تفاصيل المقاطعة من صحيح البخاري، باب نزول النبي ﷺ بمكة ٢١٦/١، وباب تقاسم المشركين على النبي ﷺ ٥٤٨/١، زاد المعاد ٤٦/٢، وابن هشام ٣٥٠/١، ٣٥١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، وغيرها.

آخر وفد قريش إلى أبي طالب

خرج رسول الله ﷺ من الشعب، وجعل يعمل على شاكلته، وقريش وإن كانوا قد تركوا القطيعة، لكنهم لم يزالوا عاملين على شاكلتهم من الضغط على المسلمين، والصدّ عن سبيل الله، أما أبو طالب فهو لم يزل يحوط ابن أخيه، لكنه كان قد جاوز الثمانين من سنه، وكانت الآلام والحوادث الضخمة المتوالية منذ سنوات - لا سيما حصار الشعب - قد وهنت وضعفت مفاصله، وكسرت صلبه، فلم يمتص على خروجه من الشعب إلا أشهر معدودات، وإذا هو يلاحقه المرض ويلح به - وحينئذ خاف المشركون سوء سمعتهم في العرب إن أتوا بعد وفاته بمنكر على ابن أخيه، فحاولوا مرة أخرى أن يفاوضوا النبي ﷺ بين يديه، ويعطوا بعض ما لم يرضوا إعطائه قبل ذلك، فقاموا بوفادة هي آخر وفادتهم إلى أبي طالب.

قال ابن إسحاق وغيره: لما اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله، قالت قريش بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ على ابن أخيه، وليعطه منا، والله! ما نأمن أن يبتزونا^(١) أمرنا، وفي لفظ: فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون إليه شيء فتعيّرنا به العرب، يقولون تركوه، حتى إذا مات عمه تناولوه.

مشوا إلى أبي طالب فكلّموه، وهم أشراف قومه؛ عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشrafهم - وهم خمس وعشرون تقريبًا - يا أبا طالب! إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكفّ عنا ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا ابن أخي! هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، ثم أخبره بالذي قالوا له وعرضوا عليه، من عدم تعرض كل فريق للآخر. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أرايتم إن أعطيتكم كلمة تكلمتم بها، ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم»، وفي لفظ أنه قال مخاطبًا لأبي طالب: «أريدكم على كلمة واحدة يقولونها، تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»، وفي لفظ آخر قال: «ياعم! أفلا تدعوهم إلى ما هو خير لهم؟» قال: وإلى ما تدعوهم؟ قال: «أدعوهم إلى أن يتكلّموا بكلمة تدين لهم بها العرب، ويملكون بها

(١) ابتزّه أمره: سلبه إياه وغلبه عليه.

العجم»، ولفظ رواية ابن إسحاق: «كلمة واحدة تعطونها، تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم» فلما قال هذه المقالة، توقفوا وتحيروا، ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلى هذه الغاية والحد، ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطيكها وعشر أمثالها، قال: «تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه». فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد! أن تجعل الآلهة إلها واحداً؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله! ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿صَّ وَالْفُرَّانِ ذِي الذِّكْرِ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِهِ ۝ كَرَّ أَهْلُكُم مِّن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَوْلَا حِينُ مَنَاصٍ ۝ وَجَبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ۝ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةٍ الْأَخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾^(١) [ص: ١-٧].

(١) ابن هشام ١/٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، وينظر جامع الترمذي ٣٤١/٥ (ح ٣٢٣٢) ومسند أبي يعلى ٤٥٦/٤ ح ٢٥٨٣، وابن جرير في تفسيره.

عام الحزن

وفاة أبي طالب:

ألح المرض بأبي طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر^(١). وقيل: توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام.

وفي الصحيح عن المسيب: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل، فقال: «أي عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب! ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به: على ملة عبد المطلب. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(٢) [القصص: ٥٦].

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحياطة والمنع، فقد كان الحصن الذي تحتمي به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقي على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح. ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ - وذكر عنده عمه - فقال: «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبه»^(٤).

خديجة إلى رحمة الله:

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو ثلاثة - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين

(١) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص ١١١.

(٢) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١.

(٣) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١.

(٤) صحيح البخاري، باب قصة أبي طالب ٥٤٨/١.

خديجة الكبرى رضي الله عنها، كانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة، ورسول الله ﷺ إذ ذاك في الخمسين من عمره^(١).

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله ﷺ، بقيت معه ربع قرن تحنُّ عليه ساعة قلقه، وتوازره في أحواله، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله ﷺ: «أمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقني حين كذبنني الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها، وحرم ولد غيرها»^(٢).

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة، قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(٣).

تراكم الأحزان:

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله ﷺ، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه، فقد كانوا تجرؤوا عليه، وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب، فازداد غمًّا على غمٍّ، حتى يش منهم، وخرج إلى الطائف، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصرًا، وآذوه مع ذلك أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه.

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ﷺ، اشتدت على أصحابه، حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ برك الغماد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدغنة في جواره^(٤).

قال ابن إسحاق: لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فثر على رأسه ترابًا، ودخل بيته، والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية! فإن الله مانع أباك». قال: ويقول بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»^(٥).

(١) نص على موتها في رمضان من تلك السنة ابن الجوزي في التلخيص ص ٧.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده ١١٨/٦.

(٣) صحيح البخاري. باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها ٥٣٩/١.

(٤) القصة بطولها مروية في ابن هشام ٣٧٢/١، ٣٧٣، ٣٧٤، وفي صحيح البخاري ٥٥٢/١، ٥٥٣.

(٥) ابن هشام ٤١٦/١.

ولأجل توالي مثل هذه الآلام في هذا العام سُمِّي بعام الحزن، وعُرفَ به في السيرة والتاريخ.

الزواج بسودة رضي الله عنها:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١٠ من النبوة - تزوج رسول الله ﷺ بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديمًا، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حُلَّت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وبعد عدة أعوام وهبت نوبتها لعائشة^(١).

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠.

عوامل الصبر والثبات

وهنا يقف الحليم حيران، ويتساءل عقلاء الرجال فيما بينهم: ما هي الأسباب والعوامل التي بلغت بالمسلمين إلى هذه الغاية القصوى، والحد المعجز من الثبات؟ كيف صبروا على هذه الاضطهادات التي تقشعر لسماعها الجلود، وترجف لها الأفئدة؟ ونظرًا إلى هذا الذي يتخالج القلوب، نرى أن نشير إلى بعض هذه العوامل والأسباب إشارة عابرة بسيطة.

١ - إن السبب الرئيسي في ذلك أولاً وبالذات هو الإيمان بالله وحده ومعرفته حق المعرفة، فالإيمان الجازم إذا خالطت بشاشته القلوب يزن الجبال ولا يطيش، وإن صاحب هذا الإيمان المحكم وهذا اليقين الجازم يرى متاعب الدنيا مهما كُثرت وكَبُرَتْ وتفاقت واشتدَّت - يراها في جنب إيمانه - طحالب عائمة فوق سيل جارف جاء ليكسر السدود المنيعه والقلاع الحصينة، فلا يبالي بشيء من تلك المتاعب، أمام ما يجده من حلاوة إيمانه وطراوة إذعانه وبشاشة يقينه: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَذَهِبَ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَبَاقٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ويتفرع من هذا السبب الوحيد أسباب أخرى تقوي هذا الثبات والمصابرة وهي:

٢ - قيادة تهوي إليها الأفئدة، فقد كان النبي ﷺ - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية بل ولل البشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق وكمال النفس، ومكارم الأخلاق، والشيم النبيلة والشمائل الكريمة، بما تتجاذب إليه القلوب، وتتفانى دونه النفوس، وكانت أنصبت من الكمال الذي يعشق لم يرزق بمثلها بشر، وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل، وكان من العفة والأمانة والصدق، ومن جميع سبل الخير على ما لم يمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلًا عن محبيه ورفقائه، لا تصدر منه كلمة إلا ويستيقنون صدقها.

اجتمع ثلاثة نفر من قريش، كان قد استمع كل واحد منهم إلى القرآن سرًّا عن صاحبيه ثم انكشف سرهم، فسأل أحدهم أبا جهل - وكان من أولئك الثلاثة - ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: لنا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله! لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه^(١).

وكان أبو جهل يقول: يا محمد! إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله:

﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُتَابِعُونَ اللَّهَ يَجْحَدُونَ﴾^(١).

وعمره الكفار يومًا ثلاث مرات، فقال في الثالثة: «يا معشر قريش! جئكم بالذبح»، فأخذتهم تلك الكلمة، حتى إن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده.

ولما ألقوا عليه سلا جزور وهو ساجد دعا عليهم، فذهب عنهم الضحك، وساورهم الهم والقلق، وأيقنوا أنهم هالكون.

ودعا على عتية بن أبي لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه، حتى إنه حين رأى الأسد قال: قتلني والله - محمد - وهو بمكة.

وكان أبي بن خلف يتوعد بالقتل. فقال: «بل أنا أقتلك إن شاء الله»، فلما طعن أبيًا في عنقه يوم أحد - وكان خدشًا غير كبير - كان أبي يقول: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك. فوالله! لو بصق علي لقتلني^(٢) - وسيأتي.

وقال سعد بن معاذ - وهو بمكة - لأمية بن خلف: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم - أي: المسلمين - قاتلوك»، ففزع فزعًا شديدًا، وعهد أن لا يخرج عن مكة، ولما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليتمكن من الفرار، وقالت له امرأته: يا أبا صفوان! وقد نسيت ما قال لك أخوك الثريبي؟ قال: لا والله! ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا^(٣).

هكذا كان حال أعدائه ﷺ، أما أصحابه ورفقاؤه فقد حلَّ منهم محلُّ الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين، فكان الحب الصادق يندفع إليه اندفاع الماء إلى الحذور، وكانت النفوس تتجذب إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس.

فصورته هيولى كل جسم ومغناطيس أفشدة الرجال

وكان من أثر هذا الحب والتفاني أنهم كانوا ليرضون أن تندق أعناقهم ولا يخدش له ظفر أو يشاك شوكة.

وطيء أبو بكر بن أبي قحافة يومًا بمكة، وضرب ضربًا شديدًا، دنا منه عتبة بن ربيعة، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين، ويحرفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وحملت بنو تيم أبًا بكر في ثوب، حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ، فمضوا منه بالستهم وعدلوه، ثم قاموا وقالوا

(١) رواه الترمذي في تفسير سورة الأنعام ١٣٢/٢.

(٢) ابن هشام ٨٤/٢.

(٣) انظر صحيح البخاري ٥٦٣/٢.

لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه، فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقالت: والله! لا علم لي بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، قالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت، قالت: نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفًا، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله! إن قومًا نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، فقال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم قال: فإن الله عليّ أن لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا أو آتي رسول الله ﷺ، فأمهلتا، حتى إذا هذأت الرجل، وسكن الناس، خرجتا به، يتكئ عليهما، حتى أدخلته على رسول الله ﷺ (١).

وستنقل نواذر الحب والتفاني في مواضع شتى من هذا الكتاب، ولا سيما ما وقع في يوم أحد، وما وقع من خيب وأمثاله.

٣ - الشعور بالمسؤولية، فكان الصحابة يشعرون شعورًا تامًا ما على كواهل البشر من المسؤولية الفخمة الضخمة، وأن هذه المسؤولية لا يمكن عنها الحياد والانحراف بحال، فالعواقب التي تترتب على الفرار عن تحملها أشد وخامة وأكبر ضررًا عمًا هم فيه من الاضطهاد، وأن الخسارة التي تلحقهم - وتلحق البشرية جمعاء - بعد هذا الفرار لا تُقاس بحال على المتاعب التي كانوا يواجهونها نتيجة هذا التحمل.

٤ - الإيمان بالآخرة، وهو مما كان يقوي هذا الشعور - الشعور بالمسؤولية - فقد كانوا على يقين جازم من أنهم يقومون لرب العالمين، يحاسبون بأعمالهم دقها وجلها، صغيرها وكبيرها، فإما إلى النعيم المقيم، وإما إلى عذاب خالد في سواء الجحيم، فكانوا يقضون حياتهم بين الخوف والرجاء، ويرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه، وكانوا: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وكانوا يعرفون أن الدنيا بعذابها ونعيمها لا تساوي جناح بعوضة في جنب الآخرة، وكانت هذه المعرفة القوية تهوّن لهم متاعب الدنيا ومشاقها ومرارتها، حتى لم يكونوا يكثرثون لها ويلقون إليها بالآ.

٥ - القرآن وفي هذه الفترات العصيبة الرهيبة الحالكة كانت تنزل السور والآيات تقيم الحجج والبراهين على صدق مبادئ الإسلام - التي كانت الدعوة تدور حولها - بأساليب

منفعة خلافة، وترشد المسلمين إلى أسس قدر الله أن يتكون عليها أعظم وأروع مجتمع بشري في العالم - وهو المجتمع الإسلامي - وتثير مشاعر المسلمين ونوازعهم على الصبر والتجملد، تضرب لذلك الأمثال، وتبين لهم ما فيه من الحكم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] ﴿الَمْ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

كما كانت تلك الآيات ترد على إirادات الكفار والمعادنين ردًا مُفجماً، ولا تبقي لهم حيلة، ثم تحذّرهم مرة من عواقب وخيمة - إن أصروا على غيهم وعنادهم - في جلاء ووضوح، مستدلًا بأيام الله، والشواهد التاريخية التي تدل على سنة الله في أوليائه وأعدائه، وتلطفهم مرة، وتؤدي حق التفهيم والإرشاد والتوجيه، حتى ينصرفوا عما هم فيه من الضلال المبين.

وكان القرآن يسير بالمسلمين في عالم آخر، ويبصرهم من مشاهد الكون، وجمال الربوبية، وكمال الألوهية، وآثار الرحمة والرأفة، وتجليات الرضوان ما يحنون إليه حينًا لا يقوم له أي عقبة.

وكانت في طي هذه الآيات خطابات للمسلمين، فيها يشهرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، وتصور لهم صورة أعدائهم من الكفرة الطغاة الظالمين، يُحَاكِمُون، وَيُصَادَرُونَ، ثم يُسْحَبُونَ في النار على وجوههم، ذوقوا مس سقر.

٦ - البشارات بالنجاح ومع هذا كله كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد - بل ومن قبله - أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحثوف. بل إن الدعوة الإسلامية تهدف - منذ أول يومها - إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من نتائجها في الدنيا بسط النفوذ على الأرض والسيطرة على الموقف السياسي في العالم، لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتُخْرِجَهُمْ من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات - مرة بالصراحة وأخرى بالكناية - ففي تلك الفترات القاصمة التي ضيّقت الأرض على المسلمين، وكادت تخنقهم، وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرى بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم، وكانت تشمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تمامًا أحوال مسلمي مكة وكُفَّارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخّضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين، وإيراث عباد الله الأرض والديار، فكانت في هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في

المستقبل، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفي هذه الفترات نزلت آيات تُصَرِّحُ ببشارة غلبة المؤمنين قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِلْغَالِبِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝ فَنُؤَلِّقُ عَنْهُمْ حَزَنَ حِينَ ۝ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝ أَفَعَدَّيْنَا لِلْمَصْرِفِينَ ۝ إِذَا زُلْزِلَتْ إِسْجَانُهُمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ۝﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٧] وقال: ﴿سَيُجْزَى الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝﴾ [القمر: ٤٥] وقال: ﴿جُنْدُ مَا هُتِلَكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ۝﴾ [ص: ١١] ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَنُؤِنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝﴾ [النحل: ٤١] وسأله عن قصة يوسف فأنزل الله في طيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلْمُتَلَدِّينَ ۝﴾ [يوسف: ٧] أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانهم من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وقال وهو يذكر الرسل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝﴾ [إبراهيم: ١٣، ١٤] وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفقتهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفقتهم مؤمنين بالله والرسل والوحي والكتب واليوم الآخر وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرَّح ببشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ يُنْصِرُ اللَّهُ ۝﴾ [الروم: ٤، ٥].

وكان رسول الله ﷺ نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم، وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذو المجاز، لتبليغ الرسالة، لم يكن يشهرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: «يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا متم كنتم ملوكًا في الجنة»^(١).

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي ﷺ عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام.

وكذلك ما أجاب به النبي ﷺ آخر وفد جاء إلى أبي طالب، فقد صرَّح لهم أنه يطلب منهم كلمة واحدة يعطونها، تدين لهم العرب، ويملكون العجم.

قال خباب بن الأرت: أتيت النبي ﷺ وهو متوسد برده، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله، فقعد، وهو محمر وجهه، فقال: «لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله - زاد بيان

الراوي - والذئب على غنمه^(١) وفي رواية: ولكنكم تستعجلون^(٢).

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة، كما كان يعلمها المسلمون، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي ﷺ تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض، الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون^(٣).

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير في الدنيا، مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة، كان الصحابة يرون أن الاضطهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب، والمصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء، ليست إلا: «سحابة صيف عن قليل تقشع».

هذا ولم يزل الرسول ﷺ يُغذّي أرواحهم برغائب الإيمان، ويزكّي نفوسهم بتعليم الحكمة والقرآن، ويربيهم تربية دقيقة عميقة، يحدو بنفوسهم إلى منازل سمو الروح، ونقاء القلب، ونظافة الخلق، والتحرر من سلطان الماديات، والمقاومة للشهوات، والتزوع إلى ربّ الأرض والسموات، ويذكي جمرة قلوبهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس، فازدادوا رسوخاً في الدين، وعزوفاً عن الشهوات، وتفتيحاً في سبيل المرضاة، وحنيناً إلى الجنة، وحرصاً على العلم، وفقهاً في الدين، ومحاسبة للنفس وقهراً للترعات، وغلبة على العواطف، وتسيطراً على التأثيرات والهائجات، وتقيداً بالصبر والهدوء والوقار.

(١) صحيح البخاري ٥٤٣/١.

(٢) المصدر نفسه ٥١٠/١.

(٣) السيرة الحلبية ٥١١/١، ٥١٢.

المرحلة الثالثة

دعوة الإسلام خارج مكة

الرسول ﷺ في الطائف:

في شوال سنة عشر من النبوة (في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة ٦١٩م) خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ميتين ميلاً، سارها ماشياً على قدميه جيئةً وذهوباً، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلُّما مرَّ على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرته الإسلام، فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها)، إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحداً غيرك، وقال الثالث: والله! لا أكلّمك أبداً، إن كنت رسولاً لأنت أعظم خطراً من أن أردُّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلّمك. فقام عنهم رسول الله ﷺ، وقال لهم: «إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني».

وأقام رسول الله ﷺ بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم، يسبّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سماطين (أي صفيين) وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله ﷺ إلى حبلّة من عنب، فجلس تحت ظلّها إلى جدار فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزناً مما لقي من الشدة، أسفاً على أنه لم يؤمن به أحد، قال:

«اللهم! إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا، يقال له عداس، وقالوا له: خذ قطعًا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل، فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ مدَّ يده إليه قائلاً: «بسم الله»، ثم أكل.

فقال عداس: إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصراني، من أهل (نينوى). فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى». قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي»، فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ ويديه ورجليه يقبلها.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك، فلما جاء عداس قالوا له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي! ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالوا له: ويحك يا عداس! لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه^(١).

ورجع رسول الله ﷺ في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيلاً محزوناً كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد! ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي: لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان - قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلاهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً»^(٢).

وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول ﷺ تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم الذي لا يدرك غوره.

وأفاق رسول الله ﷺ، واطمأن قلبه؛ لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عليه من فوق

(١) ملخصاً من ابن هشام ٤١٩/١ - ٤٢١.

(٢) صحيح البخاري. كتاب بدء الخلق ٤٥٨/١، مسلم. باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٠٩/٢.

سبع سماوات، ثم تقدّم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أيامًا. وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السيل الكبير والزيمة - لما بهما من الماء والخصب، ولم تقف على مصدر يعين موضع إقامته ﷺ فيه.

وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن^(١)، ذكرهم الله في موضعين من القرآن، في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۚ قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۚ يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ۚ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِزَّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

وفي سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۚ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۚ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى تمام الآية الخامسة عشرة.

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث - يتبيّن أن النبي ﷺ لم يعرف بحضور ذلك النفر من الجن حين حضروا وسمعوا، وإنما علم ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ويقتضي سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارًا.

وحقًا كان هذا الحادث نصرًا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي ﷺ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها: ﴿وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢] ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن نُّعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

أمام هذه النصر، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس، التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودًا مدحورًا، حتى صمّم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس.

وحينئذ قال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني: قريشًا، فقال: يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا دنا من مكة مكث بحراء، وبعث رجلًا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير. فبعث إلى سهيل بن عمرو،

(١) صحيح البخاري: كتاب الصلاة باب الجهر بقراءة صلاة الفجر ١/١٩٥ ح ٧٧٣.

فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: نعم، ثم تسلَّح ودعا بنيهِ وقومه فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ: أن ادخل، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش! إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل: إن أبا جهل سأل مطعمًا: أمجير أنت أم متابع - مسلم -؟ قال: بل مجير. قال: قد أجرنا من أجرت^(١).

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلَّمني في هؤلاء التني لتركتهن له»^(٢).

(١) ابن هشام ملخصًا ١/٣٨١، زاد المعاد ٢/٤٦، ٤٧.

(٢) صحيح البخاري ٢/٥٧٣.

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

في ذي القعدة سنة عشر من النبوة - في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة ٦١٩ م - عاد رسول الله ﷺ إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ول اقتراب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالاً، وعلى كُُل ضامر يأتين من كل فج عميق، لقضاء فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله في أيام معلومات، فانتهاز رسول الله ﷺ هذه الفرصة، فأتاهم قبيلة قبيلة يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إليه، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة. وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة - العاشرة - أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به.

القبائل التي عرض عليها الإسلام:

قال الزهري: وكان ممن يُسمَّى لنا من القبائل الذين أتاهم رسول الله ﷺ، ودعاهم وعرض نفسه عليهم بنو عامر بن صعصعة، ومحارب بن خصفة، وفزارة، وغسان، ومرة، وحنيفة، وسليم، وعبس، وبنو نصر، وبنو البكاء، وكندة، وكلب، والحارث بن كعب، وعذرة، والحضارمة، فلم يستجب منهم أحد^(١).

وهذه القبائل التي سَمَّاها الزهري لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة، ولا في موسم واحد، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة. ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة، لكن الأكثر كان في موسم السنة العاشرة. وقد ذكر ابن إسحاق كيفية العرض وردودهم، وهاك ملخصاً:

- ١ - بنو كلب - أتى النبي ﷺ إلى بطن منهم، يقال لهم: بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم: «يا بني عبد الله! إن الله قد أحسن اسم أبيكم» فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.
- ٢ - بنو حنيفة - أتاهم في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقيح عليه ردّاً منهم.
- ٣ - وأتى إلى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال بحيرة بن فراس (رجل منهم): والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم

قال: أرايت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك أكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء»، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

ولما رجعت بنو عامر تحدّثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم، لكبر سنه، وقالوا له: جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمثعه، ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر! هل لها من تلاف؟ هل لذنابها^(١) من مطلب؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم^(٢)؟

المؤمنون من غير أهل مكة:

وكما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والوفود، عرض على الأفراد والأشخاص، وحصل من بعضهم على ردود صالحة، وآمن به عدة رجال بعد هذا الموسم بقليل. وهاك لوحة منهم:

١ - سويد بن صامت: كان شاعرًا لبييًا من سكان يثرب، يسميه قومه الكامل، لجلده وشعره وشرفه ونسبه، جاء مكة حاجًا أو معتمرًا، فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقال: لعل الذي معك مثل الذي معي. فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك». قال: حكمة لقمان. قال: «اعرضها عليّ» فعرضها، فقال له رسول الله ﷺ: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هدى ونور» فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فأسلم، وقال: إن هذا لقول حسن. فلما قدم المدينة لم يلبث أن قُتل في وقعة بين الأوس والخزرج قبل يوم بعث^(٣). وكان إسلامه في أوائل سنة ١١ من النبوة.

٢ - إياس بن معاذ: كان غلامًا حدثًا من سكان يثرب، قدم في وفد من الأوس، جاؤوا يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، وذلك قبيل حرب بعث في أوائل سنة ١١ من النبوة، إذ كانت نيران العداوة متقدة في يثرب بين القبيلتين - وكان الأوس أقل عددًا من الخزرج - فلما علم رسول الله ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم، وقال لهم: «هل لكم في خير مما جئتم له؟» فقالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن،

(١) مثل يضرب لما فات، وأصله من ذنابي الطائر إذا أفلت من جباله فطلبت الأخذ بذنابها.

(٢) ابن هشام ٤٢٤/١، ٤٢٥.

(٣) المصدر نفسه ٤٢٥/١، ٤٢٦، ٤٢٧، الاستيعاب ٢/٢٧٧، أسد الغابة ٢/٣٣٧.

فقال إياس بن معاذ: أي قوم، هذا والله! خير مما جئتم له، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع - رجل كان في الوفد - حفنة من تراب البطحاء فرمى بها وجه إياس، وقال: دعنا عنك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ، وانصرفوا إلى المدينة من غير أن ينجحوا في عقد حلف مع قريش.

وبعد رجوعهم إلى يثرب لم يلبث إياس أن هلك، وكان يهلل ويكبر ويحمد، ويسبح عند موته، فلا يشكون أنه مات مسلمًا^(١).

٣ - أبو ذر الغفاري: وكان من سكان نواحي يثرب، ولعلّه لما بلغ إلى يثرب خبر مبعث النبي ﷺ بسويد بن صامت وإياس بن معاذ وقع في أذن أبي ذر أيضًا، وصار سببًا لإسلامه.

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو ذر: كنت رجلًا من غفار، فبلغنا أن رجلًا قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل وكلمه، واثني بخبره، فانطلق، فلقيه، ثم رجع، فقلت: ما عندك؟ فقال: والله! لقد رأيت رجلًا يأمر بالخير، وينهى عن الشر، فقلت له: لم تشفني من الخبر، فأخذت جرابًا وعصًا، ثم أقبلت إلى مكة، ف جعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم وأكون في المسجد. قال: فمر بي علي. فقال: كأن الرجل غريب؟ قال: قلت: نعم. فقال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه، لا يسألني عن شيء ولا أسأله ولا أخبره. فلما أصبحت غدوت إلى المسجد؛ لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء. قال: فمر بي علي فقال: أما نال للرجل يعرف منزله بعد؟ قال: قلت: لا. قال: فانطلق معي، قال: فقال: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ قال: قلت له: إن كتمت عليّ أخبرتك، قال: فإني أفعل، قال: قلت له: بلغنا أنه قد خرج ههنا رجل يزعم أنه نبي الله فأرسلت أخي يُكلمه، فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه.

فقال له: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي إليه، ادخل حيث أدخل، فإني إن رأيت أحدًا أخافه عليك قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي، وامض أنت، فمضى، ومضيت معه حتى دخل، ودخلت معه على النبي ﷺ، فقلت له: اعرض عليّ الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني، فقال لي: «يا أبا ذر! اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل». فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرحن بها بين أظهرهم، فجئت إلى المسجد وقريش فيه، فقلت: يا معشر قريش! إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ. فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكبّ عليّ، ثم أقبل عليهم فقال، ويلكم تقتلون رجلًا من غفار؟ ومتجرم وممرم على غفار، فأقلعوا عني، فلما

(١) ابن هشام ٤٢٧/١، ٤٢٨، ومسنّد أحمد ٤٢٧/٥.

أن أصبحت الغد، رجعت، فقلت مثل ما قلت بالأمس، فقالوا قوموا إلى هذا الصابىء، فصنع بي ما صنّع بالأمس، فأدركني العباس، فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس^(١).

٤ - طفيل بن عمرو الدوسي: كان رجلاً شاعراً لبيباً رئيس قبيلة دوس، وكان لقبيلته إمارة أو شبه إمارة في بعض نواحي اليمن، قدم مكة في عام ١١ من النبوة، فاستقبله أهلها قبل وصوله إليها، وبذلوا له أجلّ تحية وأكرم التقدير، وقالوا له: يا طفيل! إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرّق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تُكلمه ولا تسمع من شئنا.

ويقول طفيل: فوالله! ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلّمه، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً؛ فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، قال فغدوت إلى المسجد، فإذا هو قائم يصلي عند الكعبة، فقمّت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعي بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: وائكل أُمي، والله! إني رجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فلما يمنعي أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فاتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فعرضت عليه قصة مقدمي، وتخويف الناس إياي، وسد الأذن بالكرسف، ثم سماع بعض كلامه، وقلت له: اعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فوالله! ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت له: إني مطاع في قومي، وراجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية، فدعا.

وكانت آيته أنه لما دنا من قومه جعل الله نوراً في وجهه مثل المصباح، فقال: اللهم! في غير وجهي، أخشى أن يقولوا: هذه مثلة، فتحول النور إلى سوطه، فدعا أباه وزوجته إلى الإسلام فأسلما، وأبطأ عليه قومه في الإسلام لكن لم يزل بهم حتى هاجر بعد الخندق^(٢) ومعه سبعون أو ثمانون بيتاً من قومه، وقد أبلى في الإسلام بلاء حسناً، وقتل شهيداً يوم اليمامة^(٣).

٥ - ضماد الأزدي: كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان يرقى من هذه الرياح، قدم مكة فسمع سفهاءها يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعلّ الله يشفيه

(١) صحيح البخاري باب قصة زمزم ٤٩٩/١، ٥٠٠ وباب إسلام أبي ذر ٥٤٤/١، ٥٤٥.

(٢) بل وبعد الحديبية، فقد قدم المدينة ورسول الله ﷺ بخير. انظر ابن هشام ٣٨٥/١.

(٣) ابن هشام ٣٨٢/١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٥.

على يدي، فلقية، فقال: يا محمد! إنني أرقى من هذا الريح، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد».

فقال: أعد عليّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه^(١).

ست نسيمات طيبة من أهل يثرب:

وفي موسم الحج من سنة ١١ من النبوة - يوليو سنة ٦٢٠ م - وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلالها الوارفة عن لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ.

وكان من حكمته ﷺ - إزاء ما كان يلقي من أهل مكة من التكذيب والصدّ عن سبيل الله - أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين.

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلي، فمرّ على منازل ذهل وشيخان بن ثعلبة وكلمهم في الإسلام، وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيخان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام^(٢).

ثم مرّ رسول الله ﷺ بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون، فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب، كلهم من الخزرج، وهم:

- (١) أسعد بن زرارَة (من بني النجار)
- (٢) عوف بن الحارث بن رفاعَة، ابن عفراء (من بني النجار)
- (٣) رافع بن مالك بن العجلان (من بني زريق)
- (٤) قطبة بن عامر بن حديدة (من بني سلمة)
- (٥) عقبة بن عامر بن نابي (من بني حرام بن كعب)
- (٦) جابر بن عبد الله بن رثاب (من بني عبيد بن غنم)

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة أن نبيًا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان، سيخرج فتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم^(٣).

(١) رواه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ح ٤٦ (٨٦٨).

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

(٣) زاد المعاد ٥٠/٢، وابن هشام ٤٢٩/١، ٥٤١.

فلما لحقهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم»، قالوا: نفر من الخزرج، قال: «من موالي اليهود؟» أي حلفائهم، قالوا: نعم. قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم! إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا.

وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت من قريب، والتي لا يزال لحيثها مُستَعْرًا، فأملوا أن تكون دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فنسقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ^(١).

استطراد: تزويج رسول الله ﷺ بعائشة:

وفي شوال من هذه السنة - سنة ١١ من النبوة - تزوّج رسول الله ﷺ عائشة الصديقة رضي الله عنها، وهي بنت ست سنين وبنى بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين^(٢).

(١) المصدر الأخير نفسه ٤٢٨/١، ٤٢٩، ٤٣٠.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ١٠، صحيح البخاري ٥٥١/١.

الإسراء والمعراج

وبينا النبي ﷺ في هذه المرحلة التي كانت دعوته تُشَقُّ فيها طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج.

واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى:

- ١ - ف قيل: كان الإسراء في السنة التي أكرمها الله فيها بالنبوة، اختاره الطبري.
- ٢ - وقيل: كان بعد المبعث بخمس سنين، رجح ذلك النووي والقرطبي.
- ٣ - وقيل: كان ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة، واختاره العلامة المنصورفوري.

- ٤ - وقيل: قبل الهجرة بستة عشر شهرًا، أي: في رمضان سنة ١٢ من النبوة.
- ٥ - وقيل: قبل الهجرة بسنة وشهرين، أي: في المحرم سنة ١٣ من النبوة.
- ٦ - وقيل: قبل الهجرة بسنة، أي: في ربيع الأول سنة ١٣ من النبوة.

وردت الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تُفَرَضَ الصلوات الخمس، ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء^(١). أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدًا منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدًا.

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الواقعة. وفيما يلي نسردها بإيجاز:

قال ابن القيم: أُسْرِى برسول الله ﷺ، بجسده على الصحيح، من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البراق، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

ثم عُرِجَ به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل، ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحَّبَ به، ورد عليه السلام، وأقرَّ بنبوته، وأراه الله أرواح الشهداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره.

ثم عُرِجَ به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقِيهما وسلَّم عليهما، فردَّا عليه، ورحَّبَا به، وأقرا بنبوته.

(١) انظر لهذه الأقوال زاد المعاد ٤٩/٢، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٤٨، ١٤٩.

ثم عُرِّجَ به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسَلَّمَ عليه، فرد عليه ورَحَّبَ به، وأَقَرَّ بنبوته.

ثم عُرِّجَ به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدریس، فسَلَّمَ عليه، ورَحَّبَ به وأَقَرَّ بنبوته.

ثم عُرِّجَ به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسَلَّمَ عليه، ورَحَّبَ به، وأَقَرَّ بنبوته.

ثم عُرِّجَ به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى بن عمران، فسَلَّمَ عليه ورَحَّبَ به، وأَقَرَّ بنبوته.

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا بُعِثَ من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي.

ثم عُرج به إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم عليه السلام، فسَلَّمَ عليه، ورَحَّبَ به، وأَقَرَّ بنبوته.

ثم رُفِعَ إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور.

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرَّ على موسى، فقال له: بم أمرك؟ قال: «بخمسين صلاة» قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشير في ذلك، فأشار: أن نعم، إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى، وهو في مكانه - هذا لفظ البخاري في بعض الطرق - فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: «قد استحييت من ربي، ولكنني أرضى وأسلم» فلما بَعُدَ نادى مناد: قد أمضيت فریضتي وخففت عن عبادي - انتهى^(١).

ثم ذكر ابن القيم خلافاً في رؤيته ﷺ ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلاماً لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلاً وهو قول لم يقله أحد من الصحابة، وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالقواد فالأول لا ينافي الثاني.

ثم قال: وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدنو الذي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل، وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود،

والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض في سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى. وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم^(١) انتهى.

وقد جاء في بعض الروايات أن صدره ﷺ شقَّ في هذه المرة أيضًا، وقد رأى النبي ﷺ ضمن هذه الرحلة أمورًا عديدة:

عُرِضَ عليه اللبن والخمر، فاختار اللبن، فقيل: هُديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك.

ورأى أربعة أنهار في الجنة: نهران ظاهران، ونهران باطنان، والظاهران هما: النيل والفرات، عنصرهما، والباطنان: نهران في الجنة، ولعل معنى رؤية النيل والفرات الإشارة إلى تمكن الإسلام من قطريهما. والله أعلم.

ورأى مالك خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر وبشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار.

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأنهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة، لا يقدرول لأجلها أن يتحوَّلوا عن مكانهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب إلى جنبه لحم غث متنن، يأكلون من الغث المتنن، ويتركون الطيب السمين.

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بثديهن.

ورأى غيراً من أهل مكة في الإياب والذهاب، وقد دلَّهم على بعير ندَّ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطى، وهم نائمون، ثم ترك الإناء مغطى، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء^(٢).

قال ابن القيم: فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتدَّ تكذيبهم له وأذاهم وضراوتهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس،

(١) زاد المعاد ٢/٤٧، ٤٨، وانظر صحيح البخاري ٥٠/١، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٨١، ٥٤٨، ٥٤٩، ٥٥٠، ٦٨٤/٢، وصحيح مسلم ٩١/١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٥٩، ٩٦.

(٢) المصادر السابقة وابن هشام ٣٩٧/١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦.

فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردُّوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن غيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها وكان الأمر كما قال، فلم يزداهم ذلك إلا نفوراً، وأبى الظالمون إلا كفوراً^(١).

يقال سُمِّيَ أبو بكر رضي الله عنه صديقاً؛ لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها الناس^(٢).

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى: ﴿لِتُرِيَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] وهذه سنة الله في الأنبياء، قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال لموسى: ﴿لِتُؤْيِكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣] وقد بيَّن مقصود هذه الإرادة بقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] فبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، وليس الخبر كالمعاينة، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعبأون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب.

والحكم والأسرار التي تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من ينابيع هذه الرحلة المباركة وتتدفق إلى حقائق أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أُسَجِّل بعضاً منها بالإيجاز.

يرى القارىء في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارىء أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم التي لا مجال بعدها لبقائهم على هذا المنصب، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسوله ﷺ، ويجمع له مركزي الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد أن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة، من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطروداً بين الناس، هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهي أن دوراً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك

(١) زاد المعاد ٤٨/١، وانظر أيضاً صحيح البخاري ٦٨٤/٢، وصحيح مسلم ٩٦/١، وابن هشام ٤٠٢/١، ٤٠٣.

(٢) المصدر الأخير نفسه ٣٩٩/١

إلى النهاية والتمام، وسيبدأ دور آخر يختلف عن الأول في مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعد شديد بالنسبة إلى المشركين: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧] وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامي، كأنهم قد أواوا إلى الأرض، امتلكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحي المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول ﷺ سيجد ملجأ ومأمنًا يستقر فيه أمره، ويصير مركزًا لبثّ دعوته في أرجاء الدنيا. هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة، يتصل ببحثنا، فآثرنا ذكره.

ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، والله أعلم.

بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة ١١ من النبوة، وواعدوا رسول الله ﷺ إبلاغ رسالته في قومهم.

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج سنة ١٢ من النبوة يوليو سنة ٦٢١م - اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد اتصلوا برسول الله ﷺ في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رثاب - وسبعة سواهم. وهم:

- | | | |
|-------------------------------|--------------------|------------|
| (١) معاذ بن الحارث، ابن عفراء | من بني النجار | (من الخرج) |
| (٢) ذكوان بن عبد القيس | من بني زريق | (من الخرج) |
| (٣) عبادة بن الصامت | من بني غنم | (من الخرج) |
| (٤) يزيد بن ثعلبة | من حلفاء بني غنم | (من الخرج) |
| (٥) العباس بن عبادة بن نضلة | من بني سالم | (من الخرج) |
| (٦) أبو الهيثم بن التيهان | من بني عبد الأشهل | (من الأوس) |
| (٧) عويم بن ساعدة | من بني عمرو بن عوف | (من الأوس) |

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخرج^(١).

التقى هؤلاء برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه بيعة النساء، أي: وفق بيعتهن التي نزلت عند فتح مكة.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «تعالوا، بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه». قال: فبايعته - وفي نسخة فبايعناه - على ذلك^(٢).

(١) ابن هشام ٤٣١/١، ٤٣٢، ٤٣٣.

(٢) صحيح البخاري، باب علامة الإيمان حب الأنصار ٧/١، باب وفود الأنصار ٥٥٠/١، ٥٥١ واللفظ من هذا الباب، وباب قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ ٧٢٧/٢، باب الحدود كفارة ١٠٠٣/٢.

سفير الإسلام في المدينة:

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي ﷺ مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب، ليُعَلِّمَ المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويَقْهَمَهم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزلوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شابًا من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مصعب بن عمير العبدي رضي الله عنه.

النجاح المغتبط:

نزل مصعب بن عمير على أسعد بن زرارة، وأخذ يثان الإسلام في أهل يثرب بجدة وحماس، وكان مصعب يعرف بالمقرئ.

ومن أروع ما يروى من نجاحه في الدعوة أن أسعد بن زرارة خرج به يومًا يريد دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخل في حائط من حوائط بني ظفر، وجلسا على بئر يقال لها: بئر مرق، واجتمع إليهما رجال من المسلمين - وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا قومهما من بني عبد الأشهل يومئذ على الشرك - فلما سمعا بذلك قال سعد لأسيد: اذهب إلى هذين اللذين قد أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، وانهما عن أن يأتيا دارنا، فإن أسعد بن زرارة ابن خالتي، ولولا ذلك لكفيتك هذا.

فأخذ أسيد حريته وأقبل إليهما، فلما رآه أسعد قال لمصعب: هذا سيد قومك قد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلّمه. وجاء أسيد فوقف عليهما متشتمًا، وقال: ما جاء بكما إلينا؟ تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: أنصفت، ثم ركز حريته وجلس، فكلّمه مصعب بالإسلام، وتلا عليه القرآن. قال: فوالله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلّم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. فقام واغتسل، وطهر ثوبه، وتشهد وصلى ركعتين، ثم قال: إن ورائي رجلًا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن - سعد بن معاذ - ثم أخذ حريته وانصرف إلى سعد في قومه، وهم جلوس في ناديبهم، فقال سعد: أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف أسيد على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ فقال: كلّمت الرجلين فوالله! ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: تفعل ما أحببت.

وقد حدث أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه - وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك - ليخفروك، فقام سعد مغضباً للذي ذكر له، فأخذ حربته، وخرج إليهما، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، تغشانا في دارنا بما نكره؟

وقد كان أسعد قال لمصعب: جاءك والله! سيد من ورائه قومه، إن يتبعك لم يتخلف عنك منهم أحد، فقال مصعب لسعد بن معاذ: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال: قد أنصفت، ثم ركز حربته فجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قال: فعرفنا والله! في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتهلله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالوا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. ففعل ذلك.

ثم أخذ حربته، فأقبل إلى نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيية، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أسمى فيهم رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة إلا رجل واحد - وهو الأصيرم - تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتِلَ، ولم يسجد لله سجدة، فقال النبي ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً».

وأقام مصعب في بيت أسعد بن زرارة يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل، كان فيهم قيس بن الأسلت الشاعر - وكانوا يطيعونه - فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة.

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي: حج السنة الثالثة عشرة - عاد مصعب بن عمير إلى مكة، يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقصُّ عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، ومالها من قوة ومنعة^(١).

(١) ابن هشام ١/٤٣٥، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٣٨، و ٢/٩٠، وزاد المعاد ٢/٥١.

بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة ٦٢٢م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب، جاؤوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق - حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويُطَرَّد في جبال مكة ويخاف؟

فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي ﷺ اتصالات سرية، أدَّت إلى اتفاق الفريقين على أن يتجمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل.

ولترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي، الذي حوّل مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام، يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

«خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام، سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلّمناه، وقلنا له: يا أبا جابر! إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإننا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطّياً للنار غداً، ثم دعونا إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا بالعقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيّاً».

قال كعب: «فمننا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ، تسلّل تسلّل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من نساءنا؛ نسيبة بنت كعب - أم عمار - من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بني سلمة».

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه (عمه) العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول مُتَكَلِّم^(١).

(١) ابن هشام ١/٤٤٠، ٤٤١.

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية:

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ. تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة لهذا التحالف. قال:

«يا معشر الخزرج! - وكان العرب يُسمُّون الأنصار خزرجًا، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم وللحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده».

قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله! فخذ لنفسك ولربك ما أحببت^(١).

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم وتصميم وشجاعة وإيمان وإخلاص في تحمل هذه المسؤولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة. وألقى رسول الله ﷺ بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة.

بنود البيعة:

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً. قال جابر: قلنا: يا رسول الله! على ما نبايعك؟ قال:

- (١) على السمع والطاعة في النشاط والكسل.
- (٢) وعلى النفقة في العسر واليسر.
- (٣) وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- (٤) وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم.
- (٥) وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة^(٢).

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود، فيه «قال

(١) المصدر نفسه ٤٤١/١، ٤٤٢.

(٢) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن، ٣/٣٢٢، والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٩ وصححه الحاكم وابن حبان، وروى ابن إسحاق ما يشبه هذا عن عبادة بن الصامت، وفيه بند زائد، وهو «أن لا تنازع الأمر أهله» انظر ابن هشام ٤٥٤/١.

كعب. فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق (نبياً) لنمنعك مما نمنع أُرزنا^(١) منه، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله! أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً (عن كابر).

قال: فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله! إن بيننا وبين الرجال حباً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتهم، وأسالم من سالمتم»^(٢).

التأكيد من خطورة البيعة:

وبعد أن تمت المحادثة حول شروط البيعة، وأجمعوا على الشروع في عقدها قام رجلان من الرعييل الأول ممن أسلموا في مواسم سنتي ١١، ١٢ من النبوة، قام أحدهما تلو الآخر، ليؤكدوا للقوم خطورة المسؤولية، حتى لا يبايعوه إلا على جلية من الأمر، وليعرفا مدى استعداد القوم للتضحية ويتأكدوا من ذلك.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عباد بن نضلة: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله! إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله! خير الدنيا والآخرة.

قالوا: فإننا نأخذ على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله! إن نحن وفينا بذلك؟ قال: «الجنة». قالوا ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه^(٣).

وفي رواية جابر (قال): فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو أصغر السبعين - فقال: رويداً يا أهل يثرب! إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فلما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر

(١) العرب تكني عن المرأة بالإزار وتكني أيضاً بالإزار عن النفس.

(٢) ابن هشام ٤٤٢/١.

(٣) المصدر نفسه ٤٤٦/١.

لكم عند الله^(١).

عقد البيعة:

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة -: فقالوا: يا أسعد! أمط عنا يدك، فوالله! لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها^(٢).

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل، وتأكد منه، وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير فكان هو السابق إلى هذه البيعة. قال ابن إسحاق: فبنو النجار يزعمون أن أبا أمانة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده^(٣).

وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة^(٤).

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الواقعة فكانت قولاً. ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط^(٥).

اثنا عشر نقيباً:

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله ﷺ انتخاب اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم: أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومكم بما فيهم.

فتم انتخابهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهاك أسماؤهم:

نقباء الخزرج:

(١) أسعد بن زرارة بن عدس.

(٢) سعد بن الربيع بن عمرو.

(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة.

(٤) رافع بن مالك بن العجلان.

(١) رواه الإمام أحمد من حديث جابر ٣/٣٢٢ والبيهقي في السنن الكبرى ٩/٩.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) قال ابن إسحاق: وبنو عبد الأشهل يقولون: بل أبو الهيثم بن التيهان، وقال كعب بن مالك: بل البراء بن معمر (ابن هشام ١/٤٤٧) قلت: لعلهم حسبوا ما دار بينهما وبين الرسول ﷺ من الحوار ببيعة، وإلا فأحرى الناس بالتقديم إذ ذاك هو أسعد بن زرارة. والله أعلم.

(٤) مسند الإمام أحمد ٣/٣٢٢.

(٥) انظر صحيح مسلم باب كيفية بيعة النساء ١٣١/٢.

- (٥) البراء بن معرور بن صخر.
- (٦) عبد الله بن عمرو بن حرام.
- (٧) عبادة بن الصامت بن قيس.
- (٨) سعد بن عبادة بن دليم.
- (٩) المنذر بن عمرو بن خنيس.

نقباء الأوس:

- (١) أسيد بن حضير بن سماك.
- (٢) سعد بن خيثمة بن الحارث.
- (٣) رفاعه بن عبد المنذر بن زبير^(١).

ولما تم انتخاب هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي ﷺ ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين. قال لهم: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي» - يعني المسلمين - قالوا: نعم.

شيطان يكتشف المعاهدة:

ولما تم إبرام المعاهدة، وكان القوم على وشك الانفضاض، اكتشفها أحد الشياطين، وحيث جاء هذا الاكتشاف في اللحظة الأخيرة، ولم يكن يمكن إبلاغ زعماء قريش هذا الخبر سرّاً لياغتوا المجتمعين وهم في الشعب؛ قام ذلك الشيطان على مرتفع من الأرض، وصاح بأنفذ صوت سمع قط: «يا أهل الأخاشب! - المنازل - هل لكم في محمد والصباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم».

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أذب العقبة، أما والله يا عدو الله! لأنفرغنَّ لك». ثم أمرهم أن ينفضوا إلى رحالهم^(٢).

استعداد الأنصار لضرب قريش:

وعند سماع صوت هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسياقنا». فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» فرجعوا وناموا حتى أصبحوا^(٣).

(١) زبير بالباء الموحدة، وقيل بدل رفاعه، أبو الهيثم بن التيهان، ابن هشام ١/٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦.

(٢) ابن هشام ١/٤٤٧، وزاد المعاد ٢/٥١.

(٣) ابن هشام ١/٤٤٨.

قريش تقدّم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب:

ولما قرع هذا الخبر آذان قريش وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان، لأنهم كانوا على معرفة تامة من عواقب مثل هذه البيعة ونتائجها بالنسبة إلى أنفسهم وأموالهم، فما إن أصبحوا حتى توجه وفد كبير من زعماء مكة وأكابر مجرميها إلى مخيم أهل يثرب، ليقدم احتجاجه الشديد على هذه المعاهدة. فقد قال:

«يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله! ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»^(١).

ولما كان مشركو الخزرج لا يعرفون شيئاً عن هذه البيعة؛ لأنها تمت في سرية تامة، وفي ظلام الليل، انبعث هؤلاء المشركون يحلفون بالله: ما كان من شيء، وما علمناه، حتى أتوا عبد الله بن أبي ابن سلول، فجعل يقول: هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليّ مثل هذا، لو كنت يثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني.

أما المسلمون فنظر بعضهم إلى بعض، ثم لاذوا بالصمت، فلم يتحدث أحد منهم بنفي أو إثبات ومال زعماء قريش إلى تصديق المشركين، فرجعوا خائبين.

تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين:

عاد زعماء مكة وهم على شبه اليقين من كذب هذا الخبر، لكنهم لم يزالوا ينتظرونه - يكثران البحث عنه ويدققون النظر فيه - حتى تأكد لديهم أن الخبر صحيح، والبيعة قد تمت فعلاً. وذلك بعد ما نفر الحجيج إلى أوطانهم، فسارع فرسانهم بمطاردة اليثريين، ولكن بعد فوات الأوان، إلا أنهم تمكّنوا من رؤية سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فطاردهما، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فألقوا القبض عليه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله، وجعلوا يضربونه ويجرّونه ويجرّون شعره حتى أدخلوه مكة، فجاء المطعم بن عدي والحارث ابن حرب بن أمية فخلصاه من أيديهم، إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا هو قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعاً إلى المدينة^(٢).

هذه هي بيعة العقبة الثانية - التي تعرف ببيعة العقبة الكبرى - وقد تمت في جو تعلوه عواطف الحب والولاء والتناصر بين أشتات المؤمنين، والثقة والشجاعة والاستبسال في هذا

(١) المصدر نفسه ٤٤٨/١.

(٢) زاد المعاد ٥١/٢، ٥٢، ابن هشام ٤٤٨/١، ٤٤٩، ٤٥٠.

السييل، فمؤمن من أهل يثرب يحنو على أخيه المستضعف في مكة، ويتعصب له، ويغضب من ظالمه، وتجيئ في حناياه مشاعر الود لهذا الأخ الذي أحبه بالغيب في ذات الله.

ولم تكن هذه المشاعر والعواطف نتيجة نزعة عابرة تزول على مر الأيام، بل كان مصدرها هو الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، إيمان لا يزول أمام أي قوة من قوات الظلم والعدوان، إيمان إذا هبت ريحه جاءت بالعجائب في العقيدة والعمل، وبهذا الإيمان استطاع المسلمون أن يُسَجِّلُوا على أوراق الدهر أعمالاً، ويتركوا عليها آثاراً، خلا عن نظائرها الغابر والحاضر، وسوف يخلو المستقبل.

طلائع الهجرة

وبعد أن تمت بيعة العقبة الثانية، ونجح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة - وهو أخطر كسب حصل عليه الإسلام منذ بداية دعوته - أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى هذا الوطن.

ولم يكن معنى الهجرة إلا إهدار المصالح، والتضحية بالأموال، والنجاة بالشخص فحسب، مع الإشعار بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، لا يدري ما يتمخض عنه من قلاقل وأحزان.

وبدأ المسلمون يهاجرون، وهم يعرفون كل ذلك، وأخذ المشركون يحولون بينهم وبين خروجهم، لما كانوا يحسون من الخطر، وهاك نماذج من ذلك:

(١) كان من أول المهاجرين أبو سلمة - هاجر قبل العقبة الكبرى بسنة على ما قاله ابن إسحاق - وزوجته وابنه، فلما أجمع على الخروج قال له أصهاره: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فأخذوا منه زوجته، وغضب آل أبي سلمة لرجلهم، فقالوا: لا نترك ابننا معها إذ نزعتموها من صاحبنا، وتجاوزوا الغلام بينهم فخلعوا يده، وذهبوا به. وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، وكانت أم سلمة رضي الله عنها بعد ذهاب زوجها، وضياح ابنها تخرج كل غداة بالأبطح تبكي حتى تُمسي، ومضى على ذلك نحو سنة، فرق لها أحد ذويها وقال: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، فاسترجعت ابنها من عصبتها، وخرجت تريد المدينة - رحلة تبلغ حوالي خمسمائة كيلو مترًا - وليس معها أحد من خلق الله، حتى إذا كانت بالتنعيم لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، وبعد أن عرف حالها شيعها حتى أقدمها إلى المدينة، فلما نظر إلى قباء قال: زوجك في هذه القرية فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة^(١).

(٢) وهاجر صهيب بن سنان الرومي بعد رسول الله ﷺ، ولما أراد صهيب الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكًا حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله! لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أرايتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون

سيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني قد جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ريح صهيب، ريح صهيب»^(١).

(٣) وتواعد عمر بن الخطاب، وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل موضعاً يصبحون عنده، ثم يهاجرون إلى المدينة، فاجتمع عمر وعياش وحُيسَ عنهما هشام.

ولما قدما المدينة ونزلا بقاء قدم أبو جهل وأخوه الحارث إلى عياش - وأم الثلاثة واحدة - فقالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل بشمس حتى تراك، فرق لها. فقال له عمر: يا عياش! إنه والله! إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله! لو آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، فأبى عياش إلا الخروج معهما؛ ليبر قسم أمه، فقال له عمر: أما إذا قد فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجية ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا ابن أخي! والله! لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى فأناخ وأناخا ليتحوّل عليها، فلما استوا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه وربطاه، ثم دخلا به مكة نهاراً موثقاً، وقالوا: يا أهل مكة! هكذا فافعلوا بسفهاكم، كما فعلنا بسفيهننا هذا^(٢).

هذه ثلاثة نماذج لما كان المشركون يفعلونه بمن يريد الهجرة إذا علموا ذلك، ولكن مع كل ذلك خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً. وبعد شهرين وبضعة أيام من بيعة العقبة الكبرى لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي - أقاما بأمره لهما - وإلا من احتبس المشركون كرهاً، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يؤمر بالخروج، وأعد أبو بكر جهازه^(٣).

روى البخاري عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ للمسلمين «إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين» - وهما الحرتان - فهاجر من هاجر قبل المدينة. ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهّز أبو بكر قبل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رسلك، فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم»

(١) المصدر نفسه ٤٧٧/١.

(٢) بقي هشام وعياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ﷺ قال يوماً: من لي بعياش وهشام؟ فقال الوليد بن الوليد: أنا لك يا رسول الله بهما، فقدم الوليد مكة مستخفياً، ولقي امرأة تحمل إليهما طعاماً فتبعها حتى عرف موضعهما، وكانا محبوسين في بيت لا سقف له، فلما أمسى تسور الجدار، وقطع قيديهما وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة انظر ابن هشام ٤٧٤/١، ٤٧٥، ٤٧٦، وكان قدوم عمر المدينة في عشرين من الصحابة (صحيح البخاري ٥٥٨/١).

(٣) زاد المعاد ٥٢/٢.

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخطب - أربعة أشهر^(١).

(١) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١.

في دار الندوة «برلمان قريش»

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تَجَهَّزوا وخرجوا، وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وقعت فيهم ضجة أثارت القلاقل والأحزان، وأخذ القلق يساورهم بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تجسد أمامهم الخطر الحقيقي العظيم، الذي يهدد كيانهن الوثني والاقتصادي، فقد كانوا يعلمون ما في شخصية محمد ﷺ من غاية قوة التأثير مع كمال القيادة والإرشاد، وما في أصحابه من العزيمة والاستقامة والفداء في سبيله، ثم ما في قبائل الأوس والخزرج من قوة ومنعة، وما في عقلاء هاتين القبيلتين من عواطف السلم والصلاح، والتداعي إلى نبذ الأحقاد فيما بينهما، بعد أن ذاقوا مرارة الحروب الأهلية طيلة أعوام من الدهر.

كما كانوا يعرفون ما للمدينة من الموقع الاستراتيجي بالنسبة إلى المحجة التجارية التي تمر بساحل البحر الأحمر من اليمن إلى الشام، وقد كان أهل مكة يتاجرون إلى الشام بقدر ربع مليون دينار ذهب سنوياً، سوى ما كان لأهل الطائف وغيرها. ومعلوم أن مدار هذه التجارة كان على استقرار الأمن في تلك الطريق.

فلا يخفى ما كان لقريش من الخطر البالغ في تمركز الدعوة الإسلامية في يثرب، ومجابهة أهلها ضدهم.

شعر المشركون بتفاقم الخطر الذي كان يهدد كيانهن، فصاروا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر، الذي مبعثه الوحيد هو حامل لواء دعوة الإسلام محمد ﷺ.

وفي يوم الخميس ٢٦ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة، الموافق ١٢ من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢م^(١) - أي بعد شهرين ونصف تقريباً من بيعة العقبة الكبرى - عقد برلمان مكة (دار الندوة) في أوائل النهار^(٢) أخطر اجتماع له في تاريخه، وتوافد إلى هذا الاجتماع جميع نواب القبائل القرشية، ليتدارسوا خطة حاسمة تكفل القضاء سريعاً على حامل لواء الدعوة الإسلامية، وتقطع تيار نورها عن الوجود نهائياً.

(١) أخذنا هذا التاريخ بعد مراجعة التحقيقات التي سجّلها العلامة محمد سليمان المنصورفوري في رحمة للعالمين ١/ ٩٥، ٩٧، ١٠٢، ٤٧١/٢.

(٢) يدل على انعقاد الاجتماع في أوائل النهار ما رواه ابن إسحاق أن جبريل أخبر النبي ﷺ بمؤامرة هذا الاجتماع وأذن في الهجرة. ثم ما رواه البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ جاء أبا بكر في نحر الظهيرة وقال له: «قد أذن لي في الخروج» وسيأتي.

وكانت الوجوه البارزة في هذا الاجتماع الخطير من نواب قبائل قريش:

(١) أبو جهل بن هشام، عن قبيلة بني مخزوم.

(٢-٤) جبير بن مطعم، وطعيمة بن عدي، والحارث بن عامر، عن بني نوفل بن عبد مناف.

(٥-٧) شيبه وعتبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب، عن بني عبد شمس بن عبد مناف.

(٨) النضر بن الحارث عن بني عبد الدار.

(٩-١١) أبو البختری بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام عن بني أسد بن عبد العزی.

(١٢، ١٣) نبيه ومنبه ابنا الحجاج، عن بني سهم.

(١٤) أمية بن خلف، عن بني جمح.

ولما جاؤا إلى دار الندوة حسب الميعاد اعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل، عليه بَئِلَةٌ^(١)، ووقف على الباب، فقالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأيا ونصحا. قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم.

النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ:

وبعد أن تكامل الاجتماع بدأ عرض الاقتراحات والحلول، ودار النقاش طويلا. قال أبو الأسود: نخرجه من بين أظهرنا ونفیه من بلادنا، ولا نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، فقد أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

قال الشيخ النجدي: لا والله! ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ والله! لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحلّ على حي من العرب، ثم يسير بهم إليكم - بعد أن يتابعوه - حتى يطأكم بهم في بلادكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبّروا فيه رأيا غير هذا.

قال أبو البختری: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه بابا، ثم تربّصوا به ما أصاب أمثاله من الشعراء الذين كانوا قبله - زهيرًا والنابعة - ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

قال الشيخ النجدي: لا والله! ما هذا لكم برأي، والله! لئن حبستموه - كما تقولون -

ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتن دونه إلى أصحابه، فلاؤشكوا أن يشبوا عليكم، فينزعوهم من أيديكم، ثم يكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره.

وبعد أن رفض البرلمان هذين الاقتراحين قدّم إليه اقتراح آثم وافق عليه جميع أعضائه، تقدّم به كبير مجرمي مكة أبو جهل بن هشام. قال أبو جهل: والله! إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسبياً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم.

قال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا أرى غيره. ووافق برلمان مكة على هذا الاقتراح الآثم بالإجماع، ورجع النواب إلى بيوتهم، وقد صمّموا على تنفيذ هذا القرار فوراً^(١).

(١) انظر ابن هشام ١/٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢.

هجرة النبي ﷺ

ولما تم اتخاذ القرار الغاشم بقتل النبي ﷺ نزل إليه جبريل بوحي ربه تبارك وتعالى، فأخبره بمؤامرة قريش، وأن الله قد أذن له في الخروج، وحدد له وقت الهجرة قائلاً: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه^(١).

وذهب النبي ﷺ في الهاجرة إلى أبي بكر رضي الله عنه؛ ليبرم معه مراحل الهجرة، قالت عائشة رضي الله عنها: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله! ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرج من عندك». فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله! قال: «فإني قد أذن لي في الخروج»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم»^(٢).

وبعد إبرام خطة الهجرة رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، ينتظر مجيء الليل.

تطويق منزل الرسول ﷺ:

أما أكابر مجرمي قريش فقضوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة المرسومة التي أبرمها برلمان مكة (دار الندوة) صباحاً، واختير لذلك أحد عشر رئيساً من هؤلاء الأكابر، وهم:

(١) أبو جهل بن هشام.

(٢) الحكم بن أبي العاص.

(٣) عقبة بن أبي معيط.

(٤) النضر بن الحارث.

(٥) أمية بن خلف.

(٦) زمعة بن الأسود.

(٧) طعيمة بن عدي.

(٨) أبو لهب.

(١) ابن هشام ٤٨٢/١، زاد المعاد ٥٢/٢.

(٢) صحيح البخاري، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ٥٥٣/١.

(٩) أبي بن خلف .

(١٠) نبيه بن الحجاج .

(١١) أخوه منبه بن الحجاج^(١) .

قال ابن إسحاق: فلما كانت عتمة الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى قام، فيثبون عليه^(٢). وكانت عادته ﷺ أن ينام أول الليل، ويخرج بعد نصف الليل أو ثلثه إلى المسجد الحرام يصلي فيه .

وكانوا على ثقة ويقين جازم من نجاح هذه المؤامرة الدنية، حتى وقف أبو جهل وقفة الزهو والخيلاء، وقال مخاطبًا لأصحابه المطوقين في سخرية واستهزاء: إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها^(٣) .

وقد كان ميعاد تنفيذ تلك المؤامرة بعد منتصف الليل حين يخرج ﷺ من البيت، فباتوا متيقظين ينتظرون ساعة الصفر، ولكن الله غالب على أمره، بيده ملكوت السماوات والأرض، يفعل ما يشاء، وهو يجير ولا يجار عليه، فقد فعل ما خاطب به الرسول ﷺ فيما بعد: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

الرسول ﷺ يغادر بيته:

ومع غاية استعداد قريش لتنفيذ خطتهم فقد فشلوا فشلًا فاحشًا، ففي هذه الليلة قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «نم على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فثم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام^(٤). فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه نائمًا على فراشه ﷺ ومكانه .

وخرج رسول الله ﷺ، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرعه على رؤوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابًا، ومضى إلى بيت أبي بكر، فخرجوا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً حتى لحقا بغار ثور في اتجاه

(١) زاد المعاد ٢/ ٥٢ .

(٢) ابن هشام ١/ ٤٨٢ .

(٣) المصدر نفسه ١/ ٤٨٣ .

(٤) المصدر نفسه ١/ ٤٨٢، ٤٨٣ .

اليمن^(١).

وبقي المحاصرون ينتظرون حلول ساعة الصفر، وقبيل حلولها تجلّت لهم الخيبة والفشل، فقد جاءهم رجل ممن لم يكن معهم، ورآهم يبابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا محمداً. قال: خبتم وخسرتم، قد والله! مر بكم، وذّر على رؤوسكم التراب، وانطلق لحاجته، قالوا: والله! ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم.

ولكنهم تطلّعوا من صير الباب فرأوا عليّاً، فقالوا والله! إن هذا لمحمد نائماً، عليه برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. وقام عليٌّ عن الفراش، فسقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به^(٢).

من الدار إلى الغار:

غادر رسول الله ﷺ بيته في ليلة ٢٧ من شهر صفر سنة ١٤ من النبوة الموافق ١٣/١٢ سبتمبر ٦٢٢م^(٣). وأتى إلى دار رفيقه - وأمن الناس عليه في صحبته وماله - أبي بكر رضي الله عنه. ثم غادرا منزلاً الأخير من باب خلفي، ليخرجا من مكة على عجل، وقبل أن يطلع الفجر.

ولما كان النبي ﷺ يعلم أن قريشاً ستجدّ في الطلب، وأن الطريق الذي ستتجه إليه الأنظار لأول وهلة هو طريق المدينة الرئيسي المتجه شمالاً، فقد سلك الطريق الذي يضاده تماماً، وهو الطريق الواقع جنوب مكة، والمتجه نحو اليمن. سلك هذا الطريق نحو خمسة أميال، حتى بلغ إلى جبل يعرف بجبل ثور، وهذا جبل شامخ، وعر الطريق، صعب المرتقى، ذو أحجار كثيرة، فحفيت قدما رسول الله ﷺ، وقيل: بل كان يمشي في الطريق على أطراف قدميه كي يخفي أثره فحفيت قدماه، وأيا ما كان؛ فقد حمله أبو بكر حين بلغ إلى الجبل، وطفق يشتدّ به حتى انتهى به إلى غار في قمة الجبل، عرف في التاريخ بغار ثور^(٤).

إذ هما في الغار:

ولما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: والله! لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء

(١) المصدر نفسه ٤٨٣/١، زاد المعاد ٥٢/٢.

(٢) المصدران السابقان نفسهما.

(٣) رحمة للعالمين ٩٥/١ - ويكون شهر صفر هذا من السنة الرابعة عشرة من النبوة إذا فرضنا بداية السنين من شهر محرم، وأما إذا بدأنا السنين من الشهر الذي أكرم الله فيه نبيه ﷺ بالنبوة، فيكون شهر صفر هذا من السنة الثالثة عشرة قطعاً. وعامة من يكتب في السيرة ربما يختار هذا، وربما يختار ذلك، فكثيراً ما يتخبط في ترتيب الوقائع، ويقع في أغلاط ونظرًا إلى ذلك اخترنا بداية السنين من شهر محرم.

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ١٦٧.

أصابني دونك، فدخل فكسحه، ووجد في جانبه ثقبًا فشق إزاره وسدّها به، وبقي منها اثنان فألقمهما رجله، ثم قال لرسول الله ﷺ: ادخل. فدخل رسول الله ﷺ، ووضع رأسه في حجره ونام، فلُدِغَ أبو بكر في رجله من الجحر، ولم يتحرك مخافة أن ينتبه رسول الله ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ، فقال: «مالك يا أبا بكر؟» قال لُدِغْتُ، فذاك أبي وأمي، فتفل رسول الله ﷺ، فذهب ما يجده^(١).

وكمنا في الغار ثلاث ليال، ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد^(٢). وكان عبد الله بن أبي بكر يبيت عندهما، قالت عائشة: وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يكتادان به إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام. و(كان) يرفع عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم، فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينق بهما عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث^(٣). وكان عامر بن فهيرة يتبع بغنمه أثر عبد الله بن أبي بكر بعد ذهابه إلى مكة ليعفي عليه^(٤).

أما قريش فقد جُنَّ جنونُها حينما تأكَّد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة تنفيذ المؤامرة. فأول ما فعلوا بهذا الصدد أنهم ضربوا عليًا، وسحبوه إلى الكعبة، وحبسوه ساعة، عليهم يظفرون بخبرهما^(٥).

ولما لم يحصلوا من عليٍّ على جدوى جاؤوا إلى بيت أبي بكر، وقرعوا بابه، فخرجت إليهم أسماء بنت أبي بكر، فقالوا لها: أين أبوك؟ قالت: لا أدري والله! أين أبي؟ فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدّها لطمه طرح منها قرطها^(٦).

وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة استخدام جميع الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة (في جميع الجهات) تحت المراقبة المسلحة الشديدة، كما قرّرت إعطاء مكافأة ضخمة قدرها مائة ناقة بدل كل واحد منهما لمن يعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين، كائنًا من كان^(٧).

(١) رواه رزين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه ثم انتفض عليه (أي رجع أثر السم حين موته) وكان سبب موته. انظر مشكاة المصابيح، باب مناقب أبي بكر ٥٥٦/٢.

(٢) انظر فتح الباري ٣٣٦/٧.

(٣) صحيح البخاري ٥٥٣/١، ٥٥٤.

(٤) ابن هشام ٤٨٦/١.

(٥) تاريخ الطبري ٣٧٤/٢.

(٦) ابن هشام ٤٨٧/١.

(٧) انظر صحيح البخاري ٥٥٤/١.

وحينئذٍ جدت الفرسان والمشاة وقصاص الأثر في الطلب، وانتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، لكن من دون جدوى وبغير عائدة.

وقد وصل المطاردون إلى باب الغار، ولكن الله غالب على أمره، روى البخاري عن أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار فرفعت رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت يا نبي الله! لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا. قال: «اسكت يا أبا بكر! اثنان الله ثالثهما»، وفي لفظ: «ما ظنك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثهما»^(١).

وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينه وبينهم إلا خطوات معدودة.

في الطريق إلى المدينة:

وحين خمدت نار الطلب، وتوقفت أعمال دوريات التفتيش، وهدأت ثائرات قريش بعد استمرار المطاردة الحثيثة ثلاثة أيام بدون جدوى، تهيأ رسول الله ﷺ وصاحبه للخروج إلى المدينة.

وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي، وكان هاديًا خريئًا - ماهرًا بالطريق - وكان على دين كفار قريش، وأمينًا على ذلك، وسلّمًا إليه راحلتيهما، وواعدها غار ثور بعد ثلاث ليال براحليتهما، فلما كانت ليلة الإثنين - غرة ربيع الأول سنة ١ هـ/ ١٦ سبتمبر سنة ٦٢٢ م - جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين وحينئذ قال أبو بكر للنبي ﷺ: بأبي أنت يا رسول الله! خذ إحدى راحلتي هاتين. وقرب إليه أفضلهما، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

وأنتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتيها، ونسيت أن تجعل لها عصامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتعلّق السفرّة فإذا ليس لها عصام، فشقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرّة بواحد، وانتطقت بالآخر، فسمّيت ذات النطاقين^(٢).

ثم ارتحل رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، وارتحل معهما عامر بن فهيرة، وأخذ بهم الدليل - عبد الله بن أريقط - على طريق الساحل.

وأول ما سلك بهم بعد الخروج من الغار أنه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألّفه الناس اتجه شمالًا على مقربة من

(١) صحيح البخاري ٥١٦/١، ٥٥٨، ولم يكن فرع أبي بكر مخافة على نفسه، بل سببه الوحيد هو ما روي أن أبا بكر لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قتلت فإنما أنا رجل واحد، وإن قتلت أنت هلكت الأمة، فعندها قال له رسول الله ﷺ: «لَا تَحْزَنْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا» انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ١٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٥٣٣/١، ٥٥٥ وابن هشام ٤٨٦/١.

شاطيء البحر الأحمر، وسلك طريقًا لم يكن يسلكه أحد إلا نادرًا.

وقد ذكر ابن إسحاق المواضع التي مرَّ بها رسول الله ﷺ في هذا الطريق قال: لما خرج بهما الدليل سلك بهما أسفل مكة، ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عسفان، ثم سلك بهما على أسفل أمج، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما الطريق بعد أن أجاز قديدًا، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك، فسلك بهما الخرار، ثم سلك بهما ثنية المرة، ثم سلك بهما لقفا، ثم أجاز بهما مدلجة لقف، ثم استبطن بهما مدلجة مجاح، ثم سلك بهما مرجح مجاح، ثم تبطن بهما مرجح ذي الغضوين، ثم بطن ذي كشر، ثم أخذ بهما على الجدادج، ثم على الأجرد، ثم سلك بهما ذا سلم، من بطن أعداء مدلجة تعهن، ثم على العبايد، ثم أجاز بهما الفاجة، ثم هبط بهما العرج، ثم سلك بهما ثنية العائر - عن يمين ركوبة - حتى هبط بهما بطن رثم، ثم قدم بهما على قباء^(١). وهاك بعض ما وقع في الطريق:

(١) روى البخاري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أسرينا ليلتنا ومن الغد حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق، لا يمر فيه أحد، فرفعت لنا صخرة طويلة لها ظل لم تأت عليها الشمس، فنزلنا عنده، وسويت للنبي ﷺ مكانًا بيدي، ينام عليه، وبسطت عليه فروة، وقلت: نم يا رسول الله! وأنا أنفض لك ما حولك، فنام، وخرجت أنفض ما حوله، فإذا أنا برامق قبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذي أردنا، فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أهل المدينة أو مكة. قلت: أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب؟ قال: نعم. فأخذ شاة، فقلت: انفض الضرع من التراب والشعر والقذى. فحلب في كعب كنية من لبن، ومعني إداوة حملتها للنبي ﷺ، يرتوي منها، يشرب ويتوضأ، فأتيت النبي ﷺ، فكرهت أن أوقظه، فوافقته حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفله، فقلت اشرب يا رسول الله! فشرب حتى رضيت، ثم قال: «ألم يأن الرحيل؟» قلت: بلى، قال: فارتحلنا^(٢).

(٢) كان من دأب أبي بكر رضي الله عنه أنه كان ردفًا ﷺ، وكان شيخًا يعرف، ونبي الله ﷺ شاب لا يعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني الطريق، فيحسب الحاسب أنه يعني به الطريق، وإنما يعني سبيل الخير^(٣).

(٣) وتبعهما في الطريق سراقه بن مالك. قال سراقه: بينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم حتى قام علينا، ونحن جلوس، فقال: يا سراقه! إني رأيت آنفًا أسودة بالساحل، أراها محمدًا وأصحابه. قال سراقه: فعرفت أنهم هم. فقلت

(١) ابن هشام ٤٩١/١، ٤٩٢.

(٢) صحيح البخاري ٥١٠/١.

(٣) روى ذلك البخاري عن أنس ٥٥٦/١.

له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا، ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت، فأمرت جاريتي أن تُخْرِجَ فرسي، وهي من وراء أكمة، فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بوجه الأرض، وخفضت عاليه، حتى أتيت فرسي، فركبتها، فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم، فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقممت، فأهويت يدي إلى كنانتي، فاستخرجت منها الأزلام، فاستقسمت بها، أضرمهم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقرب بي، حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ - وهو لا يلتفت، وأبو بكر يُكَيِّرُ الالتفات - ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها، ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام، فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتكم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزائي، ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب لي في رقعة من آدم، ثم مضى رسول الله ﷺ^(١).

وفي رواية عن أبي بكر قال: ارتحلنا، والقوم يطلبوننا، فلم يدركننا منهم أحد غير سراقه بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله! فقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(٢) [التوبة: ٤٠].

ورجع سراقه، فوجد الناس في الطلب، فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، قد كُفِّيتُم ما ههنا. وكان أول النهار جاهاً عليهما، وآخره حارساً لهما^(٣).

(٤) ومروا في مسيره ذلك حتى مر بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة برزة جلدة تحبني بفناء الخيمة، ثم تطعم وتسقي من مر بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله! لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى والشاء عازب، وكانت سنة شهباء.

فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة، فقال: «ما هذه الشاة يا أم معبد؟» قالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «هل بها من لبن؟» قالت: هي أجهد من ذلك. فقال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: نعم بأبي وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فمسح رسول الله

(١) المصدر نفسه ٥٤/١ - وكان مقر بني مدلج بالقرب من رابغ، وتبعهما سراقه حينما كانا مصعبين من قديد - زاد المعاد ٥٣/٢ - فالأغلب أنه تبعهما في اليوم الثالث من رحيلهما.

(٢) صحيح البخاري ٥١٦/١.

(٣) زاد المعاد ٥٣/٢.

ﷺ بيده ضرعها، وسمّى الله ودعا، فتفاجت عليه ودرت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علت الرغوة، فسقاها، فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء، ثم غادره عندها فارتحلوا.

فما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزّاً عجافاً يتساوكن هُزالاً، فلما رأى اللبن عجب، فقال: من أين لك هذا؟ والشاء عازب، ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله! إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: إني والله! أراه صاحب قريش الذي تطلبه، صفيه لي يا أم معبد، فوصفته بصفاته الرائعة بكلام رائع كأن السامع ينظر إليه وهو أمامه - وسنقله في بيان صفاته ﷺ في أواخر المقالة - فقال أبو معبد: والله! هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً. وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعون ولا يرون القائل:

جزى الله رب العرش خير جزائه	رفيقين حلا خيمتي أم معبد
هما نزلًا بالبر وارتحلا به	وأفلح من أمسى رفيق محمد
فيا لقصي ما زوى الله عنكم	به من فعال لا يُحَازَى وسؤدد
ليهن بني كعب مكان فتاتهم	ومقعدهما للمؤمنين بمرصد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها	فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

قالت أسماء: ما درينا أين توجه رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل من الجن من أسفل مكة فأنشد هذه الأبيات، والناس يتبعونه ويسمعون صوته ولا يرونه، حتى خرج من أعلاها. قالت: فلما سمعنا قوله عرفنا حيث توجه رسول الله ﷺ، وأن وجهه إلى المدينة^(١).

(٥) وفي الطريق لقي النبي ﷺ بريدة بن الحصيب الأسلمي ومعه نحو ثمانين بيتاً، فأسلم وأسلموا، وصلى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة فصلّوا خلفه، وأقام بريدة بأرض قومه حتى قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد

وعن عبد الله بن بريدة أن النبي ﷺ كان يتفاءل ولا يتطير، فركب بريدة في سبعين راكباً من أهل بيته من بني سهم، فلقي النبي ﷺ، فقال له: «ممن أنت؟» قال: من أسلم، فقال: لأبي بكر: «سلمنا»، ثم قال: «من بني من؟» قال: من بني سهم. قال: «خرج سهمك»^(٢).

(٦) ومرو رسول الله ﷺ بأبي أوس تميم بن حجر أو بأبي تميم أوس بن حجر الأسلمي، بقحداوات بين الجحفة وهرشى - بالعرج - وكان قد أبطأ عليه بعض ظهره، فكان هو

(١) زاد المعاد ٥٣/٢، ٥٤ أخرجه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي ٩/٣، ١٠ والبغوي في شرح السنة ٢٦٤/١٣.

(٢) أسد الغابة ٢٠٩/١.

وأبو بكر على جمل واحد، فحملها أوس على فحل من إبله، وبعث معهما غلامًا له اسمه مسعود، وقال: اسلك بهما حيث تعلم من محارم الطريق ولا تفارقهما، فسلك بهما الطريق حتى أدخلهما المدينة، ثم ردَّ رسول الله ﷺ مسعودًا إلى سيده، وأمره أن يأمر أوسًا أن يسم إبله في أعناقها قيد الفرس، وهو حلقتان، ومدَّ بينهما مدًّا، فهي سمتهم، ولما أتى المشركون يوم أحد أرسل أوس غلامه مسعود بن هنيذة من العرج على قدميه إلى رسول الله ﷺ يخبره بهم. ذكره ابن مأكولا عن الطبري، وقد أسلم بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، وكان يسكن العرج^(١).

(٧) وفي الطريق في بطن رثم لقي رسول الله ﷺ الزبير، وهو في ركب من المسلمين، كانوا تجارًا قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بيضاء^(٢).

النزول بقباء:

وفي يوم الإثنين ٨ ربيع الأول سنة ١٤ من النبوة - وهي السنة الأولى من الهجرة - الموافق ٢٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م نزل رسول الله ﷺ بقباء^(٣).

قال عروة بن الزبير: سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرونه حتى يردَّهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته يا معاشر العرب! هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح^(٤). وتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة.

قال ابن القيم: وسُمِعَت الرَّجَّةُ والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكَبَّرَ المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقاءه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة، فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانَا وَجَبْرِئُ الْمُرْسَلِ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾^(٥) [التحرير: ٤٤].

(١) المصدر نفسه ١٧٣/١، وابن هشام ٤٩١/١.

(٢) روى ذلك البخاري عن عروة بن الزبير ٥٥٤/١.

(٣) رحمة للعالمين ١٠٢/١ - وفي هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثة وخمسين عامًا كاملاً لا وكس ولا شطط، وتم على نبوته ثلاثة عشر عامًا كاملاً عند من يقول: إنه أُكْرِمَ بالنبوة في ٩ ربيع الأول في سنة ٤١ من عام الفيل، وأما من يقول: إنه أُكْرِمَ بالنبوة في رمضان سنة ٤١ من عام الفيل فعنده يتم على نبوته - في ذلك اليوم - اثني عشر عامًا وخمسة أشهر و ١٨ يومًا أو ٢٢ يومًا.

(٤) صحيح البخاري ٥٥٥/١.

(٥) زاد المعاد ٥٤/٢.

قال عروة بن الزبير فتلقوا رسول الله ﷺ، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيي - وفي نسخة: يحيي - أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلَّ عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك^(١).

وكانت المدينة كلها قد زحفت للاستقبال، وكان يوماً مشهوداً لم تشهد المدينة مثله في تاريخها، وقد رأى اليهود صدق بشارة حبقوق النبي: إن الله جاء من التيمان، والقدوس من جبال فاران^(٢).

ونزل رسول الله ﷺ بقاء على كلثوم بن الهمد، وقيل: بل على سعد بن خيثمة، والأول أثبت، ومكث علي بن أبي طالب بمكة ثلاثاً، حتى أدَّى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، ثم هاجر ماشياً على قدميه، حتى لحقهما بقاء، ونزل على كلثوم بن الهمد^(٣).

وأقام رسول الله ﷺ بقاء أربعة أيام: الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس^(٤). وأسس مسجد بقاء وصلى فيه، وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة، فلما كان اليوم الخامس - يوم الجمعة - ركب بأمر الله له، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار - أخواله - فجاؤوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مائة رجل^(٥).

الدخول في المدينة:

وبعد الجمعة دخل النبي ﷺ المدينة - ومن ذلك اليوم سُميت بلدة يثرب بمدينة الرسول ﷺ، ويعبر عنها بالمدينة مختصراً - وكان يوماً تاريخياً أغر، فقد كانت البيوت والسكك ترتج بأصوات التحميد والتقدیس، وكانت بنات الأنصار تتغنى بهذه الأبيات فرحاً وسروراً^(٦).

(١) صحيح البخاري ٥٥٥/١.

(٢) صحيفة حبقوق (٣:٣).

(٣) زاد المعاد ٥٤/٢. ابن هشام ٤٩٣/١.

(٤) هذا ما رواه ابن إسحاق، انظر ابن هشام ٤٩٤/١، وفي صحيح البخاري أنه أقام بقاء أربعاً وعشرين ليلة (٦١/١) ويضع عشرة ليلة (٥٥٥/١) وأربع عشرة ليلة (٥٦٠/١) وهذا الأخير هو الذي اختاره ابن القيم، وقد صرح هو نفسه أن نزوله بقاء كان يوم الإثنين وخروجه يوم الجمعة (زاد المعاد ٥٤/٢، ٥٥) ومعلوم أن فصل ما بينهما لا يزيد على عشرة أيام سوى يومي الدخول والخروج، ومعهما لا يزيد على اثني عشر يوماً إذا كانا من أسبوعين.

(٥) صحيح البخاري ٥٥٥/١، ٥٦٠، زاد المعاد ٥٥/٢، ابن هشام ٤٩٤/١.

(٦) ذكر ابن القيم أن إنشاد هذه الأشعار كان عند مرجعه ﷺ من تبوك، وهم من يقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة (زاد المعاد ١٠/٣) لكن ابن القيم لم يأت على هذا التوهم بل دليل يشفي، وقد رجح العلامة المنصور فوري أن ذلك كان عند مقدمة المدينة، ودلائله مقنعة انظر رحمة للعالمين ١٠٦/١.

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا الله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

والأنصار وإن لم يكونوا أصحاب ثروات طائلة؛ إلا أن كل واحد منهم كان يتمنى أن ينزل الرسول ﷺ عليه، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، فكان يقول لهم: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة» فلم تنزل سائرة به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم فبركت، ولم ينزل عنها حتى نهضت وسارت قليلاً، ثم التفتت ورجعت فبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار - أخواله - ﷺ. وكان من توفيق الله لها، فإنه أحب أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحله، فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»، وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بزمام راحلته، وكانت عنده^(١).

وفي رواية أنس عند البخاري، قال نبي الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب؟» فقال أبو أيوب: أنا يا رسول الله! هذه داري، وهذا بابي. فانطلق فهيم لنا مقيلاً، قال: «قوما على بركة الله»^(٢).

وبعد أيام وصلت إليه زوجته سودة، وبناته فاطمة وأم كلثوم، وأسامة بن زيد، وأم أيمن، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر ومنهم عائشة، وبقيت زينب عند أبي العاص، لم يمكنها من الخروج حتى هاجرت بعد بدر^(٣).

قالت عائشة: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وعك أبو بكر وبلال، فدخلت عليهما فقلت: يا أبت! كيف تجدك، ويا بلال! كيف تجدك، قالت: فكان أبو بكر إذا أخذه الحمى يقول:

كل امرئ مصبّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا ألقه عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبیتن ليلةً بوادٍ وحولي إذ خر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يَبْدُونُ لي شامةً وطفيل

قالت عائشة: فجنّت رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «اللهم! حبّب إلينا المدينة كحبّنا مكة

(١) ابن هشام ٤٩٤/١-٤٩٦، زاد المعاد ٥٥/٢.

(٢) صحيح البخاري ٥٥٦/١.

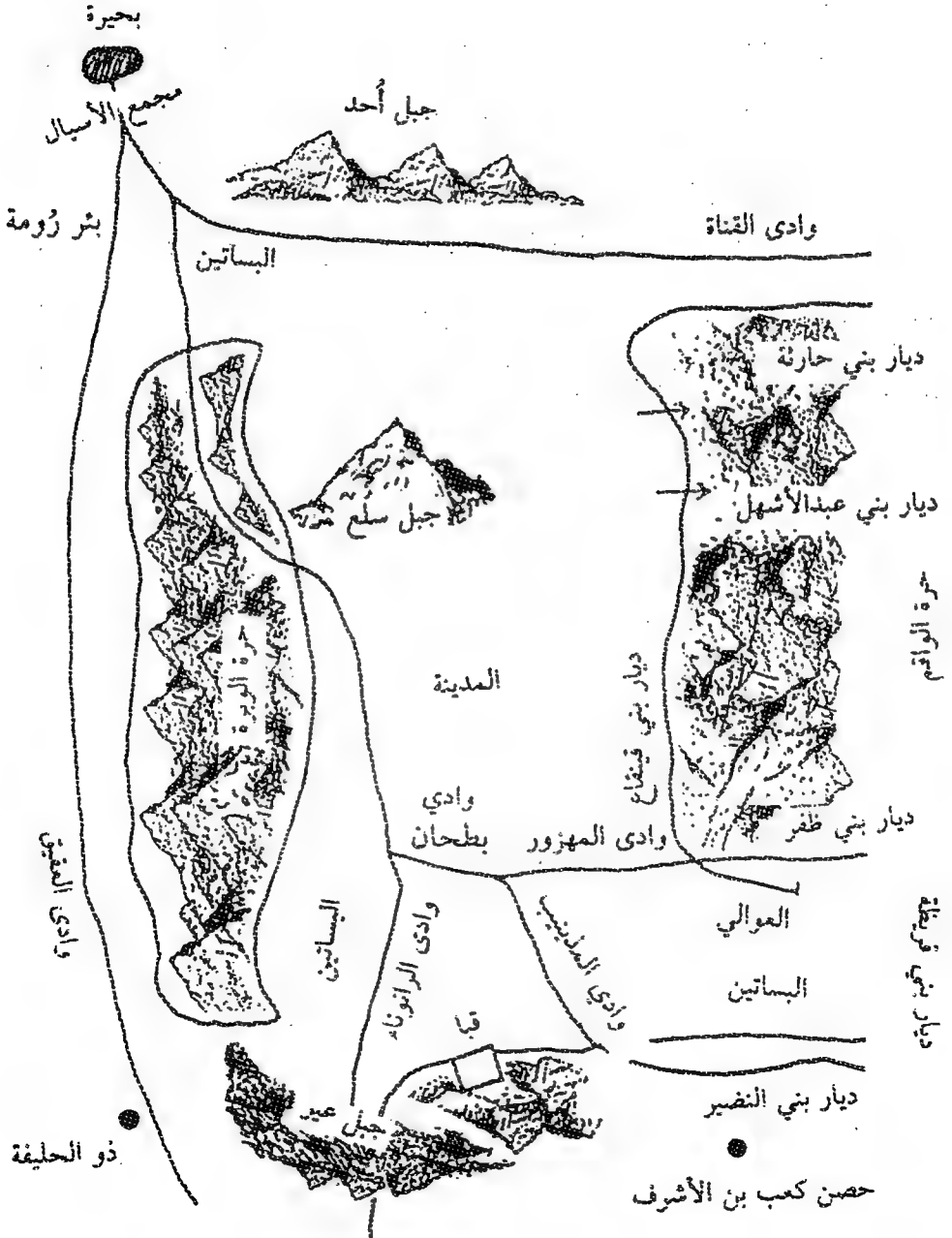
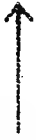
(٣) زاد المعاد ٥٥/٢.

أو أشد حُبًّا، وصححها، وبارك في صاعها ومدّها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة»^(١).
إلى هنا انتهى قسم من حياته ﷺ، وتمّ دور من الدعوة الإسلامية، وهو الدور المكي.

(١) صحيح البخاري ٥٨٨/١، ٥٨٩.

مساكن قبائل يثرب عند الهجرة

شمال



الحياة في المدينة

يمكن تقسيم العهد المدني إلى ثلاث مراحل:

- ١ - مرحلة أُثِيرَتْ فيها القلاقل والفتن، وأُقيمت فيها العراقيل من الداخل، وزحف فيها الأعداء إلى المدينة لاستئصال خضرائها من الخارج، وهذه المرحلة تنتهي إلى صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ من الهجرة.
- ٢ - مرحلة الهدنة مع الزعامة الوثنية، وتنتهي بفتح مكة، في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وهي مرحلة دعوة الملوك إلى الإسلام.
- ٣ - مرحلة دخول الناس في دين الله أفواجًا، وهي مرحلة توافد القبائل والأقوام إلى المدينة، وهذه المرحلة تمتدُّ إلى انتهاء حياة الرسول ﷺ في ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة.

المرحلة الأولى

الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة هو التخلص من الفتنة والتعذيب فحسب، بل كانت الهجرة تعني مع هذا تعاونًا على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن، ولذلك أصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يُسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفعته شأنه.

ولا شك أن رسول الله ﷺ هو الإمام والقائد والهادي في بناء هذا المجتمع، وكانت إليه أزمّة الأمور بلا نزاع.

والأقوام التي كان يواجهها رسول الله ﷺ في المدينة كانت على ثلاثة أصناف، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافًا واضحًا، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منهم مسائل عديدة غير المسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى الأخرى، وهذه الأصناف الثلاثة هي:

- ١ - أصحابه الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم.
- ٢ - المشركون الذين لم يؤمنوا بعد، وهم من صميم قبائل المدينة.
- ٣ - اليهود .

أ - والمسائل التي كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تمامًا عن الظروف التي مروا بها في مكة، فهم في مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة، وكانوا يستهدفون إلى أهداف متفقة، إلا أنهم كانوا متفرقين في بيوتات شتى، مقهورين أذلاء مطرودين، لم يكن لهم من الأمر شيء، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم في الدين، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن يقيموا مجتمعًا إسلاميًا جديدًا بمواده التي لا يستغني عنها أي مجتمع إنساني في العالم، ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية، وعلى التشريعات التي يمكن العمل بها لكل فرد وحده، وعلى الحث على البر والخير ومكارم الأخلاق، والاجتناب عن الرذائل والدنایا.

وأما في المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم، ولم يكن عليهم سيطرة أحد من الناس، فقد آن لهم أن يواجهوا بمسائل الحضارة والعمران، وبمسائل المعيشة والاقتصاد، وبمسائل السياسة والحكومة، وبمسائل السلم والحرب، والتنقيح الكامل في مسائل الحلال والحرام والعبادة والأخلاق وما إلى ذلك من مسائل الحياة.

كان قد آن لهم أن يُكوّنوا مجتمعًا جديدًا، مجتمعًا إسلاميًا، يختلف في جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلي، ويمتاز عن أي مجتمع يوجد في العالم الإنساني، ويكون ممثلًا للدعوة الإسلامية التي عانى لها المسلمون ألوانًا من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات.

ولا يخفى أن تكوين أي مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب في يوم واحد، أو شهر واحد، أو سنة واحدة، بل لابد له من زمن طويل، يتكامل فيه التشريع والتقنين مع التثقيف والتدريب والتربية تدريجيًا، وكان الله كافيًا بهذا التشريع، وكان رسول الله ﷺ قائمًا بتنفيذه، والإرشاد إليه، وتربية المسلمين وفقهه ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وكان الصحابة رضي الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم، يتحلّون بأحكامه ويستبشرون بها ﴿وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢] وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا فنقتصر منها على قدر الحاجة.

كان هذا أعظم ما يواجهه رسول الله ﷺ بالنسبة إلى المسلمين، وهذا الذي كان هو المقصود - على نطاق واسع - من الدعوة الإسلامية، والرسالة المحمدية، ولكن لم يكن هذا قضية طارئة. نعم كانت هناك مسائل - دون ذلك - كانت تقتضي الاستعجال.

كانت جماعة المسلمين مشتملة على قسمين: قسم هم في أرضهم وديارهم وأموالهم، لا يهتمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن في سربه، وهم الأنصار، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أميد بعيد. وكان بجانب هؤلاء قسم آخر - وهم المهاجرون - فاتهم كل ذلك، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة، ليس لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يعملونه لمعيشتهم، ولا مال يبلغون به قوامًا من العيش، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل، وكانوا يزدون يومًا فيومًا، فقد كان أذنٌ بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله، ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة، فتزعزع ميزانها الاقتصادي، وفي هذه الساعه الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية، قلت لأجلها المستوردات، وتفاقمت الظروف.

ب - أما القوم الثاني - وهم المشركون من صميم قبائل المدينة - فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين، وكان منهم من يتخالجه الشكوك، ويتردد في ترك دين الآباء، ولكن لم يكن يطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله.

وكان فيهم من يطن شديد الإحـن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم، بل كان مضطرًا إلى إظهار الودّ والصفاء نظرًا إلى الظروف، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبي، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بُعاث،

ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله، وكانوا قد نظّموا له الخرز، ليتجوه ويملكوه، وكان على وشك أن يصير ملكًا على أهل المدينة إذ باغت مجيء رسول الله ﷺ، وانصراف قومه عنه إليه، فكان يرى أنه استلبه ملكًا، فكان يطن شديد العداوة ضده - ولما رأى الظروف لا تساعد على شركه، وأنه يحرم الفوائد الدنيوية أظهر الإسلام بعد بدر، ولكن بقي مستبطنًا للكفر، وكان لا يجد مجالًا للمكيدة برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأتي بها - وكان أصحابه - من الرؤساء الذين حرّموا المناصب المرجوة في ملكه - يساهمون ويدعمونه في تنفيذ خطته، وربما كانوا يتخذون بعض الأحداث، والسدجة من المسلمين عملاء لهم؛ لتنفيذ خططهم.

ج - أما القوم الثالث - وهم اليهود - فقد كانوا انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الآشوري والروماني كما أسلفنا، وكانوا في الحقيقة عبرانيين، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز صبغوا بالصبغة العربية في الزي واللغة والحضارة، حتى صارت أسماء قبائلهم أو أفرادهم عربية، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر، إلا أنهم تحفظوا بعصيتهم الجنسية، ولم يندمجوا في العرب قطعًا، بل كانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرون العرب احتقارًا بالغًا حتى كانوا يسمونهم أميين بمعنى أنهم وحوش سذج، وأراذل متأخرون، وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم، يأكلونها كيف شاؤوا ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥] ولم يكن لهم تحمس في نشر دينهم وإنما جُلُّ بضاعتهم الدينية هي: الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية.

وكانوا مهرة في فنون الكسب والمعيشة، فكانت في أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب، كانوا يوردون الثياب والحبوب والخمر، ويصدرون التمر، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافًا مضاعفة، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك، بل كانوا أكاالين للربا، كانوا يقرضون شيوخ العرب وساداتهم، ليكتسب هؤلاء الرؤساء مدائح من الشعراء، وسمعة بين الناس بعد إنفاقها من غير جدوى ولا طائلة، ثم كانوا يرتهنون أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم، ثم لا يلبثون إلا أعوامًا حتى يتملكونها.

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد، يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل، فلا تزال في حروب دامية متواصلة، ولا تزال أنامل اليهود توجّج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء، واليهود بعد هذا التحريض والإغراء كانوا يقعدون على جانب، يرون ساكتين ما يحل بهؤلاء العرب، نعم كانوا يزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب

لعسر النفقة، وبهذا العمل كانوا يحصلون على منفعتين، كانوا يحتفظون على كيانهم اليهودي، وينفقون سوق الربا؛ ليأكلوه أضعافاً مضاعفة، ويكسبوا ثروات طائلة.

وكانت في يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة:

(١) بنو قينقاع، كانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة.

(٢) بنو النضير .

(٣) بنو قريظة ، وهاتان القبيلتان كانتا حلفاء الأوس، وكانت ديارهما بضواحي المدينة.

وهذه القبائل هي التي كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد، وقد ساهمت بأنفسها في حرب بُعَاث، كل مع حلفائها.

وطبعاً فإن اليهود لم يكن يُرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد، فالرسول لم يكن من جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التي كانت متغلبة على نفسياتهم وعقليتهم، ثم دعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب، وتطفئ نار العداوة والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة في الشؤون، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستألف فيما بينها، وحينئذ لا بد من أن تقلت من برائن اليهود، فيفشل نشاطهم التجاري، ويحرموا أموال الربا الذي كانت تدور عليه ربحى ثروتهم، بل ربما يحتمل أن تنقِط تلك القبائل، فتدخل في حسابها الأموال الربوية التي أخذها اليهود، فتقوم بإرجاع أرضها وحوادثها التي أضاعتها إلى اليهود في تأدية الربا.

كان اليهود يُدْخِلُونَ كل ذلك في حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يثرب، ولذلك كانوا يبتغون أشد العداوة ضد الإسلام، وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين.

ويظهر ذلك جلياً بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها. قال ابن إسحاق: حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي؛ حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر ابن أخطب، ومغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالمين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع: فوالله! ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغمّ. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي، حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بقيت^(١).

ويشهد بذلك أيضًا ما رواه البخاري في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه، فقد كان حبرًا من فطاحل علماء اليهود، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة في بني النجار جاءه مستعجلًا، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه، ثم قال له: إن اليهود قوم بهت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود، ودخل عبد الله بن سلام البيت، فقال رسول الله ﷺ: «أي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟» قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا (وفي لفظ: سيدنا وابن سيدنا، (وفي لفظ آخر: خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال رسول الله ﷺ: «أفرايتم إن أسلم عبد الله؟» فقالوا: أعاده الله من ذلك (مرتين أو ثلاثًا)، فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، ووقعوا فيه. (وفي لفظ) فقال: يا معشر اليهود! اتقوا الله، فوالله! الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق. فقالوا: كذبت^(١).

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود، في أول يوم دخل فيه المدينة.

هذا كله من حيث الداخلية، وأما من حيث الخارجية؛ فإن ألدَّ قوة ضد الإسلام هي قریش، كانت قد جربت منذ عشرة أعوام - حينما كان المسلمون تحت يديها - كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة وسياسة التجويع والمقاطعة، وأذاقتهم التنكيلات والويلات، وشنت عليهم حربًا نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة، ثم لما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم، بل حبست وعذبت من قدرت عليه، ثم لم تقتصر على هذا، بل تأمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ والقضاء عليه، وعلى دعوته، ولم تأل جهدًا في تنفيذ هذه المؤامرة. وبعد هذا كله - لما نجا المسلمون إلى أرض تبعد عنها خمسمائة كيلو مترًا - قامت بدورها السياسي لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب، بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسدنته، فأغرت غيرها من مشركي الجزيرة ضد أهل المدينة، حتى صارت المدينة في شبه مقاطعة شديدة، قلت مستورداتها، في حين كان عدد اللاجئين يزيد يوميًا فيوماً. إن «حالة الحرب» قائمة يقينًا بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة وبين المسلمين في وطنهم الجديد.

كان من حق المسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة، كما صادرت أموالهم، وأن يدالوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها، وأن يقيموا في سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها في سبيل حياة المسلمين، وأن يُكَال هؤلاء الطغاة صاعًا بصاع، حتى لا يجدوا سبيلًا لإبادة المسلمين، واستئصال خضرائهم.

هذه هي القضايا والمشاكل التي كان يواجهها رسول الله ﷺ حين ورد المدينة بصفته رسولاً هادياً وإماماً قائداً .

وقد قام رسول الله ﷺ بمعالجة كل ذلك معالجة حكيمة، فعامل كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال - ولا شك أن الرحمة كانت غالبية على الشدة والعنت - حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله في بضع سنوات، وسيجد القارئ كل ذلك جلياً في الصفحات الآتية:

بناء مجتمع جديد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة في بني النجار كان يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول سنة ١هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ٦٢٢م، وأنه نزل في أرض أمام دار أبي أيوب، وقال: ههنا المنزل إن شاء الله، ثم انتقل إلى بيت أبي أيوب رضي الله عنه.

بناء المسجد النبوي:

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هي إقامة المسجد النبوي، ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد، واشترى من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وساهم في بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول:

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في البناء حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكانت في ذلك المكان قبور المشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غرقد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخرب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت في قبة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادته من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعمده الجذوع، وفرشت أرضه من الرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع.

وبنى بيوتاً إلى جانبه، بيوت الحجر باللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهي حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب^(١).

ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومتمدى تلتقي وتتألف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما

(١) صحيح البخاري ٧١/١، ٥٥٥، ٥٦٠، زاد المعاد ٥٦/٢.

نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات، وبرلماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

وفي أوائل الهجرة شُرِعَ الأذان، النعمة العلوية التي تدوي في الآفاق، كل يوم خمس مرات، والتي ترتج لها أنحاء عالم الوجود. وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بن عبد ربه بهذا الصدد معروفة رواها الترمذي وأبو داود وأحمد وابن خزيمة^(١).

المؤاخاة بين المسلمين:

وكما قام النبي ﷺ ببناء المسجد (مركز التجمع والتألف) قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، وإلى حين وقعت بدر، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥] رد التوارث، دون عقد الأخوة.

وقد قيل إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية... والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار^(٢) أهد.

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبية الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

فقد روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: «مهم؟» قال: تزوجت.

(١) انظر بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني ص ١٥.

(٢) زاد المعاد ٥٦/٢.

قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب^(١).

وروى عن أبي هريرة قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا». فقالوا: فتكفونا المؤنة، ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا^(٢).

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقًا فقد كانت هذه المؤاخاة فذة، وسياسة صائبة حكيمة، وحلًا رائعًا لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون، والتي أشرنا إليها.

ميثاق التحالف الإسلامي:

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها كل ما كان من حزازات الجاهلية، والتزعزعات القبلية، ولم يترك مجالاً لتقاليد الجاهلية، وهاك بنودها ملخصًا:

هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

(١) أنهم أمة واحدة من دون الناس.

(٢) المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

(٣) وأن المؤمنين لا يتركون مفرحًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

(٤) وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة^(٣) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

(٥) وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

(٦) ولا يقتل مؤمنٌ مؤمنًا في كافر.

(٧) ولا ينصُر كافرًا على مؤمن.

(٨) وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم.

(٩) وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

(١) صحيح البخاري. باب إخوان النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ٥٥٣/١. وقيمة نواة الذهب خمسة دراهم.

(٢) صحيح البخاري - باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل إلخ ٣١٢/١.

(٣) الدسع: الدفع كالدرس. والمعنى يدفعه الظلم إلى هذا.

- (١٠) وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.
- (١١) وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.
- (١٢) وأنه لا يجير مشرك مألًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.
- (١٣) وأنه من اعتبط مؤمنًا^(١) قتلًا عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول.
- (١٤) وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.
- (١٥) وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يُؤخذ منه صرف ولا عدل.
- (١٦) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ^(٢).

أثر المعنويات في المجتمع:

بهذه الحكمة، وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد، ولكن كانت هذه الظاهرة أثرًا للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية وتركية النفوس والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب اللود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة.

سأله رجل: أيّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٣).

قال عبد الله بن سلام: لما قدم النبي ﷺ المدينة جئت، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: «يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»^(٤).

وكان يقول: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»^(٥).

ويقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٦).

ويقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٧).

(١) اعتبط مؤمنًا قتلًا: قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله. لسان العرب.

(٢) ابن هشام ٥٠٢/١، ٥٠٣.

(٣) صحيح البخاري ٦/١، ٩.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي. مشكاة المصابيح ١/١٦٨.

(٥) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٢/٤٢٢.

(٦) صحيح البخاري ٦/١.

(٧) صحيح البخاري ٦/١.

ويقول: «المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»^(١).

ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً»^(٢).

ويقول: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»^(٣).

ويقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٤).

ويقول: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٥).

ويقول: «ليس المؤمن بالذي يشيع وجاره جائع إلى جانبه»^(٦).

ويقول: «سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر»^(٧).

وكان يجعل: إمطة الأذى عن الطريق صدقة، ويعدها شعبة من شعب الإيمان^(٨).

وكان يحثهم على الإنفاق، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب، فكان يقول: «الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار»^(٩).

ويقول: «أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري، كساه الله من خضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»^(١٠).

ويقول: «اتقوا النار ولو بشق تمرّة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة»^(١١).

وبجانب هذا كله يحثُّ حثّاً شديداً على الاستعفاف عن المسألة، ويذكر فضائل الصبر

(١) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢.

(٢) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢، صحيح البخاري ٨٩٠/٢.

(٣) صحيح البخاري ٨٩٦/٢.

(٤) متفق عليه مشكاة المصابيح ٤٢٢/٢.

(٥) سنن أبي داود ٢٣٥/٢، جامع الترمذي ١٤/٢.

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مشكاة المصابيح ٤٢٤/٢.

(٧) صحيح البخاري ٨٩٣/٢.

(٨) والحدّث في ذلك مروى في الصحيحين، انظر مشكاة المصابيح ١٢/١، ١٦٧.

(٩) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، مشكاة المصابيح ١٤/١.

(١٠) سنن أبي داود، وجامع الترمذي، مشكاة المصابيح ١٦٩/١.

(١١) صحيح البخاري ١٩٠/١، ٨٩٠/٢.

والقناعة، كان يعدُّ المسألة كدوحًا أو خدوشًا أو خموشًا في وجه السائل^(١). اللهم! إلا إذا كان مضطراً، كما كان يحدث لهم بما في العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله وكان يربطهم بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً يقرؤه عليهم، ويقرؤونه، لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة، وتبعات الرسالة، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر.

وهكذا رفع معنوياتهم ومواهبهم، وزوّدهم بأعلى القيم والأقدار والمثل، حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان مستتاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(٢).

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، بما جعلته تهوي إليه الأفئدة، وتغاني عليه النفوس، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته - رضي الله عنهم - إلى امتثالها، وما يأتي برشد وتوجيه إلا ويتسابقون إلى التحلي به.

بمثل هذا استطاع النبي ﷺ أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً، أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلاً تنفس له الإنسانية الصعداء، بعد أن كانت تعبت في غياهب الزمان ودياجير الظلمات.

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد، الذي واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها، وحوّل مجرى التاريخ والأيام.

(١) انظر في ذلك أبا داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي، مشكاة المصابيح ١/١٦٣.

(٢) رواه رزين، مشكاة المصابيح ١/٣٢.

معاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى النبي ﷺ قواعد المجتمع الإسلامي الجديد، بإقامة الوحدة العقائدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك هو توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة في وفاق واحد، فسنَّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز التي لم تعهد في ذلك العالم المليء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبتغون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهرها أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية في الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلي أهم بنود هذه المعاهدة:

بنود المعاهدة:

- (١) إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، كذلك لغير بني عوف من اليهود.
- (٢) وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.
- (٣) وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.
- (٤) وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.
- (٥) وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.
- (٦) وإن النصر للمظلوم.
- (٧) وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- (٨) وإن يثرب حرام جوفها لأجل هذه الصحيفة.
- (٩) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.
- (١٠) وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.
- (١١) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب... على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

(١٢) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم^(١).

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطات الغالب فيها للمسلمين، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى في المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب الظروف، وسيأتي ذكر شيء منها.

(١) انظر ابن هشام ٥٠٣/١، ٥٠٤.

الكفاح الدامي

استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي:

قد أسلفنا ما كان يأتي به كفار مكة من التنكيلات والويلات ضد المسلمين في مكة، وما فعلوا بهم عند الهجرة، مما استحقّوا لأجلها المصادرة والقتال، إلا أنهم لم يكونوا ليفيقوا من غيهم، ويمتنعوا عن عدوانهم، بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمّنًا ومقرًا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول، وكان إذ ذاك مشرّكًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم في كلمات باثة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنّه أو لتخرجنّه، أو لنسيرنّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم^(١).

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبي ليمثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبي ﷺ، لما يراه أنه استلبه ملكه - يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا^(٢).

امتنع عبد الله بن أبي ابن سلول عن إرادة القتال عند ذاك؛ لما رأى خورًا أو رشدًا في أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا ويتنزهها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود؛ ليعينه على ذلك، ولكن تلك هي حكمة النبي ﷺ التي كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين^(٣).

إعلان عزيمة الصّدّ عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوة لعلّي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما

(١) أبو داود باب خبر النضير ١٥٤/٢.

(٢) المصدر نفسه ١٥٤/٢.

(٣) انظر في هذا الصدد صحيح البخاري ٦٥٥/٢، ٦٥٦، ٩١٦، ٩٢٤.

أبو جهل فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة أمناً وقد آوَيْتُم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلِكَ سالماً، فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله! لئن منعني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه، طريقك على أهل المدينة^(١).

قريش تُهدِّد المهاجرين:

وكان قريشاً كانت تعترم على أشد من هذا، وتفكر في القيام بنفسها للقضاء على المسلمين، وبخاصة على النبي ﷺ.

ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، فقد تأكَّد عند رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهراً، أو في حرس من الصحابة، فقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» قالت فينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟» فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام^(٢).

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالي بل كان ذلك أمراً مستمراً، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُحرسُ ليلاً، حتى نزل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «يا أيها الناس! انصرفوا عني فقد عصمني الله عز وجل»^(٣).

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ، بل على المسلمين كافة، فقد روى أبي بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه.

الإذن بالقتال:

في هذه الظروف الخطيرة التي كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، والتي كانت تنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم، ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين، ولم يفرضه عليهم قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي ٥٦٣/٢.

(٢) مسلم باب فضل سعد بن أبي وقاص ٢٨٠/٢ واللفظ له، وصحيح البخاري - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤٠٤/١.

(٣) جامع الترمذي أبواب التفسير ١٣٠/٢.

وأُنزل معه الآيات بَيِّن لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل، وإقامة شعائر الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُم فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

والصحيح الذي لا مندوحة عنه أن هذا الإذن إنما نزل بالمدينة بعد الهجرة، لا بمكة، ولكن لا يمكن لنا القطع بتحديد ميعاد النزول.

نزل الإذن بالقتال، ولكن كان من الحكمة إزاء هذه الظروف - التي مبعثها الوحيد هو قوة قريش وتمرداها - أن يسيط المسلمون سيطرتهم على طريق قريش التجارية المؤدية من مكة إلى الشام، واختار رسول الله ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد عقد ﷺ معاهدة مع جهينة قبل الأخذ في النشاط العسكري، وكانت مساكنهم على ثلاثة مراحل من المدينة، وقد عقد معاهدات أخرى أثناء دورياته العسكرية وسيأتي ذكرها.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخر إلى هذا الطريق.

الغزوات والسرايا قبل بدر^(١):

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ في المسلمين النشاط العسكري فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال، وقاموا بحركات عسكرية هي أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها هو ما أشرنا إليه من الاستكشاف والتعرُّف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وعقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق، وإشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاريين حولها بأن المسلمين أقوياء، وأنهم تخلَّصوا من ضعفهم القديم، وإنذار قريش عقبى طيشها، حتى تفيق عن غيها الذي لا تزال تتوغل في أعماقه، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معاشها فتجئ إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن الصَّدَّ عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من بقايا المؤمنين في مكة، حتى يصير المسلمون أحراراً في إبلاغ رسالة الله وفي العمل بدينه في ربوع الجزيرة.

وفيما يلي أحوال هذه السرايا بالإيجاز:

١ - سرية سيف البحر، في رمضان سنة ١ هـ. الموافق سنة ٦٢٣ م. أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، يعترض عيراً

(١) سَمَّى المؤرخون ما خرج فيه النبي ﷺ بنفسه غزوة، حارب فيها أم لم يحارب وما خرج فيه أحد قاداته سرية.

لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص^(١). فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء، حتى حجز بينهم، فلم يقتلوا. وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيض، وكان حامله أبا مرثد كَنَاز ابن حصين الغنوي.

٢ - سرية رابع، في شوال سنة ١ من الهجرة - أبريل سنة ٦٢٣م، بعث رسول الله ﷺ عبدة ابن الحارث بن المطلب في ستين راكباً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابع، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

وفي هذه السرية انضمَّ رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهراني، وعتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين، خرجا مع الكفار؛ ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين، وكان لواء عبدة أبيض، وحامله مسطح بن أثانة بن المطلب بن عبد مناف.

٣ - سرية الخَرَّار^(٢). في ذي القعدة سنة ١هـ الموافق مايو سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً، يعترضون عيراً لقريش، وعهد إليه أن لا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار ويسرون بالليل حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض، وحمله المقداد بن عمرو.

٤ - غزوة الأبواء أو ودَّان^(٣) - في صفر سنة ٢هـ الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ بنفسه، بعد أن استخلف على المدينة سعد بن عبادة، في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة، يعترض عيراً لقريش حتى بلغ ودَّان، فلم يلتق كيداً.

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشي الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، وهاك نص المعاهدة:

هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني ضمرة، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بل بحر صوفة، وإن النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه^(٤).

(١) العيص - بالكسر - مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

(٢) الخرار - بالفتح فالتشديد - بالقرب من الجحفة.

(٣) ودان - بالفتح فالتشديد - موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين رابع مما يلي المدينة تسعة وعشرون ميلاً، والأبواء موضع بالقرب من ودَّان.

(٤) انظر المواهب اللدنية ٧٥/١ وشرحه للزرقاني.

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيض، وحامله حمزة بن عبد المطلب.

٥ - غزوة بواط: في شهر ربيع الأول سنة ٢هـ سبتمبر سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطاً من ناحية رضوى^(١) ولم يلق كيداً. واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

٦ - غزوة سفوان: في شهر ربيع الأول سنة ٢هـ سبتمبر سنة ٦٢٣م أغار كرز بن جابر الفهري في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي، فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تُسمى بغزوة بدر الأولى.

واستخلف في هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، وكان اللواء أبيض، وحامله علي ابن أبي طالب.

٧ - غزوة ذي العشيرة: في جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢هـ الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال: في مائتين، من المهاجرين، ولم يُكرِه أحدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيراً يعتقبونها، يعترضون عيراً لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة فيها أموال لقريش، فبلغ ذا العشيرة^(٢)، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى.

وكان خروجه ﷺ في أواخر جمادى الأولى، ورجوعه في أوائل جمادى الآخرة على ما قاله ابن إسحاق، ولعلّ هذا هو سبب اختلاف أهل السير في تعيين شهر هذه الغزوة.

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة.

واستخلف على المدينة في هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكان اللواء في هذه الغزوة أبيض، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

٨ - سرية نخلة: في رجب سنة ٢هـ الموافق يناير سنة ٦٢٤م، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن

(١) بواط (بالضم) ورضوى، جبلان فرعان أصلهما من جبال جهينة: مما يلي طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو أربعة برد.

(٢) العشيرة - مصغراً، ويقال: العشيرة بالمد، وقيل: العسيرة بالمهمله - موضع بناحية ينبع.

جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، كل اثنين يعتقان على بعير.

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه. فسار عبد الله، ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها غير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم» فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحبَّ الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان في أثناء الطريق أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتقانه، فتخلفا في طلبه.

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة، فشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب، الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم، وأفلت نوفل، ثم قدموا بالبعير - والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان في الإسلام، وأول قتل في الإسلام، وأول أسيرين في الإسلام.

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» ووقف التصرف في العير والأسيرين.

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهم المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر في ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحي حاسماً هذه الأقاويل، وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْهَرَمِ فَقَالَ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبني على وقاحة ودعارة.

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وأدى دية المقتول إلى أوليائه^(١).

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٨٣/٢، ٨٤، ٨٥، وابن هشام ٥٦١/١ إلى ٦٠٥، وفي المصادر اختلاف في ترتيب هذه الغزوات والسرايا، وفي تعيين عدد الخارجين فيها - واعتمدنا في ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم.

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر، لم يجر في واحدة منها سلب الأموال وقتل الرجال، إلا بعد ما ارتكبه المشركون في قيادة كرز بن جابر الفهري، فالبداية إنما هي من المشركين مع ما كانوا قد أوتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

وبعد وقوع ما وقع في سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين، وتجسّد أمامهم الخطر الحقيقي، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة في غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريباً، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم ويأخذوا طريق الصلاح والمودعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقداً وغيظاً، وصمّم صناديدهم وكبرائهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل، من إبادة المسلمين في عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذي جاء بهم إلى بدر.

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش، في شهر شعبان سنة ٢هـ، وأنزل في ذلك آيات بينات: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَضْتُمُوهُمْ وَأَخْرُجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالَّذِينَ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣].

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يُعلّمهم فيها طريقة القتال، ويحثهم عليه، ويبين لهم بعض أحكامه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخَسَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۝ سَيَجْزِيهِمْ وَصْلُكَ بِالْهَمِّ ۝ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ۝ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ بِضَرْبِكُمْ وَيَلْبَسَ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١) [محمد: ٤-٧].

ثم ذمّ الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَنَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وإيجاب القتال والحضّ عليه، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسير أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالربّ العليم المتعال، فالظروف كانت تقتضي عِراكاً دامياً بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية

(١) حقق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي تحقيقاً مدلولاً أن سورة محمد نزلت قبل بدر، راجع تفهيم القرآن ١١/٥، ١٢.

عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، أمتهم، وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامي، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائياً، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب في الأسارى، والإثخان في الأرض، حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائياً، ولكن ترك كل ذلك مستوراً؛ حتى يأتي كل رجل بما فيه من التحمس في سبيل الله.

وفي هذه الأيام - في شعبان ٢٢هـ فبراير ٦٢٤م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبله انكشفوا عن المسلمين، ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهّرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

وهل تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد، لا ينتهي إلا بعد احتلال المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فلا بد من تخليصها يوماً ما إن كانوا على الحق.

وبهذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتدَّت شوقهم إلى الجهاد في سبيل الله ولقاء العدو في معركة فاصلة.

غزوة بدر الكبرى أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

قد أسلفنا في ذكر غزوة العشيرة أن عيرًا لقريش أفلتت من النبي ﷺ في ذهابها من مكة إلى الشام، ولما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال، ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلتا إلى الحوراء، ومكثتا حتى مر بهما أبو سفيان بالعين، فأسرعا إلى المدينة، وأخبرا رسول الله ﷺ بالخبر - يقال - وكان في طريقه إلى بدر.

كانت العير تحمل ثروات طائلة من أهل مكة، ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلًا.

إنها فرصة ذهبية للمسلمين ليصيبوا أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة لذلك أعلن رسول الله ﷺ في المسلمين قائلًا: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها».

ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة - بدل العير - هذا الاصطدام العنيف في بدر، ولذلك تخلف كثير من الصحابة في المدينة، وهم يحسبون أن مضي رسول الله ﷺ في هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه في السرايا الماضية، ولذلك لم يُنكرْ على أحد تخلفه في هذه الغزوة.

مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات:

واستعدَّ رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا (٣١٣)، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلًا)، ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين، و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج. ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالًا بليغًا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرس أو فرسان، فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندي، وكان معهم سبعون بعيرًا ليعتقب الرجال والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعليّ ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرًا واحدًا.

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة.

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيض.

وقسم جيشه إلى كتبتين:

١ - كتبة المهاجرين، وأعطى رايتها علي بن أبي طالب. ويقال لها: عقاب.

٢ - كتبة الأنصار، وأعطى رايتها سعد بن معاذ. (وكانت الرايتان سوداوين).

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو - وكانا هما الفارسين الوحيدين في الجيش كما أسلفنا - وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، وظلّت القيادة العامة في يده ﷺ كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر:

سار رسول الله ﷺ في هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسي المؤدي إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء ولما ارتحل منها، ترك طريق مكة على اليسار، وانحرف ذات اليمين على النازية (يريد بدرًا)، فسلك في ناحية منها، حتى جزع^(١) واديًا يقال له: رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم مر على المضيق، ثم انصبّ منه حتى قرب من الصفراء، وهنالك بعث بسبّس بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير.

النذير في مكة:

وأما خبر العير فإن أبا سفيان - وهو المسؤول عنها - كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، ولم يلبث أن قيل له: إن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه ليوقع بالعين أو أبدى له هذا الخطر، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة، مستصرخًا لقريش بالنفير إلى غيرهم، ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه، وخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة، فصرخ ببطن الوادي واقفًا على بعيره، وقد جدع أنفه، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش! اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث... الغوث.

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفر الناس سرعًا، وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلا، والله! ليعلمنّ غير ذلك، فكانوا بين رجلين، إما خارج، وإما باعث مكانه رجلًا، وأوعبوا في

(١) جزع الوادي: قطعه عرضًا.

الخروج، فلم يتخلف من أشrafهم أحد سوى أبي لهب، فإنه عوض عنه رجلًا كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرج منهم أحد.

قوام الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل في بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشraf قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل.

مشكلة قبائل بني بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير، ذكرت قريش ما كان بينها وبين بني بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك يشيهم، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي - سيد بني كنانة - فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه.

جيش مكة يتحرك:

وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله: ﴿بَطْرًا وَرِجَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «بحدهم وحديدهم، يحادون الله ويحادون رسوله»: ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْبٍ قَدِيرٍ﴾ وعلى حمية وغضب وحق على رسول الله ﷺ وأصحابه، لاجترأ هؤلاء على قوافلهم.

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر، وسلخوا في طريقهم وادي عسفان، ثم قديد، ثم الجحفة، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما خرجتم لتحزروا غيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا.

العين تفلت:

وكان من قصة أبي سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسي، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظًا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدَّم عيره، حتى لقي مجدي بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره، إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعاد بعيرهما، ففته، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله! علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعًا، وضرب وجهها محولًا اتجاهها نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع في قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة

التي تلقاها في الجحفة.

هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة همًّا بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل في كبرياء وغطرسة قائلاً: والله! لا نرجع حتى نرد بدرًا، فقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابونا أبدًا.

ولكن على رغم أبي جهل أشار الأخنس بن شريق بالرجوع فعصوه، فرجع هو وبنو زهرة - وكان حليفًا لهم ورئيسًا عليهم في هذا النفير - فلم يشهد بدرًا زهري واحد، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل، واغتبطت بنو زهرة بعد برأي الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا.

وأرادت بنو هاشم الرجوع، فاشتدَّ عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بني زهرة - وهو يقصد بدرًا - فواصل سيره حتى نزل قريبًا من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادي بدر.

تخرج موقف الجيش الإسلامي:

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال في الطريق بوادي ذفران - خبر العير والنفير، وتأكدَّ لديه بعد التدبُّر في تلك الأخبار أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام، وأنه لابد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة، والجرأة، والجراسة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيمًا لمكانة قريش العسكرية، وامتدادًا لسلطانها السياسي، وإضعافًا لكلمة المسلمين وتوهينًا لها، بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدًا لا روح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام في هذه المنطقة.

ثم هل هناك ضمان للمسلمين أن يمتنع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين في عقر دارهم. كلا، فلو حدث من جيش المدينة نكول ما، لكان له أسوأ الأثر على هبة المسلمين وسمعتهم.

المجلس الاستشاري:

ونظرًا إلى هذا التطور الخطير المفاجيء عقد رسول الله ﷺ مجلسًا عسكريًا استشاريًا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأي مع عامة جيشه، وقادته، وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس، وخافوا اللقاء الدامي، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَذِبُونَ ۚ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ

يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦، ٥] وأما قادة الجيش؛ فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: (يا رسول الله! امض لما أراك الله فنحن معك، والله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه).

فقال له رسول الله ﷺ: «خيرًا» ودعا له به.

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين، وهم أقلية في الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار، لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «أشيروا عليّ أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وقَطِنَ إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ، فقال:

والله! لكانك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل».

قال: فقد آمنا بك، فصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله! لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًّا غدًا، إنا لصُبْرٌ في الحرب، صِدْقٌ في اللقاء، ولعلَّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسر بنا على بركة الله.

وفي رواية أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم، فاطعن حيث شئت، وصل جبل من شئت، واقطع جبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله! لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرنَّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فَسَّرَ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله! لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

الجيش الإسلامي يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذفران، فسلك على ثنایا يقال لها: الأصافر، ثم انحطَّ منها إلى بلد يقال له: الدية، وترك الحنان بيمين - وهو كثيب عظيم الأصل - ثم نزل قريبًا من بدر.

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادة في التكتم - ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبراني مما أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك» قال: أو ذاك بذلك؟ قال: «نعم».

قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهو اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش المدينة - وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذي به جيش مكة.

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء» ثم انصرف عنه، وبقي الشيخ يتفوه، ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟.

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفي مساء ذلك اليوم بعث استخباراته من جديد، لبحث عن أخبار العدو، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين؛ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض وجاؤوا بهما إلى الرسول ﷺ، وهو في الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان - لا تزال في نفوسهم بقايا أمل في الاستيلاء على القافلة - فضربوهما موجدًا، حتى اضطرَّ الغلامان أن يقولوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن الصلاة قال لهم - كالعاتب -: «إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله! إنهما لقريش».

ثم خاطب الغلامين قائلاً: «أخبراني عن قريش» قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالوا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف في رجال سميأهم.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها».

نزول المطر:

وأَنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً واحداً، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدُّم، وكان على المسلمين طلاً طهَّرههم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهَّد به المنزل، وربط به على قلوبهم.

الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية:

وتحرَّك رسول الله ﷺ بجيشه، ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر كخبير عسكري وقال: يا رسول الله! رأيت هذا المنزل، أمَّنْزَلاً أنزلَكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم - قريش - فننزله ونغور - أي نخرب - ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي».

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش، حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض، وغوروا ما عداها من القلب.

مقر القيادة:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبني المسلمون مقراً لقيادته، استعداداً للطوارئ، وتقديراً للهزيمة قبل النصر، حيث قال: (يا نبي الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلهقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله! ما نحن بأشدَّ لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك).

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، وبني المسلمون عريشاً على تلٍّ مرتفع يقع في الشمال الشرقي لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة.

كما تمَّ انتخاب فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ، يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته.

تعبئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه^(١)، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله^(٢)، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، ثم بات رسول الله ﷺ يصلي إلى جذع شجرة هنالك، وبات المسلمون ليلهم هادئ الأنفاس منير الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم، يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحاً: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْتُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه في ٨ أو ١٢ من نفس الشهر.

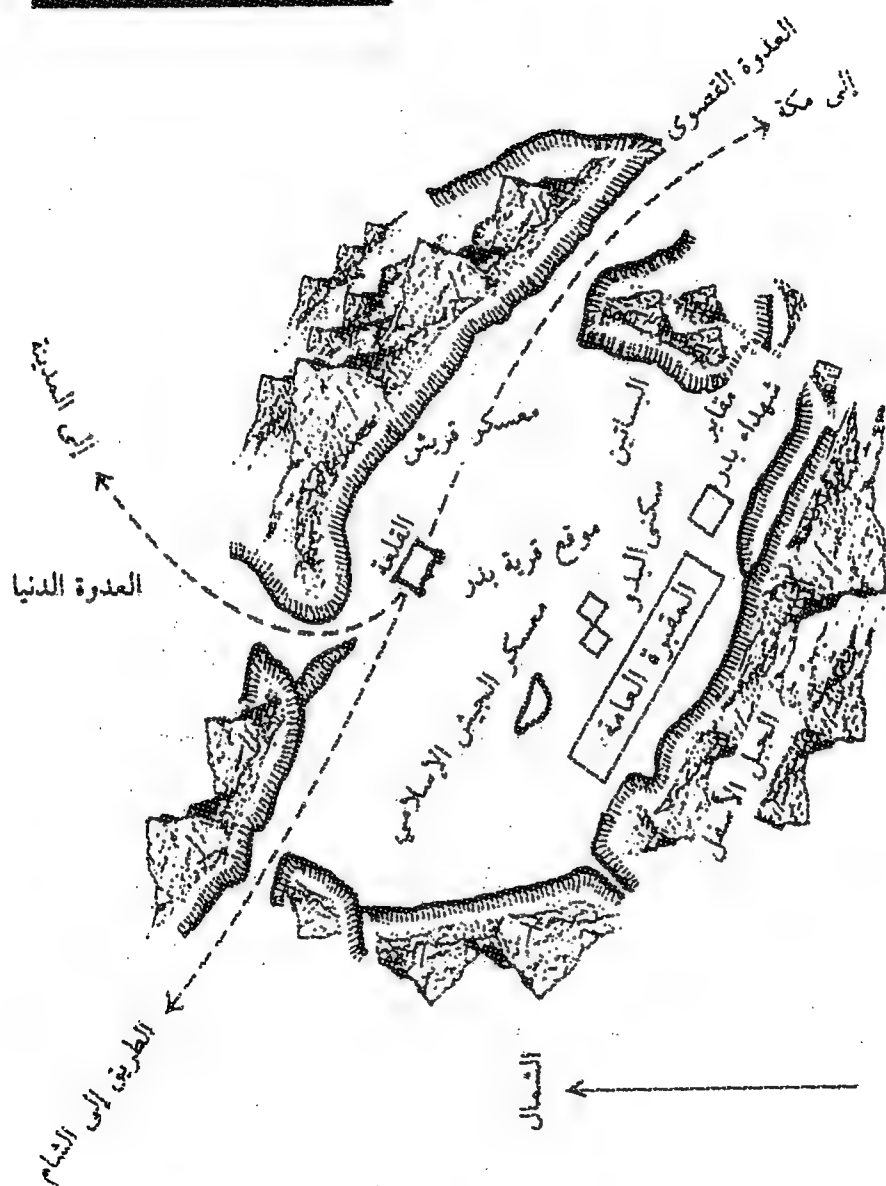
الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش؛ فقضت ليلتها هذه في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ، فقال: دعوهم، فما شرب أحد منهم يؤمئذ إلا قُتل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني من يوم بدر، فلما اطمأنت قريش بعثت عمير بن وهب الجمحي؛ للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر ألقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريش! البلاء يا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله! ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم، فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم.

(١) انظر جامع الترمذي أبواب الجهاد، باب ما جاء في الصف والتعبئة ٢٠١/١.

(٢) رواه مسلم عن أنس، انظر مشكاة المصابيح ٥٤٣/٢.

خريطة غزوة بدر



- (١) الطريق إلى الشام العدوة الدنيا إلى المدينة العدوة القصوى.
- (٢) معسكر فريش القاعة موقع قرية بدر البساتين معسكر الجيش الإسلامي.
- (٣) سكنى البدو مقابر شهداء بدر المقبرة العامة الجبل الأسفل إلى مكة الشمال.

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل - المصمم على المعركة - تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد! إنك كبير قريش، وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي - المقتول في سرية نخلة - فقال عتبة: قد فعلت، أنت ضامن عليّ بذلك، إنما هو حليفي فعليّ عقله وديته وما أصيب من ماله.

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام: فأت ابن الحنظلية - أبا جهل، والحنظلية أمه - فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: يا معشر قريش! إنكم والله! ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله! لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبي جهل - وهو يهيء درعاً له - قال يا أبا الحكم! إن عتبة أرسلني بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله! سحره حين رأى محمداً وأصحابه، كلا والله! لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبه ما قال، ولكنه رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديماً وهاجر - فتخوفكم عليه.

ولما بلغ عتبة قول أبي جهل: «انتفخ والله! سحره»، قال عتبة: سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ وتعجل أبو جهل مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمي - أخي عمرو بن الحضرمي المقتول في سرية عبد الله بن جحش - فقال: هذا حليفك (أي عتبة) يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك، فقام عامر، فكشف عن أسته، وصرخ: واعمره، واعمره فحمي القوم، وحقب أمرهم، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة. وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

الجيشان يتراءان:

ولما طلع المشركون، وتراءى الجمعان قال رسول الله ﷺ: «اللهم! هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم! فنصرك الذي وعدتني،

اللهم! أحنهم الغداة». وقد قال رسول الله ﷺ: - ورأى عتبة بن ربيعة في القوم على جمل له أحمر - «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا».

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان في يده قذح يعدل به، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف، فطعن في بطنه بالقذح وقال: «استو يا سواد»، فقال سواد: يا رسول الله! أوجعتني فأقطني، فكشف عن بطنه، وقال: «استقد»، فاعتنقه سواد وقبّل بطنه، فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال: يا رسول الله! قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ولما تمّ تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بأن لا يبدؤوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص في أمر الحرب فقال: «إذا أكتبوكم - يعني اقتربوا منكم - فارموهم، واستبقوا نبلكم»^(١)، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم»^(٢)، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة، وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل في ذلك اليوم فقال: اللهم! أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، اللهم! أيّنا كان أحبّ إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، وفي ذلك أنزل الله: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فُتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ساعة الصفّر وأول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - خرج قائلاً: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأهدمته، أو لأموئنّ دونه. فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة، فأطن قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

(١) صحيح البخاري ٥٦٨/٢.

(٢) سنن أبي داود في سل السيوف عند اللقاء ١٣/٢.

المبارزة:

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار، عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكفاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا عبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!»، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد^(١)، فأما حمزة وعلي فلم يمهلأ قرنيهما أن قتلاههما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فأثنى كل واحد منهما صاحبه، ثم كرَّ علي وحمزة على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة، وقد قُطعت رجله؛ فلم يزل صمًّا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة.

وكان علي يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اٰخَصَمُوْا فِي رَیِّهِمْ﴾ [الْحَج: ١٩].

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة إلى المشركين، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضبًا، وكرُّوا على المسلمين كُرَّةً رجل واحد. وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتوالية، وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحد أحد.

الرسول ﷺ يناشد ربه:

وأما رسول الله ﷺ؛ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «اللهم! أنجز لي ما وعدتني، اللهم! إني أنشدك عهدك ووعدك». حتى إذا حمى الوطيس، واستدارت رحى الحرب بشدة، واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمته، قال: «اللهم! إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم! إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا». وبالف في الابتهاال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردَّه عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك.

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق، وفي رواية أحمد وأبي داود أن عبيدة بارز الوليد، وعلي بارز شيبة، وحمزة بارز عتبة. مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٣.

وأوحى الله إلى ملائكته: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأوحى إلى رسوله: ﴿أَنِّي مُدْكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] - أي أنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضًا أرسالًا، لا يأتون دفعة واحدة.

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: «أبشر يا أبا بكر! هذا جبريل على ثنياه النقع» (أي الغبار). وفي رواية محمد بن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: «أبشر يا أبا بكر! أتاك نصر الله، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده، على ثنياه النقع».

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش، وهو يثب في الدرع، ويقول: ﴿سَيَرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمr: ٤٥]، ثم أخذ حفنة من الحصباء، فاستقبل بها قريشًا وقال: «شاهت الوجوه»، ورمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفمه من تلك القبضة، وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

الهجوم المضاد:

وحيثئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال: «ثَبِّتُوا»، وحرَّضهم على القتال، قائلاً: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة»، وقال وهو يحضهم على القتال: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»، (وحيثئذ) قال العمير بن الحمام: بخ. بخ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ. بخ؟» قال: لا، والله! يا رسول الله! إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: «فإنك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتِلَ^(١).

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال: يا رسول الله! ما يضحك الرب من عبده! قال: «غمسه يده في العدو حاسراً»، فنزع درعاً كانت عليه، فقفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتِلَ.

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت، وفتّر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم - وقد كان نشاطهم الحربي على شابه - قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق، وزادهم نشاطاً وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب

(١) رواه مسلم ١٣٩/٢، مشكاة المصابيح ٣٣١/٢.

في الدرع، ويقول في جزم وصراحة: ﴿سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾، فقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة، ففي رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها، وقال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيًا فنظر إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»^(١). وقال أبو داود المازني: إني لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: إن هذا والله! ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا على فرس أبلق، وما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله! فقال: «اسكت فقد آتدك الله بملك كريم».

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس - وكان قد جاء في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي كما ذكرنا، ولم يكن فارقه منذ ذلك الوقت - فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فرّ ونكص على عقبيه، وتشبث به الحارث بن هشام - وهو يظنه سراقه - فوكز في صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هاربًا، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقه؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا، لا تفارقنا؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله، والله شديد العقاب، ثم فرّ حتى ألقى نفسه في البحر.

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب في صفوف المشركين، وجعلت تهتدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع المشركين في الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون حتى تمت عليهم الهزيمة.

صمود أبي جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب في صفوفه حاول أن يصمد في وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه، ويقول لهم في شراسة ومكابرة: لا يهزمكم خذلان سراقه إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى! لا نرجع حتى نفرنهم بالحبال، ولا ألفين رجلًا منكم قتل

(١) روى مثل ذلك مسلم ٩٣/٢ وغيره.

منهم رجلاً، ولكن خذوهم أخذًا، حتى نعرفهم بسوء صنيعهم.

ولكن سرعان ما تبدى له حقيقة هذه الغطوسة، فما لبث إلا قليلاً حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم بقي حوله عصابة من المشركين، ضربت حوله سياجاً من السيوف وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذه السياج وأقلعت هذه الغابات، وحيثنظر ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدي غلامين أنصاريين.

مصرع أبي جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن، فكأنني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً - من صاحبه - يا عم! أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي! فما تصنع به؟ قال: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «أيكما قتله؟» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: «هل مسحتما سيفيكما؟» فقالا: لا، فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: «كلاكما قتله»، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ ابن عفراء^(١).

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم - وأبو جهل في مثل الحرجة، والحرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التي كانت حول أبي جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه - أطارتها - بنصف ساقه، فوالله! ما شبهتها حين طاعت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها. قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلما آذنتي وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها^(٢) ثم مرّ بأبي جهل - وهو عقيز - معوذ ابن عفراء، فضربه حتى أثبتته، فتركه وبه

(١) صحيح البخاري ٤٤٤/١، ٥٦٨/٢، مشكاة المصابيح ٣٥٢/٢، وإنما خص بالسلب واحداً منهما لأن الثاني قُتل شهيداً في نفس المعركة.

(٢) بقي معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

رمق، وقاتل معوذ حتى قُتِلَ.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» ففرَّق الناس في طلبه. فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه، وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزأك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه؟ أو هل فوق رجل قتلتموه؟ وقال: فلو غير أكار قتلني، ثم قال: أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه - لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رويحي الغنم! وكان ابن مسعود من رعاة الغنم في مكة.

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتزَّ ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! هذا رأس عدو الله أبي جهل، فقال: «الله الذي لا إله إلا هو؟» فردَّدها ثلاثًا، ثم قال: «الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه»، فانطلقنا فأرَيْتِه إياه، فقال: «هذا فرعون هذه الأمة».

من روائع الإيمان في هذه المعركة:

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عُمير بن الحُمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلَّت في هذه المعركة مناظر رائعة، تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففي هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ، ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره، فشفى منه غيظه.

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخْرِجُوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أُخْرِجَ مستكرهاً» فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله! لئن لقيته لألحمته - أو لألجمته - بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «يا أبا حفص! أ يضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف»، فقال عمر: يا رسول الله! دعني فلاضرب عنقه بالسيف، فوالله! لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة. ففُتِلَ يوم اليمامة شهيداً.

٢ - وكان النهي عن قتل أبي البختری؛ لأنه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغ عنه شيء يكرهه، وكان ممن قام في نقض صحيفة مقاطعة بني هاشم وبني المطلب.

ولكن أبا البختري قُتِلَ رغم هذا كله، وذلك أن المجذر بن زياد البلوي لقيه في المعركة، ومعه زميل له، يقاتلان سوياً، فقال المجذر: يا أبا البختري! إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلي؟ فقال المجذر: لا والله! ما نحن بتاركي زميلك، فقال: والله! إذن لأموتنَّ أنا وهو جميعاً، ثم اقتتلا، فاضطر المجذر إلى قتله.

٣ - كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين في الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه علي بن أمية، آخذاً بيده، ومع عبد الرحمن أذراع قد استلبها، وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك في؟ فأنا خير من هذه الأذراع التي معك، ما رأيت كالיום قط، أما لكم حاجة في اللبن؟ - يريد أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن - فطرح عبد الرحمن الأذراع، وأخذهما يمشي بهما، قال عبد الرحمن: قال لي أمية ابن خلف وأنا بينه وبين ابنه: من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة في صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله! إني لأقودهما إذ رآه بلال معي، وكان أمية هو الذي يُعَذَّبُ بلالاً بمكة، فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا قلت: أي بلال! أسيري قال: لا نجوت إن نجا، قلت: أسمع يا ابن السوداء! قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله! رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة، وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف فضرب رجل ابنه فوق، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله! ما أغني عنك شيئاً. قال فهبروهما بأسيا ففهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أذراعي، وفجعني بأسيري.

وفي صحيح البخاري أن عبد الرحمن بن عوف قال لأمية: ابرك، فبرك، فألقى نفسه عليه، فضر به بالسيف من تحته حتى قتلوه، وأصاب بعض السيف رجل عبد الرحمن بن عوف^(١).

٤ - وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة.

٥ - ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال: أين مالي يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لم يبق غير شكة ويعبوب وصارم يقتل ضلال الشيب^(٢)

٦ - ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله ﷺ في العريش، وسعد بن معاذ قائم

(١) صحيح البخاري: كتاب الوكالة ٣٠٨/١.

(٢) الشكة: السلاح. ويعبوب: الفرس الكثير الجري.

على بابه يحرسه متوشحاً سيفه، رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: والله! لكأنك يا سعد! تكره ما يصنع القوم؟ قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإنخان في القتل بأهل الشرك أحب إلي من استبقاء الرجال.

٧ - وانقطع يومئذ سيف عكاشة بن محصن الأسدي، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: «قاتل بهذا يا عكاشة!»، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن أبيض الحديد، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يُسمَّى العون، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قُتِلَ في حروب الردة وهو عنده.

٨ - وبعد انتهاء المعركة مرَّ مصعب بن عمير العبدري بأخيه أبي عزيز بن عمير، الذي خاض المعركة ضد المسلمين، مر به وأحد الأنصار يشدُّ يده، فقال: مصعب للأنصاري: شد يدك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصايتك بي؟ فقال مصعب: إنه - أي: الأنصاري - أخي دونك.

٩ - ولما أمر بالقاء جيف المشركين في القلب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القلب، نظر رسول الله ﷺ في وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «يا أبا حذيفة! لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء؟» فقال: لا والله! يارسول الله! ما شككت في أبي ولا مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرته ما مات عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً.

قتلى الفريقين:

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة إلى المشركين، ويفتح مبین بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين في هذه المعركة أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قُتِلَ منهم سبعون وأسير سبعون، وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى، فقال: «بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتُموني وصدَّقني الناس، وخذلتُموني ونصرني الناس، وأخرجتُموني وآواني الناس»، ثم أمر بهم، فَسُجِّبُوا إلى قلب من قلب بدر.

وعن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدَّ عليها رحلها، ثم مشى، وأتبعه أصحابه حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان! يا فلان ابن فلان! أيسركم أنكم أطعمتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر: يا رسول الله! ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»، وفي رواية: «ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون»^(١).

مكة تتلقى أنباء الهزيمة:

فرَّ المشركون من ساحة بدر في صورة غير منظمة، تبعثروا في الوديان والشعاب، وأنجسوها صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلاً.

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قريش الحِشْمَان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام، وأميرة بن خلف في رجال من الزعماء سَمَّاهم، فلما أخذ يعدُّ أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو قاعد في الحجر: والله! إن يعقل هذا، فاسألوه عني، قالوا: ما فعل صفوان بن أمية قال: هاهو ذا جالس في الحجر، وقد والله! رأيت أباه وأخاه حين قُتِلَا.

وقال أبو رافع - مولى رسول الله ﷺ -: كنت غلاماً للعباس، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يكتُم إسلامه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً، وكنت رجلاً ضعيفاً أعمل الأقداح، أنحتها في حجرة زمزم، فوالله! إني لجالس فيها أنحت أقداحي، وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجله بشرّاً، حتى جلس على طنب الحجر^(٢)، فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هَلُمَّ إلي، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه، والناس قيام عليه. فقال: يا ابن أخي! أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا، وإيم الله! مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجال بيض على خيل بلق

(١) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٣٤٥/٢.

(٢) طنب الحجر: طرفها.

بين السماء والأرض، والله! ما تُثَلِّقُ^(١) شيئًا، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدي، ثم قلت: تلك والله! الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فتاورته، فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك علي يضربني، وكنت رجلًا ضعيفًا، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة، فأخذته، فضربت به ضربة فعلت في رأسه شجة منكبة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام مؤليًا ذليلاً، فوالله! ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته (وهي قرحة تتشام بها العرب، فتركه بنوه، وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود في حفرة، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه).

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة في ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًا، حتى منعوا النياحة على القتلى، لئلا يشمت بهم المسلمون.

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكي عليهم، وكان ضريب البصر، فسمع ليلاً صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: انظر هل أحلَّ النحب؟ هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة - ابنه - فإن جوفي قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أبكي أن يضل لها بعير	ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكي على بكر ولكن	على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص	ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت على عقيل	وبكي حارثًا أسد الأسود
وبكيهم، ولا تسمي جميعًا	وما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجال	ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة، ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا في المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى أنهم أشاعوا خبر مقتل النبي ﷺ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبًا القصواء - ناقة رسول الله

(١) لا تبقي شيئًا.

ﷺ - قال: لقد قُتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرعب، وجاء فلا^(١).

فلما بلغ الرسول أن أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فعمّت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلاً وتكبيراً، وتقدم رؤوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر؛ ليهتئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين.

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفني عليها مع عثمان.

الاختلاف على الغنائم:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرُدَّ الجميع ما بأيديهم، ففعلوا، ثم نزل الوحي بحل هذه المشكلة.

عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبي ﷺ، فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يطاردون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَقْضُوا لِلَّهِ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١] فقسّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين^(٢).

الجيش النبوي يتحرك إلى المدينة:

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذي أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب، فلما خرج من مضيق الصفراء نزل على كتيب بين المضيق وبين النازية، وقسّم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء، بعد أن أخذ منها الخمس.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمي قريش، ومن أشدّ الناس كيدًا للإسلام، وإيذاءً لرسول الله

(١) فلا: منهزمًا.

(٢) أخرجه أحمد ٥/٢٢٣، ٢٢٤، والحاكم ٢/٣٢٦.

ﷺ - فضرب عنقه علي بن أبي طالب.

ولما وصل إلى عرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ، فهو الذي كان ألقى سلا جزور على رأس رسول الله ﷺ وهو في الصلاة، وهو الذي خنقه بردائه، وكاد يقتله لولا أن يعترض أبو بكر رضي الله عنه، فلما أمر بقتله قال: من للصبيّة يا محمد؟ قال: «النار»^(١). قتله عاصم بن ثابت الأنصاري، ويقال: علي بن أبي طالب.

وكان قتل هذين الطاغيتين واجباً من حيث وجهة الحرب، فلم يكونا من الأسارى فحسب، بل كانا من مجرمي الحرب بالاصطلاح الحديث.

وفود التهنة:

ولما وصل إلى الروحاء لقيه رؤوس المسلمين - الذين كانوا قد خرجوا للتهنة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهتفون بالفتح. وحينئذ قال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهتفوننا به؟ فوالله! إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن، فتبسّم رسول الله ﷺ، ثم قال: «يا ابن أخي! أولئك الملاء».

وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله! الحمد لله الذي أظفرك، وأقرّ عينك، والله! يا رسول الله! ما كان تخلفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوّاً، ولكن ظننت أنها غير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «صدقت».

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرًا منصورًا، قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أبي وأصحابه في الإسلام ظاهراً.

وقدّم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسّمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيراً، فكان الصحابة يأكلون التمر، ويُقدّمون لأسرائهم الخبز عملاً بوصية رسول الله ﷺ.

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه في الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضداً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت: والله! ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكّني من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكّن علياً من عقيل

(١) روى ذلك أصحاب الصحاح، انظر سنن أبي داود مع حاشيته عون المعبود ١٢/٣.

ابن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم أعداء الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر، وهما يبيكان، فقلت يا رسول الله! أخبرني ماذا يبيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «للذي عرض علي أصحابك: من أخذهم الفداء، فقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» - شجرة قريية - (١).

وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَذَ فِي الْأَرْضِ ثُرِيدُوتٌ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

والكتاب الذي سبق من الله قيل: هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَتَّأ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ [محمد: ٤] ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى ولذلك لم يُعَذِّبُوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يشخنوا في الأرض وقيل: بل الآية نزلت فيما بعد، والكتاب الذي سبق من الله هو ما كان في علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر.

وحيث إن الأمر كان قد استقرّ على رأي الصديق فأخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم، إلى ثلاثة آلاف درهم، إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء.

ومن رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى، فأطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاع، وأبو عزة الجمحي، وهو الذي قتله أسراً في أحد، وسيأتي.

ومن على ختنه أبي العاص بشرط أن يُخَلِّي سبيل زينب، وكانت قد بعثت في فدائه بمال، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يُخَلِّي سبيل زينب، فخلّاها، فهاجرت، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار، فقال: كونا بيطن يأجج حتى تمر بكما زينب فتصحباهما، فخرجا حتى رجعا بها، وقصة هجرتها طويلة مؤلمة.

وكان في الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيباً مصقّعاً، فقال عمر: يا رسول الله! انزع ثنيتي سهيل بن عمرو يدلع لسانه، فلا يقوم خطيباً عليك في موطن أبداً، بيد أن رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب، احترازاً عن المثلة، وعن بطش الله يوم القيامة.

وخرج سعد بن النعمان معتمراً فحبسه أبو سفيان، وكان ابنه عمرو بن أبي سفيان في الأسرى، فبعثوا به إلى أبي سفيان فخلّى سبيل سعد.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال، وهذه السورة تعليق إلهي - إن صحَّ هذا التعبير - على هذه المعركة، يختلف كثيراً عن التعليقات التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح.

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولاً - إلى التقصيرات والتقاريط الأخلاقية التي كانت قد بقيت فيهم، وصدرت بعضها منهم، ليسعوا في تكميل نفوسهم وتزكيتها عن هذه التقاريط.

ثم ثني بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين. ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم، فتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوه ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام.

ثم بيّن لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة، ودلّهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتح وفي المعارك.

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، ووعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به.

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم، وقنّن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة.

ثم بيّن وشرّع لهم من قوانين الحرب والسلام ما كانت الحاجة تمسُّ إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية في هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويتفوق المسلمون في الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكدّ للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية، بل هو دين يثقف أهله عملياً على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها.

ثم قرّر بنوداً من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

وفي السنة الثانية من الهجرة فرضَ صيام رمضان، وفرضت زكاة الفطر، وبيّنت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى؛ تخفيفاً لكثير من الأوزار التي يعانيتها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين، الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضرباً في

الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون في حياتهم هو العيد الذي وقع في شوال سنة ٢هـ إثر الفتح المبين الذي حصلوا عليه في غزوة بدر، فما أروع هذا العيد السعيد الذي جاء به الله بعد أن تَوَجَّ هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروع منظر تلك الصلاة التي صلُّوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنينًا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم من النعم، وأيدهم به من النصر، وذكَّرتهم بذلك قائلاً: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَنْحَظَّكُمْ النَّاسُ فَنَافَوْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ يُضْرِبُونَ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

النشاط العسكري بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة، أكسبت المسلمين نصرًا حاسمًا شهد له العرب قاطبة، والذين كانوا أشدَّ استياءً لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين مُنوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وهم المشركون، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضربًا قاصمًا على كيانهم الديني والاقتصادي، وهم اليهود فمِنذ أن انتصر المسلمون في معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظًا وحنقًا على المسلمين ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: ٨٢] وكانت في المدينة بطانة للفريقين دخلوا في الإسلام حين لم يبق مجال لعزهم إلا في الإسلام، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظًا من الأوليين.

وكانت هناك فرقة رابعة، وهم البدو الضاربون حول المدينة، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب، فأخذهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا أن تقوم في المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء.

ويتبين بهذا أن الانتصار في بدر كان سببًا لشوكة المسلمين وعزهم وكرامتهم كذلك كان سببًا لحقد جهات متعددة إزاء المسلمين، فأخذ كل فريق الطريقة التي رآها كفيلة ببلوغ غايته. فبينما كانت فرقة من أهل المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام، وتأخذ في طريق المؤامرات والدسائس الخفية، كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة، وتكاشف عن الحقد والغيظ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم وتعلن بأخذ الثأر والنقمة، وتهتم بالتعبئة العامة جهارًا، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها، تقول بأنه:

ولا بد من يوم أغر محجل يطول استماعي بعده للنوادب

وفعلًا، فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت في التاريخ بغزوة أحد، والتي كان لها أثر سيء على سمعة المسلمين وهيبتهم.

غزوة بني سليم بالكدر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبي ﷺ بعد بدر أن بني سليم وبني غطفان تحشد قواتها للغزو على المدينة، فباغت النبي ﷺ في مائتي راكب هذه القبائل المتحشدة في عقر دارها، وبلغ إلى منازلهم في موضع يقال له: الكُدر^(١). ففر بنو سليم وتركوا في الوادي خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلامًا يقال له: «يسار» فأعتقه.

وأقام النبي ﷺ في ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

قيل: كانت هذه الغزوة في شوال سنة ٢هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، وقيل: في نصف المحرم سنة ٣هـ واستخلف في هذه الغزوة على المدينة سباع بن عرفطة. وقيل: ابن أم مكتوم^(٢).

مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين في وقعة بدر أن اشتاطوا غضبًا، وجعلت مكة تغلي كالمرجل ضد النبي ﷺ، حتى تأمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق، ومثار هذا الذل والهوان في زعمهم، وهو النبي ﷺ.

جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في الحجر بعد وقعة بدر بيسير - وكان عمير من شياطين قريش، ممن كان يؤذي النبي ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر، فذكر أصحاب القلب ومصابهم، فقال صفوان: والله! إن في العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله! أما والله! لولا دين عليّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبْلهم علة، ابني أسير في أيديهم. فاغتنمها صفوان وقال: عليّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاکتم عني شأنك وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو في نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم

(١) الكدر، بالضم فالسكون: طير في لونها كدرة، وهو ماء من مياه بني سليم يقع في نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

(٢) زاد المعاد ٩٠/٢، ابن هشام ٤٣/٢، ٤٤.

الله به يوم بدر - فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر، ثم دخل على النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله عليّ، فأقبل عمير فلبيه بحمالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه - قال: «أرسله يا عمر! ادن يا عمير!» فدنا وقال: أنعموا صباحاً، فقال النبي ﷺ: «قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير! بالسلام، تحية أهل الجنة».

ثم قال: «ما جاء بك يا عمير؟» قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.
قال: «فما بال سيف في عنقك؟» قال: قبّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟
قال: «اصدقني ما الذي جئت له؟» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني والله حائل بينك وبين ذلك».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله! نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله! إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: «فقهوا أخاكم في دينه، وأقرؤوه القرآن، وأطلقوا له أسيره».

وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر، وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه، فحلف صفوان أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

ورجع عمير إلى مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام فأسلم على يديه ناس كثير^(١).

غزوة بني قينقاع:

قدمنا بنود المعاهدة التي عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود، وقد كان حريصاً كل الحرص على تنفيذ ما جاء في هذه المعاهدة، وفعلًا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفاً واحداً من نصوصها، ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا في طريق الدّس والمؤامرة والتحريش وإثارة الفلق والاضطراب في صفوف المسلمين. وهاك مثالاً من ذلك:

(١) ابن هشام ١/٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٣.

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق: مرَّ شاس بن قيس - وكان شيخًا (يهوديًا) قد عسا^(١) عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملائ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله! مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعث وما كان من قبله، وأنشدكم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتُم ردناها الآن جذعة - يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين! الله الله، أبدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف بين قلوبكم؟»

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس^(٢).

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والتحريشات في المسلمين، وإقامة العراقيل في سبيل الدعوة الإسلامية، وقد كان لهم خطط شتى في هذا السبيل، كانوا يثبون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشكوك في قلوب الضعفاء، وكانوا يضيِّقون سُبُل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالي، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه، وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبت فليس لك علينا من سبيل^(٣).

(١) عسا الشيخ: كبر.

(٢) ابن هشام ١/٥٥٥، ٥٥٦.

(٣) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه في تفسير سورة آل عمران وغيرها.

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر، على رغم المعاهدة التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حِرْصًا على رشدهم، وعلى بسط الأمن والسلام في المنطقة.

بنو قينقاع ينقضون العهد:

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرًا مؤزَّرًا في ميدان بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة في قلوب الأقباس والأداني، تميزت قدر غيظهم وكشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغي والأذى.

وكان أعظمهم حِقْدًا وأكبرهم شرًّا كعب بن الأشرف - وسيأتي ذكره - كما أن أشر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بني قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة - في حي باسمهم - وكانوا صاغة وحدادين وصُنَّاع الظروف والأواني، ولأجل هذه الحِرَف كانت قد توفَّرت لكل رجل منهم آلات الحروب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

فلما فتح الله للمسلمين في بدر اشتدَّ طغيانهم، وتوسَّعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين، حتى أخذوا يتعرضون لنسائهم.

وعندما تفاقم أمرهم واشتدَّ بغيتهم، جمعهم رسول الله ﷺ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذَّره مغبة البغي والعدوان، ولكنهم ازدادوا في شرِّهم وغطرستهم.

روى أبو داود وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع. فقال: «يا معشر يهود! أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا». قالوا: يا محمد! لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ كُفْرُوكُمْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ إِلِهَادٌ ۚ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّصْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجَ كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْمَيِّتَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِأَوَّلَى الْأَبْصَرِ﴾^(١) [آل عمران: ١٢، ١٣].

كان معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب، ولكن كظم النبي ﷺ غيظه، وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي.

(١) سنن أبي داود مع عون المعبود ٣/١١٥، ابن هشام ١/٥٥٢.

وازداد اليهود - من بني قينقاع - جراءة، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطراباً، وسَعَوْا إلى حتفهم بظلفهم، وسدُّوا على أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن أبي عون أنَّ امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلسَت إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها - وهي غافلة - فلما قامت انكشفت سَوَاتِهَا، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله - وكان يهودياً - فشَدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع^(١).

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عيَّلَ صبر رسول الله ﷺ، فاستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولما رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصروهم أشدَّ الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ، ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذي القعدة، وقذف الله في قلوبهم الرعب - فهو إذا أراد خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه في قلوبهم - فنزّلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبد الله بن أبي ابن سلول بدوره النفاقي، فألحَّ على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم عفواً، فقال: يا محمد! أحسن في موالي - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرر ابن أبي مقاتله، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» وغضب حتى رأوا لوجهه ظلالاً، ثم قال: «ويحك، أرسلني». ولكن المنافق مضى على إصراره، وقال: لا والله! لا أرسلك حتى تحسن في موالي، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله! امرؤ أخشى الدوائر.

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق - الذي لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالمراعاة، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، فأخذ منها ثلاث قسي ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمسنَ غنائمهم، وكان الذي تولَّى جمع الغنائم محمد بن مسلمة^(٢).

(١) ابن هشام ٤٧/٢، ٤٨.

(٢) زاد المعاد ٧١/٢، ٩١، ابن هشام ٤٧/٢، ٤٨، ٤٩.

غزوة السويق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم، كان أبو سفيان يفكر في عمل قليل المغارم ظاهر الأثر، يتعجل به؛ ليحفظ مكانة قومه، ويبرز ما لديهم من قوة، وكان قد نذر أن لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً، فخرج في مائتي راكب ليبر يمينه، حتى نزل بصدر قناة إلى جبل يقال له ثيب، من المدينة على بريد أو نحوه، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهاراً، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة، فإنه دخل في ضواحي المدينة في الليل مستخفياً تحت جناح الظلام، فأتى حيي بن أخطب، فاستفتح بابه، فأبى وخاف فانصرف إلى سلام بن مشكم - سيد بني النضير، وصاحب كنزهم إذ ذاك، فاستأذن عليه فأذن، فقراه وسقاه الخمر، وبطن له من خبر الناس، ثم خرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث مفرزة منهم، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها: «العريض»، فقطعوا وأحرقوا هناك أسواراً من النخل، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فسارع لمطاردة أبي سفيان وأصحابه، ولكنهم فروا ببالغ السرعة، وطرحوا سويقاً كثيراً من أزوادهم وتمويناتهم يتخففون به، فتمكّنوا من الإفلات، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قرقرة الكدر، ثم انصرف راجعاً، وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم، وسمّوا هذه المناوشة بغزوة السويق. وقعت في ذي الحجة سنة ٢هـ بعد بدر بشهرين، واستعمل على المدينة في هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر^(١).

غزوة ذي أمر

وهي أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد، قادها في المحرم سنة ٣هـ. وسببها أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن جمعاً كبيراً من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج في أربعمائة وخمسين مقاتلاً ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان. وفي أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جبار من بني ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلاً لجيش المسلمين إلى أرض العدو.

وتفرّق الأعداء في رؤوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة، أما النبي ﷺ فقد

(١) زاد المعاد ٢/٩٠، ٩١، ابن هشام ٢/٤٤، ٤٥.

قتل كعب بن الأشرف

(١) ابن هشام ٤٦/٢، زاد المعاد ٩١/٢، ويذكرون أن محاولة اغتيال النبي ﷺ من قبل دشور أو غورث المحاربي كانت في هذه الغزوة. والصحيح أنها في غير هذه الغزوة انظر صحيح البخاري ٥٩٣/٢.

وتفيد الروايات في قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد أذى الله ورسوله» فقام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول الله! أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم» قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عانا. قال كعب: والله! لتملنه.

قال محمد بن مسلمة: فإننا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه؟ وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

قال كعب: نعم أرهنوني.

قال ابن مسلمة: أي شيء تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فترهنوني أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا، فيسبُّ أحدهم، فيقال: رهن بوسق أو وسقين. هذا عار علينا، ولكننا نرهنك اللأمة، يعني السلاح.

فواعده أن يأتيه.

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة، فقد جاء كعباً فتناشد معه أطراف الأشعار سوية، ثم قال له: ويحك يا ابن الأشرف! إني قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاکتم عني.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا - ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة - وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن أتيك بهم فتبيعهم وتحسن في ذلك.

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة في هذا الحوار إلى ما قصدا، فإن كعب لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار.

وفي ليلة مقمرة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣هـ - اجتمعت هذه المفزة إلى رسول الله ﷺ، فشيّعهم إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم قائلاً: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم» ثم رجع إلى بيته، وطفق يصلي ويناجي ربه.

وانتهت المفزة إلى حصن كعب بن الأشرف، فهتف به أبو نائلة، فقام لينزل إليهم، فقالت له امرأته - وكان حديث العهد بها: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم.

قال كعب: إنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعِيَ إلى طعنة أجاب، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفح رأسه.

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإني آخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت منه من رأسه فدونكم فاضربوه، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف! أن نتماشى إلى شعب العجوز فتحدث بقية ليلتنا؟ قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فقال أبو نائلة وهو في الطريق: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط، وزهي كعب بما سمع، فقال: عندي أعطر نساء العرب، قال أبو نائلة: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فأدخل يده في رأسه فشمه وأشم أصحابه.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال كعب: نعم، فعاد لمثلها، حتى اطمأنَّ.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال: نعم، فأدخل يده في رأسه، فلما استمكن منه قال: دونكم عدو الله، فاختلفت عليه أسيافهم، لكنها لم تغن شيئاً، فأخذ محمد بن مسلمة مِغْوْلاً فوضعه في ثنته، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته، فوقع عدو الله قتيلاً، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعته من حوله، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران.

ورجعت المفزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذباب بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم، فلما بلغت المفزة حرة العريض، رأت أن الحارث ليس معهم فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم، فاحتملوه، حتى إذا بلغوا بقيع الغرقد كبروا، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم، فعرف أنهم قد قتلوه، فكبر، فلما انتهوا إليه قال: «أفلحت الوجوه» قالوا: ووجهك يا رسول الله! ورموا برأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله، وتفل على جرح الحارث فبرأ، ولم يؤذ بعده^(١).

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتهما كعب بن الأشرف دبَّ الرعب في قلوبهم العنيدة، وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى في استخدام القوة حين يرى أن النصيح لا يُجْدِي نفعاً لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق، فلم يُحَرِّكوا ساكناً لقتل طاغيتهما، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعي إلى جحورها تختبئ فيها.

(١) أخذنا تفاصيل هذه الواقعة من ابن هشام ٥١/٢، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، وصحيح البخاري ١/ ٣٤١، ٤٢٥، ٥٧٧/٢، وسنن أبي داود مع عون المعبود ٤٢/٢، ٤٣، وزاد المعاد ٩١/٢.

وهكذا تفرَّغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التي كان يتوقع حدوثها خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التي كانوا يتوجسونها، ويشمُّون رائحتها بين آونة وأخرى.

غزوة بحران

وهي دورية قتال كبيرة، قُوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها الرسول ﷺ في شهر ربيع الآخر سنة ٣هـ إلى أرض يقال لها: بحران - وهي معدن بالحجاز في ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حرباً^(١).

سرية زيد بن حارثة

وهي آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد، وقعت في جمادى الآخرة سنة ٣هـ.

وتفصيلها أن قريشاً بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف واقترب موسم رحلتها إلى الشام، فأخذها هم آخر.

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذي انتخبته قريش في هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام -: إن محمداً وصحبه عوروا علينا متجربنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا في دارنا هذه أكلنا رؤوس أموالنا، فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام في الصيف، وإلى الحبشة في الشتاء.

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهي طريق طويلة جداً تخترق نجداً إلى الشام، وتمرُّ في شرقي المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فرات بن حيان - من بني بكر بن وائل - دليلاً له، يكون رائده في هذه الرحلة.

وخرجت غير قريش يقودها صفوان بن أمية، آخذة الطريق الجديدة، إلا أن أنباء هذه القافلة

(١) ابن هشام ٥٠/٢، ٥١، وزاد المعاد ٩١/٢، واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة فقليل: إن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ أن بني سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها، وقيل: بل خرج يريد قريشاً، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم - حتى لم يذكر الأول رأساً - .

وخطه سيرها طارت إلى المدينة. وذلك أن سليط بن النعمان - وكان قد أسلم - اجتمع في مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشجعي - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدثت بالتفصيل عن قضية العير وخطه سيرها، فأسرع سليط إلى النبي ﷺ يروي له القصة.

وجهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب في قيادة زيد بن حارثة الكلبي، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهي تنزل على ماء في أرض نجد يقال له: قردة - بالفتح فالسكون - فاستولى عليها كلها، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أي مقاومة.

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان، وقيل: ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأواني والفضة كانت تحملها القافلة، قدرت قيمتها بمائة ألف، فسَم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ^(١).

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشًا بعد بدر، اشتد لها قلق قريش، وزادتها همًا وحزنًا، ولم يبق أمامها إلا طريقان، إما أن تمتنع عن غطرتها وكبريائها، وتأخذ طريق المودعة والمصالحة مع المسلمين، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد وعزها القديم، وتقضي على قوات المسلمين، بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك، وقد اختارت مكة الطريق الثانية، فازداد إصرارها على المطالبة بالتأثر، والتهيؤ للقاء المسلمين في تعبئة كاملة، وتصميمها على الغزو في ديارهم، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوي لمعركة أحد.

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها في معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم في بدر، ومنعوا من الاستعجال في فداء الأسارى؛ حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى إثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين، تُشفي غيظها، وتروي غلة حقدّها، وأخذت في الاستعداد للخوض في مثل هذه المعركة.

وكان عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبي ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطًا وتحمسًا لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التي كان قد نجا بها أبو سفيان والتي كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش! إن محمدًا قد وترككم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأرًا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُفْسِدُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْسِدُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحبَّ المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعًا من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر - الذي كان قد أُسرَ في بدر فمَنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بأن لا يقوم ضده - أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيا يغيثه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفاظهم، كما اختاروا شاعرًا آخر - مسافع بن عبد مناف الجمحي - لنفس المهمة.

وكان أبو سفيان أشدَّ تأليبًا على المسلمين بعد ما رجع عن غزوة السوق خائبًا لم ينل ما في نفسه، بل أضاع مقدارًا كبيرًا من تمويناته في هذه الغزوة.

وزاد الطينة بلة - أو زاد النار إذكاء، إن صحَّ هذا التعبير - ما أصاب قريشًا أخيرًا في

سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التي قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهَمَّ ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

قوام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء، حتى يكون ذلك أبلغ في استماتة الرجال دون أن تُصاب حُرُماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة.

وكان سلاح النقيات في هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس^(١) جنوبها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع.

وكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان بن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد، يعاونه عكرمة بن أبي جهل، أما اللواء فكان إلى بني عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت الثارات القديمة والغيط الكامن يشعل البغضاء في القلوب، ويُشَفُّ عما سوف يقع من قتال مرير.

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي ﷺ، ضمَّنها جميع تفاصيل الجيش.

وأُسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدَّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة - التي تبلغ مسافتها إلى خمسمائة كيلو مترًا - في ثلاثة أيام، وسلَّم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء.

قرأ الرسالة على النبي ﷺ أبيُّ بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مُسرِّعًا إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار.

(١) زاد المعاد ٩٢/٢ وهو المعروف، وفي فتح الباري مائة فرس ٣٤٦/٧.

استعداد المسلمين للطوارئ:

وظلَّت المدينة في حالة استنفار عام، لا يفارق رجالها السلاح، حتى وهم في الصلاة، استعدادًا للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار - فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عباد - بحراسة رسول الله ﷺ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح.

وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها، خوفًا من أن يؤخذوا على غِرَّة.

وقامت دوريات من المسلمين - لاكتشاف تحركات العدو - تتجول حول الطرق التي يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش المكي إلى أسوار المدينة:

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة، ولما وصل إلى الأبواء اقترحت هند بنت عتبة - زوج أبي سفيان - بنش قبر أم رسول الله ﷺ، بيد أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب، وحذروا من العواقب الوخيمة التي تلحقهم لو فتحوا هذا الباب.

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة، فسلك وادي العقيق، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين، حتى نزل قريبًا بجبل أحد في مكان يقال له: عينين، في بطن السبخة، من قناة على شفير الوادي - الذي يقع شمالي المدينة بجانب أحد - فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خيرًا بعد خبر، حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلسًا استشاريًا عسكريًا أعلى، تبادل فيه الرأي لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال: «إني قد رأيت والله! خيرًا، رأيت بقرا يذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلما، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة» وتأول البقر بنفر من أصحابه يُقتلون، وتأول الثلثة في سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

ثم قدم رأيه إلى صحابته أن لا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بشرًا مقام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأي. ووافق على هذا الرأي عبد الله بن أبي ابن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج، ويبدو أن موافقته لهذا الرأي لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو

وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين، وينكشف عنهم الغطاء الذي كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون في أخرج ساعتهم على تلك الأفاعي التي كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم.

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر، فأشاروا على النبي ﷺ بالخروج، وألحوا عليه في ذلك، حتى قال قائلهم: يا رسول الله! كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبناً عنهم.

وكان في مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ فقد قال للنبي ﷺ: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة^(١).

ورفض رسول الله ﷺ رأيه أمام رأي هؤلاء المتحمسين، واستقرّ الرأي على الخروج من المدينة واللقاء في الميدان السافر.

تكتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبي ﷺ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك.

ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العوالي، ثم دخل بيته، ومعه صاحبه أبو بكر وعمر، فعمّماه وألبساه، فتدجّج بسلاحه، وظاهر بين درعين (أي لبس درعاً فوق درع)، وتقلّد السيف، ثم خرج على الناس.

وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكروهم رسول الله ﷺ على الخروج، ففردوا الأمر إليه، فندموا جميعاً على ما صنعوا، فلما خرج قالوا له: يا رسول الله! ما كان لنا أن نخالفك، فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته - وهي الدرع - أن يضعها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»^(٢).

وقسم النبي ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب:

- (١) كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدري.
- (٢) كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.
- (٣) كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر.

(١) السيرة الحلبية ١٤/٢.

(٢) رواه أحمد ٣/٣٥١ والنسائي والحاكم وابن إسحاق. وذكره البخاري في ترجمة باب في الاعتصام.

وكان الجيش متألفاً من ألف مقاتل، فيهم مائة دارع^(١)، ولم يكن معهم من الفرسان أحد، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقي في المدينة، وأذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبي ﷺ يعدوان دارعين.

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج^(٢)، يرغبون المساهمة في القتال ضد المشركين، فسأل: «هل أسلموا؟» فقالوا: لا. فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له: «الشيخان» استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مطيقاً للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظهير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعراية بن أوس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدري، وزيد ابن حارثة الأنصاري، وسعد بن حَبَّة، ويذكر في هؤلاء البراء بن عازب، لكن حديثه في البخاري يدل على شهوده القتال ذلك اليوم.

وأجاز رافع بن خديج، وسمرة بن جندب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهراً في رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع. فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه، فتصارعا، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه أيضاً.

المبيت بين أحد والمدينة:

وفي هذا المكان أدركهم المساء، فصلّى المغرب، ثم صلّى العشاء، وبات هنالك، وانتخب خمسين رجلاً لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري، بطل سرية كعب بن الأشرف، وتولّى ذكوان بن عبد قيس حراسة النبي ﷺ خاصة.

تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه:

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشوط صلى الفجر، وكان بمقربة جداً من العدو فقد كان يراهم ويرونها، وهناك تمرد عبد الله بن أبي المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر - ثلاثمائة مقاتل - قائلاً: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهراً بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره.

(١) قال ابن القيم في الهدى ٩٢/٢ وخمسون فارساً. قال ابن حجر: هو غلط بين. وقد جزم موسى بن عقبة بأنه لم يكن معهم في أحد شيء من الخيل، ووقع عند الواقدي كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبي بردة (فتح الباري ٣٥٠/٧).

(٢) روى ذلك ابن سعد وفيه أنهم من بني قينقاع (٣٤/٢) ومعلوم أن بني قينقاع كان قد تم إجلأؤهم عقب بدر.

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوي إلى هذا المكان معنى. بل لو كان هذا هو السبب لانعزال عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسي من هذا التمرد - في ذلك الظرف الدقيق - أن يُحدث البلبلة والاضطراب في جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم، حتى ينحاز عامة الجيش عن النبي ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبي ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح في تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد هَمَّت طائفتان - بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج - أن تفشلا، ولكن الله تولاها، فثبتا بعد ما سرى فيهما الاضطراب وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وحاول عبد الله بن حرام - والد جابر بن عبد الله - تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم في هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يؤيخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول تعالى قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقتاتلون لم نرجع. فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلاً: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

وفي هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَنْتَبَهْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ اقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

بقية الجيش الإسلامي إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبي ﷺ ببقية الجيش - وهم سبعمائة مقاتل - ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد في مناطق كثيرة، فقال: «من رجل يخرج بنا على القوم من كتب - أي من قريب - من طريق لا يمر بنا عليهم؟».

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله! ثم اختار طريقاً قصيراً إلى أحد يمر بحرة بني حارثة وبمزارعهم، تاركاً جيش المشركين إلى الغرب.

ومر الجيش في هذا الطريق بحائط مربع بن قضيبي - وكان منافقاً ضريّر البصر - فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحل لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله فابتدره القوم ليقتلوه، فقال: «لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر».

ونفذ رسول الله ﷺ، حتى نزل الشعب من جبل أحد في عدوة الوادي، فعسكر بجيشه

مستقبلاً المدينة، وجاعلاً ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلاً بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

وهناك عباً رسول الله ﷺ جيشه، وهياًهم صفوفاً للقتال، فانتخب منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلاً، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصاري الأوسي البدري، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الجنوبية من وادي قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالي مائة وخمسين متراً من مقر الجيش الإسلامي.

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتون من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك»^(١). ثم قال للرماة: «احموا ظهورنا، فإن رأيتُمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتُمونا قد غنمنا فلا تشركونا»^(٢)، وفي رواية البخاري أنه قال: «إن رأيتُمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتُمونا هزمنا القوم ووطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»^(٣).

وبتعيين هذه الفصيلة في الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سدَّ رسول الله ﷺ الثلثة الوحيدة التي كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسلَّلوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود في وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل في مقدِّمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف.

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جداً، تتجلَّى فيها عبقرية قيادة النبي ﷺ العسكرية - وأنه لا يمكن لأي قائد مهما تقدَّمت كفاءته أن يضع خطة أدقَّ وأحكم من هذا - فقد احتلَّ أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فقد حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره - حين يحدث القتال - بسدِّ الثلثة الوحيدة التي كانت توجد في

(١) ابن هشام ٦٥/٢، ٦٦.

(٢) روى ذلك أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس. انظر فتح الباري ٣٥٠/٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجهاد ٤٢٦/١.

جانب الجيش الإسلامي، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمي به - إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين - ولا يلتجئ إلى الفرار، حتى يتعرضَ للوقوع في قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة إلى أعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه، وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًا أن يحصلوا على شيء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوّض النقص العددي في رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين.

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوي صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ.

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ في القتال حتى يأمرهم، وظاهر بين درعين، وحرّض أصحابه على القتال، وحضّهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه، حتى جرّد سيفًا باترًا ونادى أصحابه: «من يأخذ هذا السيف بحقه؟» فقام إليه رجال يأخذوه - منهم علي بن أبي طالب، والزيبر بن العوام، وعمر بن الخطاب - حتى قام إليه أبو دجانة سمالك بن خرشة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحني». قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله! فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عصاية حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت، فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصاية، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

تعبئة الجيش المكي:

أما المشركون فعبّأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمرّكز في قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشرّكًا - وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة.

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب - كما أسلفنا في أوائل المقالة - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك، تقيّدًا بالتقاليد التي ورثوها كابّرًا عن كابر، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشًا يوم بدر حين أُسرَ حامل لوائهم النضر بن الحارث، وقال لهم ليستفر غضبهم ويثير حميتهم: يا بني عبد الدار! قد وليتم لواءنا يوم بدر

فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت زالوا، فإذا أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

ونجح أبو سفيان في هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشدَّ الغضب، وهموا به وتواعدوه، وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أُيِّدُوا عن بكرة أبيهم.

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين. فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلُّوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم، فلا حاجة لنا إلى قتالكم، ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذي لا تقوم له الجبال، فقد ردَّ عليه الأنصار ردًّا عنيفًا، وأسمعوه ما يكره.

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفتان، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض، فقد خرج إليهم عميل خائن يُسمَّى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو بن صيفي، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية. فلما جاء الإسلام شرق به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يؤلِّبهم على رسول الله ﷺ ويحضُّهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين في الأحابيش وعبدان أهل مكة، فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس! أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عينا يا فاسق! فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر. (ولما بدأ القتال قاتلهم قتالًا شديدًا وراضخهم بالحجارة).

وهكذا فشلت قريش في محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان وبدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم في العدد والعدة.

جهود نسوة قريش في التحميس:

وقامت نسوة قريش بنصيهن من المشاركة في المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف، يستنهضن الرجال، ويُحرِّضن على القتال، ويثرن حفاظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

ويها بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضربًا بكل بتار

وتارة يأزرن قومهن على القتال وينشدن:

إن تقبلوا نعانق ونفرض النمارق
أو تهذبوا نفارق فراق غير وامق

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان، وتنادت الفتان، وبدأت مراحل القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة، خرج وهو راكب على جمل، يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدّم إليه الزبير، ولم يمهله بل وثب إليه وثبة الليث، حتى صار معه على جملة، ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه.

ورأى النبي ﷺ هذا الصراع الرائع، فكبر وكبر المسلمون، وأثنى على الزبير، وقال في حقه: «إن لكل نبي حوارياً، وحواريي الزبير»^(١).

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتدّ القتال بين الفريقين في كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبي طلحة، فحملة أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، وتقدّم للقتال وهو يقول:

إن على أهل اللواء حقاً أن تخضب الصعدة أو تندقا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب، فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرتة، فبانت رثته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص بسهم أصاب حنجرتة، فأدلع لسانه ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدّم إليه على بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه علي فقتله.

ثم رفع اللواء مسافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كلاب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقضّ عليه الزبير بن العوام وقتلته حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجلاس بن طلحة بن أبي طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته، وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقتله عليه.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قُتلوا

جميعًا حول لواء المشركين، ثم حملة من بني عبد الدار أرطأة بن شرحبيل، فقتله علي بن أبي طالب، وقيل: حمزة بن عبد المطلب، ثم حملة شريح بن قارظ فقتله قزمان - وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام - ثم حملة أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري، فقتله قزمان أيضًا، ثم حملة ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضًا.

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار - من حملة اللواء - أُيِّدُوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء، فتقدَّم غلام لهم حبشي - اسمه صواب - فحمل اللواء، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قُتِلُوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يده، فبرك على اللواء ب صدره وعنقه؛ لئلا يسقط حتى قُتِلَ وهو يقول: اللهم! هل أعزرت، يعني هل أعذرت؟.

وبعد أن قتل هذا الغلام - صواب - سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقي ساقطًا.

القتال في بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة، يدور حول لواء المشركين، كان القتال المرير يجري في سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود، وهم يقولون: «أمت، أمت»، كان ذلك شعارًا لهم يوم أحد.

أقبل أبو دجانة مُعلِّمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ، مصممًا على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهدُّ صفوف المشركين هذا. قال الزبير بن العوام: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعني، وأعطاه أبا دجانة، وقلت أي في نفسي: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فاتاه إياه وتركني، والله! لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر في الكيول^(١) أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذفَّ عليه، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتَّقه بدرقته، فعضت بسيفه، فضربه أبو دجانة فقتله^(٢).

(١) الكيول: آخر الصفوف. يعني أنه لا يقاتل في مؤخرة الصفوف. بل يظل أبدًا في المقدمة.

(٢) ابن هشام ٦٨/٢، ٦٩.

ثم أمعن أبو دجانة في هذ الصفوف، حتى خَلَصَ إلى قائدة نسوة قريش، وهو لا يدري بها. قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له، فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هي هند بنت عتبة، قال الزبير بن العوام رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم^(١).

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة في إبادة حاملي لواء المشركين؛ فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين حتى صُرِعَ وهو في مقدمة المبرزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهها لوجه في ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام في حلك الظلام.

مصراع أسد الله حمزة بن عبد المطلب:

يقول قاتل حمزة وحشي بن حرب: كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش على أخذ قال لي جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس - وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحرية قذف الحبشة قلما أخطيء بها شيئاً - فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس مثل الجمل الأورق، يَهْدُ الناس هذا ما يقوم له شيء، فوالله! إني لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلي يا ابن مقطعة البظور! - وكانت أمه ختانة - قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه^(٢).

قال: وهزرت حربتي، حتى إذا رضيت منه دفعتها إليه، فوقع في ثنته - أحشائه - حتى خرجت من بين رجله، وذهب لينوء نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيت فأخذت حربتي ثم رجعت إلى العسكر، فقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، وإنما قتلته لأُعْتَقَ، فلما قدمت مكة عُتِقْتُ^(٣).

السيطرة على الموقف:

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن

(١) المصدر نفسه ٦٩/٢.

(٢) أخطأ رأسه، يقال عند المبالغة في الإصابة.

(٣) ابن هشام ٦٩/٢، ٧٠، ٧١، ٧٢، صحيح البخاري ٥٨٣/٢ - أسلم وحشي هذا بعد معركة الطائف، وقتل مسيلمة الكذاب بحربه تلك، وشهد اليرموك ضد الرومان.

عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله، فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، والزيبر بن العوام، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيدالله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالاً فلَّ عزائم المشركين، وفتت في أعضادهم.

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حنظلة الغسيل - وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سُمِّي بالفاسق، والذي مضى ذكره قريباً - كان حنظلة حديث عهد بالعرس، فلما سمع هوائف الحرب - وهو على امرأته - انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين في ساحة القتال، أخذ يشق الصفوف، حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شدَّ على أبي سفيان، فلما استعلاه وتمكَّن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله.

نصيب فصيلة الرماة في المعركة:

وكانت للفصيلة التي عيَّنَهَا الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء في إدارة دفعة القتال لصالح الجيش الإسلامي، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق، ثلاث مرات ليحطموا جناح الجيش الإسلامي الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيُحْدِثُوا البلبلة والارتباك في صفوفهم، وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث^(١).

الهزيمة تنزل بالمشركين:

هكذا دارت رحى الحرب الزبون، وظل الجيش الإسلامي الصغير مسيطراً على الموقف كله، حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدَّد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئات قلائل، وظهر المسلمون في أعلى صور الشجاعة واليقين.

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسدِّ هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت همتها - حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها، الذي سقط بعد مقتل صواب، فيحمله ليدور حوله القتال - فأخذت في الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

(١) انظر فتح الباري ٣٤٦/٧.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها. روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله! لقد رأيته أنظر إلى خدم - سوق - هند بن عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير... إلخ^(١) وفي حديث البراء بن عازب عند البخاري في الصحيح: فلما لقيناهم هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن^(٢). وتبع المسلمون المشركين، يضعون فيهم السلاح، ويتهبون الغنائم.

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينما كان الجيش الإسلامي الصغير يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذي اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تماماً، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سبباً في مقتل النبي ﷺ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، والهيبة التي كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التي أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة، لكن على رغم هذه الأوامر المشددة؛ لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين يتهبون غنائم العدو، غلبت أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكّرهم بأوامر الرسول ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالآ، وقالت: والله! لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة^(٣). ثم غادر أربعون رجلاً أو أكثر من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسواد الجيش، ليشاركوه في جمع الغنائم، وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه، التزموا مواقعهم، مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يُبادوا.

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي:

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فاستدار بسرعة خاطفة، حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه، ثم انقضّ على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عُرفَ بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد، فانقلبوا على

(١) ابن هشام ٧٧/٢.

(٢) صحيح البخاري ٥٧٩/٢.

(٣) روى ذلك البخاري من حديث البراء بن عازب ٤٢٦/١.

المسلمين، وأسرت امرأة منهم - وهي عمرة علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتفت حوله المشركون ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضاً، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأُحيطَ المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شِقِي الرحى.

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله ﷺ حينئذ في مفرزة صغيرة - تسعة نفر من أصحابه^(١) - في مؤخرة المسلمين^(٢)، كان يرقب مجالدة المسلمين ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغثة كاملة، فكان أمامه طريقان، إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجتمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد.

وهناك تجلّت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادي أصحابه: «عباد الله» وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطراً بنفسه في هذا الظرف الدقيق.

وفعلًا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه، قبل أن يصل إليه المسلمون.

تبدد المسلمين في الموقف:

أما المسلمون فلما وقعوا في التطويق طار صواب طائفة منهم، فلم تكن تهمها إلا أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهي لا تدري ماذا وراءها؟ وفرّ من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى فوق الجبل، ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران، فلم يتميزوا، فوقع القتل في المسلمين بعضهم من بعض، روى البخاري عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هُزِمَ المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي: عباد الله أخراكم - أي: احترزوا من ورائكم - فرجعت أولاهم، فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي: عباد الله! أبي أبي. قالت: فوالله! ما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، قال عروة: فوالله! ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله^(٣).

(١) في صحيح مسلم (١٠٧/٢) أنه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

(٢) يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا بِذَعُوكُمْ فِي آخِرِنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

(٣) صحيح البخاري ٥٣٩/١، ٥٨١/٢، وفتح الباري ٣٥١/٧، ٣٦٢، ٣٦٣ وذكر غير البخاري أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه. فقال حذيفة: تصدقت بديته على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيراً عند النبي ﷺ. انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٤٦.

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمَّتْها الفوضى، وتاه منها الكثيرون، لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحًا يصيح: إن محمدًا قد قُتِلَ، فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية، أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكينًا، وفكَّر آخرون في الاتصال بعبد الله بن أبي - رأس المنافقين - ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان.

ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم قال: اللهم! إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني: المسلمين - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني: المشركين - ثم تقدَّم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: وأها لريح الجنة يا سعد! إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قُتِلَ، فما عُرِفَ حتى عرفته أخته - بعد نهاية المعركة - بينانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم^(١).

ونادى ثابت بن الدحداح قومه، فقال: يا معشر الأنصار! إن كان محمد قد قُتِلَ، فإن الله حي لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد، فما زال يقاتلهم، حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه^(٢).

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان! أشعرت أن محمدًا قد قُتِلَ؟ فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قُتِلَ فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم^(٣).

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الانصال بابن أبي، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبي ﷺ كذب مختلق، فزادهم ذلك قوة على قوتهم، فنجحوا في الإفلات عن التطويق، وفي التجمع حول مركز منيع بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ. فقد كرَّتْ هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ، وعُمِلَ التطويق في بدايته، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وغيرهم رضي الله عنهم كانوا في مقدمة المقاتلين، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة - عليه الصلاة والسلام والتحية - صاروا في مقدمة المدافعين.

(١) زاد المعاد ٩٣/٢، ٩٦ صحيح البخاري ٥٧٩/٢.

(٢) السيرة الحلبية ٢٢/٢.

(٣) زاد المعاد ٩٦/٢.

احتدام القتال حول رسول الله ﷺ:

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أوامر التطويق، تطحن بين شقي رحى المشركين، كان العراك محتدماً حول رسول الله ﷺ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدؤوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر، فلما نادى المسلمين: هلم إليّ، أنا رسول الله، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف، ظهرت فيه نواذر الحب والتفاني والبسالة والبطولة.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أُفِرِدَ يوم أُحُد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهبوه قال: «من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة؟» فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، ثم رهبوه أيضاً فقال: «من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقي في الجنة» فتقدّم رجل من الأنصار فقاتل حتى قُتِلَ، فلم يزل كذلك حتى قُتِلَ السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أي: القرشيين - «ما أنصفنا أصحابنا»^(١). وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط^(٢).

أُخرج ساعة في حياة الرسول ﷺ:

وبعد سقوط ابن السكن بقي الرسول ﷺ في القرشيين فقط، ففي الصحيحين عن أبي عثمان قال: لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (ابن أبي وقاص)^(٣) وكانت أُخرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركّزوا حملتهم على النبي ﷺ وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوق لشفقه، وأصيبت ربايعته اليمنى السفلى، وكلمت شفته السفلى، وتقدّم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشجه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قمئة فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذا وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ له وهو يمسح الدم عن وجهه: «أقمأك الله»^(٤).

(١) صحيح مسلم، باب غزوة أحد ١٠٧/٢.

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. (ابن هشام ٨١/٢).

(٣) صحيح البخاري ٥٢٧/١، ٥٨١/٢.

(٤) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة: (انصرف إلى أهله، فخرج إلى غنمه، فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنتطحه نطحه أرداه من شاهق الجبل فقطّع) (فتح الباري ٣٧٣/٧) وعند الطبراني

وفي الصحيح أنه ﷺ كُسِرَتْ رِباعيته، وَشُجَّ في رأسه، فجعل يسלט الدم عنه ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رِباعيته وهو يدعوهم إلى الله» فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(١) [آل عمران: ١٢٨].

وفي رواية الطبراني أنه قال يؤمئذ: اشتدَّ غضب الله على قوم دموا وجه رسوله، ثم مكث ساعة ثم قال: «اللهم! اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٢). وفي صحيح مسلم أنه قال: «ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»^(٣)، وفي الشفاء للقاضي عياض أنه قال: «اللهم! اهد قومي فإنهم لا يعلمون»^(٤).

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ، إلا أن القرشيين سعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا - وهما اثنان فحسب - سبيلاً إلى نجاح المشركين في هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

فأما سعد بن أبي وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته، وقال: «ارم فداك أبي وأمي»^(٥). ويدل على مدى كفاءته أن النبي ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد^(٦).

وأما طلحة بن عبيد الله فقد روى النسائي عن جابر قصة تجمع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: «من للقوم»، فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدّم الأنصار، وقتلهم واحداً بعد واحد بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قُتل الأنصار كلهم تقدّم طلحة، قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضُربت يده ففُطِعت أصابعه، فقال: حسّ، فقال النبي ﷺ لو قلت: «بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون» قال: ثم ردّ الله المشركين^(٧). ووقع عند الحاكم في الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعاً وثلاثين، أو خمسين وثلاثين، وشلت إصبعه، أي: السبابة والتي تليها^(٨).

وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء، وُقِيَ بها النبي ﷺ يوم

(فلسط الله عليه تيس جبل فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة) (فتح الباري ٧/٣٦٦).

(١) صحيح البخاري ٢/٥٨٢، وصحيح مسلم ٢/١٠٨.

(٢) فتح الباري ٧/٣٧٣.

(٣) صحيح مسلم باب غزوة أحد ٢/١٠٨.

(٤) كتاب الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ٨١/١.

(٥، ٦) صحيح البخاري ١/٤٠٧، ٢/٥٨٠، ٥٨١.

(٧) فتح الباري ٧/٣٦١، وسنن النسائي ٢/٥٢، ٥٣.

(٨) المصدر نفسه الأول ٧/٣٦١.

أُحُدُ^(١).

وروى الترمذي وابن ماجه أن النبي ﷺ قال فيه يومئذ: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»^(٢).

وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذُكِرَ يوم أُحُد قال: «ذلك اليوم كله لطلحة»^(٣).

وقال فيه أبو بكر أيضًا:

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وبوأتمها العينا^(٤)

وفي ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففي الصحيحين عن سعد. قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض، كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفي رواية يعني: جبريل وميكائيل^(٥).

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ:

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ - الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تطور الموقف، أو يسمعون صوته ﷺ، حتى أسرعوا إليه؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ﷺ ما لقي من الجراحات - وستة من الأنصار قد قُتِلُوا، والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايتهم من ضربات العدو، وردّ هجماتهم، وكان أول من رجع إليه هو ثانيه في الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

روى ابن حبان في صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق لما كان يوم أُحُد انصرف الناس كلهم عن النبي ﷺ، فكنت أول من فاء إلى النبي ﷺ، فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فذاك أبي وأمي، كن طلحة، فذاك أبي وأمي، [حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجل من قومي أحب إلي]^(٦) فلم أشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير، حتى لحقتني، فدفعنا إلى النبي ﷺ، فإذا طلحة بين يديه

(١) صحيح البخاري ٥٢٧/١، ٥٨١/٢.

(٢) الترمذي: مناقب ح ٣٧٤٠ وابن ماجه: المقدمة ح ١٢٥، ابن هشام ٨٦/٢.

(٣) فتح الباري ٣٦١/٧.

(٤) مختصر تاريخ دمشق ٨٢/٧.

(٥) صحيح البخاري ٥٨٠/٢.

(٦) تهذيب تاريخ دمشق ٧٧/٧.

صريعاً، فقال النبي ﷺ: «دونكم أخاكم فقد أوجب»، وقد رمى النبي ﷺ في وجنته، حتى غابت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، فذهبت لأنزعهما عن النبي ﷺ فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر! إلا تركتني. قال: فأخذ بفيه، فجعل ينضضه كراهية أن يؤدي رسول الله ﷺ، ثم استلَّ السهم بفيه، فندرت ثنية أبي عبيدة، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر! إلا تركتني، قال فأخذه فجعل ينضضه حتى استله، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله ﷺ: «دونكم أخاكم، فقد أوجب»، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه. وقد أصابته بضع عشرة ضربة^(١). (وهذا أيضًا يدل على مدى كفاءة طلحة ذلك اليوم في الكفاح والنضال).

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المسلمين، منهم أبو دجانة، ومصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري. وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وجاطب بن أبي بلتعة، وأبو طلحة.

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم، وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ﷺ في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجحشت ركبته، وأخذ علي بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، وقال نافع بن جبير: سمعت رجلاً من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا، فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ: دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله أنه منا ممنوع، فخرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاهدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك^(٢).

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرًا. كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقية عن سهام العدو. قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يديه محبوب عليه بحجفة له، وكان رجلاً رامياً شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثاً، وكان الرجل يمرُّ معه بجعبة من

(١) زاد المعاد ٩٥/٢.

(٢) زاد المعاد ٩٧/٢.

النبيل، فيقول: «انثرها لأبي طلحة». قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك^(١).

وعنه أيضًا قال: كان أبو طلحة يتترس مع النبي ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرمي، فكان إذا رمى تشرف النبي ﷺ، فينظر إلى موقع نبله^(٢).

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ، فترس عليه بظهره، والنبيل يقع عليه وهو لا يتحرك. وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص - الذي كسر الرباعية الشريفة - فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه. وكان سعد بن أبي وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

وكان سهل بن حنيف أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله ﷺ على الموت، ثم قام بدور فعّال في ذود المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت سيته^(٣)، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وجنته، فردّها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهتم، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فعرج.

وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه فقال: «مجه». فقال: والله! لا أمجه أبدًا. ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا» فقتل شهيدًا.

وقاتلت أم عمارة، فاعترضت لابن قمئة في أناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة حتى أصابها اثنا عشر جرحًا،

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة، يدافع عن النبي ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قُطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد في وجوه الكفار حتى قُطعت يده اليسرى، ثم برك عليه ب صدره وعنقه حتى قُتل، وكان الذي قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله - لشبهه به - فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح: إن محمدًا

(١) صحيح البخاري ٥٨١/٢.

(٢) المصدر نفسه ٤٠٦/١.

(٣) سيتها: ما عطف من طرفها.

قد قُتِلَ^(١).

إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصباح دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبي ﷺ في المشركين والمسلمين وهذا هو الظرف الدقيق الذي خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمَّتْها الفوضى والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خَفَّتْ بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين.

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قُتِلَ مصعب أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب، فقاتل قتالاً شديداً، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة يقاتلون ويدافعون.

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم، فعرفه كعب ابن مالك - وكان أول من عرفه - فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أن أصمت؛ وذلك لثلا يعرف موضعه المشركون إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون، حتى تجمَّع حوله حوالي ثلاثين رجلاً من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ في الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتدَّ المشركون في هجومهم؛ لعرقلة الانسحاب إلا أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

تقدَّم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا. وقام رسول الله ﷺ لمواجهته إلا أن الفرس عثرت في بعض الحفر، فنازله الحارث بن الصمة، فضرب على رجله فأقعده، ثم دُفِعَ عليه، وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله ﷺ.

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصمة، فضرب بالسيف على عاتقه، فجرحه حتى حملة المسلمون، ولكن انقضَّ أبو دجانة - البطل المغامر ذو العصاة الحمراء - على عبد الله بن جابر، فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

وأثناء هذا القتال المرير، كان المسلمون يأخذهم النعاس أمانة من الله، كما تحدَّث عنه

(١) انظر ابن هشام ٧٣/٢، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، وزاد المعاد ٩٧/٢.

القرآن. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه^(١).

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة - في انسحاب منظم - إلى شعب الجبل وشق لبقية الجيش طريقًا إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به في الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ.

مقتل أبي بن خلف:

قال ابن إسحاق: فلما أسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا؟. فقال القوم: يا رسول الله! أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله، وأبصر ترقوته من فرجة بين سابعة الدرع والبيضة، فطعنه فيها طعنة تدأداً - تدرج - منها عن فرسه مرارًا، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم قال: قتلني والله! محمد. قالوا له: ذهب والله! فؤادك، والله! إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك^(٢) فوالله! لو بصق عليّ لقتلني، فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون به إلى مكة^(٣)، وفي رواية أبي الأسود عن عروة وكذا في رواية سعيد بن المسيب عن أبيه: أنه كان يخور خوار الثور ويقول: والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا جميعًا^(٤).

طلحة ينهض بالنبي ﷺ:

وفي أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل، فنهض إليها ليعلوها، فلم يستطع، لأنه كان قد بدّن وظاهر بين الدرعين، وقد أصابه جرح شديد. فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها وقال: «أوجب طلحة»^(٥)، أي: الجنة.

(١) صحيح البخاري ٥٨٢/٢.

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبي هذا، فيقول: يا محمد! إن عندي العود فرسًا أعلفه كل يوم فرقًا من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله».

(٣) ابن هشام ٨٤/٢، زاد المعاد ٩٧/٢.

(٤) ابن هشام ٨٤/٢ والمستدرک للحاكم ٣٢٧/٢.

(٥) ابن هشام ٨٦/٢. ورواه الترمذي وأحمد والحاكم.

[illegible]

- (١) الطريق الذي فاء منه من فاء إلى النبي ﷺ .
 (٢) الطريق الذي فر منه المهزومون إلى هضاب أحد بعد الانتكاسة .
 (٣) الطريق الذي فر منه المهزومون إلى المدينة بعد الانتكاسة .

آخر هجوم قام به المشركون:

ولما تمكّن رسول الله ﷺ من مقر قيادته في الشعب؛ قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين، قال ابن إسحاق: بينا رسول الله ﷺ في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ: «اللهم! إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا» فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل^(١).

وفي مغازي الأموي أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «أجبنهم» - يقول: ارددهم - فقال: كيف أجبنهم وحدي؟ فقال ذلك ثلاثاً، فأخذ سعد سهمًا من كنانته، فرمى به رجلًا فقتله، قال: ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتي. فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه^(٢).

تشويه الشهداء:

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبي ﷺ. ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئًا - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهايئون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتلى المسلمين، يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويقررون البطون، وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة، فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف خدماً - خلاخيل - وقلائد^(٣).

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفي هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان، تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم في سبيل الله.

١ - قال كعب بن مالك: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت ف تجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع الأمة يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم^(٤)، وإذا رجل من المسلمين ينتظره، وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصري، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق

(١) المصدر نفسه الأول.

(٢) زاد المعاد ٩٥/٢.

(٣) ابن هشام ٩٠/٢.

(٤) أي استجمعوا وانضموا.

فرفتين، ثم كشف المسلم عن وجهه وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة^(١).

٢ - جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان - أرى خدم سوقهما - تنقران القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملاّنهما، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم^(٢). وقال عمر: كانت (أم سليط من نساء الأنصار) تزفر لنا القرب يوم أحد^(٣).

وكانت في هؤلاء النسوة أم أيمن، إنها لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة، أخذت تحثو في وجوههم التراب، وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلمّ سيفك ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقي الجرحى، فرماها حبان (بالكسر) ابن العرقه بسهم، فوقعت وتكشفت، فأغرق عدو الله في الضحك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهمًا لا نصل له، وقال: «ارم به» فرمى به سعد، فوقع السهم في نحر حبان، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «استقاد لها سعد، أجاب الله دعوته»^(٤).

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ في مقره من الشعب خرج علي بن أبي طالب، حتى ملأ درقته ماء من المهراس - قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيرًا وقيل: اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحًا فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصبّ على رأسه وهو يقول: «اشتد غضب الله على من دمي وجه نبيه»^(٥).

وقال سهل: والله! إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء وبما دووي؟ كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلي بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها، فاستمسك الدم^(٦).

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبي ﷺ، ودعا له بخير^(٧)، وصلى الظهر قاعدًا من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعودًا^(٨).

(١) البداية والنهاية ١٧/٤.

(٢) صحيح البخاري ٤٠٣/١، ٥٨١/٢.

(٣) المصدر نفسه ٤٠١/١.

(٤) السيرة الحلبية ٢٢/٢.

(٥) ابن هشام ٨٥/٢.

(٦) صحيح البخاري ٥٨٤/٢.

(٧) السيرة الحلبية ٣٠/٢.

(٨) ابن هشام ٨٧/٢.

شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف، أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه - وكان النبي ﷺ منعه من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله! إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله ما يسوؤك، فقال: قد كان فيكم مثلة لم أمر بها ولم تسؤني.

ثم قال: أعل هبل.

فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟» فقالوا: فما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل».

ثم قال: لنا العزى ولا عزى لكم.

فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبونه؟» قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا، ولا مولى لكم».

ثم قال أبو سفيان: أنعمت فعال، يوم بيوم بدر، والحرب سجال.

فأجاب عمر، وقال: لا سواء، قتلنا في الجنة، وقتلناكم في النار.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلي يا عمر! فقال رسول الله ﷺ: ائت فانظر ما شأنه؟ فجاءه، فقال له أبو سفيان: أشدك بالله يا عمر! أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم! لا، وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر^(١).

مواعدة التلاقي في بدر:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل: «نعم، هو بيننا وبينك موعد»^(٢).

التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال: «اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتنطوا الإبل فإنهم يريدون مكة. وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم». قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون،

(١) ابن هشام ٩٣/٢، ٩٤، زاد المعاد ٩٤/٢، صحيح البخاري ٥٧٩/٢.

(٢) ابن هشام ٩٤/٢.

فجنبوا الخيل وامتنطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة^(١).

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحُد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: «إن رأيته فأقرئه مني السلام» وقل له: «يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة: ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد! إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته^(٢).

ووجدوا في الجرحى الأصيرم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير، وكانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذي جاء بك؟ أحذب على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «هو من أهل الجنة». قال أبو هريرة: ولم يصل لله صلاة قط^(٣).

ووجدوا في الجرحى قزمان - وكان قد قاتل قتال الأبطال، قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبتته الجراحة، فاحتملوه إلى دار بني ظفر، وبشَّره المسلمون فقال: والله! إن قاتلت إلا عن أحساب قومي، ولولا ذلك ما قاتلت. فلما اشتدَّ به الجراح نحر نفسه وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذكر له - «إنه من أهل النار»^(٤) - وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوى إعلاء كلمة الله، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام، بل وفي جيش الرسول والصحابة.

وعلى عكس من هذا كان في القتلى رجل من يهود بني ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود! والله! لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد، يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قُتِل، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود»^(٥).

(١) ابن هشام ٩٤/٢، وفي فتح الباري أن الذي خرج في آثار المشركين هو سعد بن أبي وقاص (٣٤٧/٧).

(٢) زاد المعاد ٩٦/٢.

(٣) المصدر نفسه ٩٤/٢، وابن هشام ٩٠/٢.

(٤) المصدر نفسه الأول ٩٧/٢، ٩٨، وابن هشام ٨٨/٢.

(٥) ابن هشام ٨٨/٢، ٨٩.

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء، فقال: أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يُدْمَى جرحُه اللون لون الدم، والريح ريح المسك^(١).

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فأمر أن يرُدُّوهم فيدفنوهم في مضاجعهم، وأن لا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود، وكان يدفن الاثنين والثلاثة في القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين في ثوب واحد، ويقول: أيهم أكثر أخذًا للقرآن؟ فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة». ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام، وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة^(٢).

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقده، فوجدوه في ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: سلوا أهله ما شأنه؟ فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. ومن هنا سُمِّي حنظلة: غسيل الملائكة^(٣).

ولما رأى ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتدَّ حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أختها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله، فأتته، فنظرت إليه، فصلَّت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة.

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشع من البكاء^(٤) والنشع: الشهيق.

وكان منظر الشهداء مريعاً جداً يُقَتِّ الأكياد قال خباب: (إن) حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتى مُدَّت على رأسه، وجُعِلَ على قدميه الإذخر^(٥).

(١) المصدر نفسه ٩٨/٢.

(٢) زاد المعاد ٩٨/٢، وصحيح البخاري ٥٨٤/٢.

(٣) زاد المعاد ٩٤/٢.

(٤) رواه ابن شاذان، انظر مختصر سيرة رسول الله ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٥٥.

(٥) رواه أحمد، مشكاة المصابيح ١٤٠/١.

وقال عبد الرحمن بن عوف: قُتِلَ مصعب بن عمير وهو خير مني، وكُفِّنَ في بردة إن غُطِّيَ رأسه بدت رجلاه، وإن غُطِّيَ رجلاه بدا رأسه، وروي مثل ذلك عن خباب، وفيه «فقال لنا النبي ﷺ: «غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخر»^(١).

الرسول ﷺ يثني على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد، لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: استوتوا حتى أثني على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال:

«اللهم! لك الحمد كله، اللهم! لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت. اللهم! ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم! إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول. اللهم! إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم! إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم! حبِّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم! توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم! قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم! قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب؛ إله الحق»^(٢).

الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفاني:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه انصرف راجعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفاني من المؤمنات الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة.

لقيته في الطريق حمنة بنت جحش، فنُعِيَ إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِيَ لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نُعِيَ لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لمكان»^(٣).

ومر بامرأة من بني دینار، وقد أُصِيبَ زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان! هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه

(١) صحيح البخاري ٥٧٩/٢، ٥٨٤.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد في مسنده ٤٢٤/٣.

(٣) ابن هشام ٩٨/٢.

حتى أنظر إليه، فأشير إليها، حتى إذا رآته قالت: كل مصيبة بعدك جليل - تريد صغيرة^(١). وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد أخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله! أُمي، فقال: «مرحبًا بها». ووقف لها. فلما دنت عزَّأها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذ رأيتك سالمًا، فقد اشتويت المصيبة (أي استقلتتها). ثم دعا لأهل من قُتِل بأحد وقال: «يا أم سعد! أبشري وبشري أهلهم أن قتلهم ترافقوا في الجنة جميعًا، وقد شفَعوا في أهلهم جميعًا». قالت: رضيْنَا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟! ثم قالت: يا رسول الله! ادع لمن خلفوا منهم، فقال: «اللهم! أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا^(٢)».

الرسول ﷺ في المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣ هـ - إلى المدينة. فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «اغسلي عن هذا دمه يا بنية! فوالله! لقد صدقني اليوم». وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال: وهذا أيضًا فاغسلي عنه دمه، فوالله! لقد صدقني اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة^(٣)».

قتلى الفريقين:

اتفقت جُلُّ الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار، فقد قُتِلَ منهم خمسة وستون رجلًا، واحد وأربعون من الخزرج، وأربع وعشرون من الأوس، وقُتِلَ رجل من اليهود وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً، ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتلى المشركين في مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون. والله أعلم^(٤).

حالة الطوارئ في المدينة:

بات المسلمون في المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع عن

(١) المصدر نفسه ٩٩/٢.

(٢) السيرة الحلبية ٤٧/٢.

(٣) ابن هشام ١٠٠/٢.

(٤) انظر ابن هشام ١٢٢/٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، فتح الباري ٣٥١/٧، وغزوة أحد

لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠.

معركة أحد - وهم في حالة الطوارئ، باتوا - وقد أنهكههم التعب، ونال منهم أي منال - يحرسون أنقاب المدينة ومدخلها، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة، إذ كانت تتلاحقهم الشُّبُهات من كل جانب.

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر في الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكَّروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمَّم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكي.

قال أهل المغازي ما حصله: أن النبي ﷺ نادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أُحُد، أي: يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣هـ - وقال: لا يخرج معنا إلا من شهد القتال، فقال له عبد الله بن أُبَيٍّ: أركب معك؟ قال: لا، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزد، وقالوا: سمعاً وطاعة، واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله! إني أحب أن لا تشهد مشهداً إلا كنت معك، وإنما خلفني أبي على بناته، فأذن لي، أسير معك، فأذن له.

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه، حتى بلغوا حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة فعسكروا هناك.

وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحاً لرسول الله ﷺ، لما كان بين خزاعة وبني هاشم من الحلف، فقال: يا محمد! أما والله! لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك - فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فيخذه.

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين في العودة إلى المدينة إلا حقاً، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

ويبدو أن هذا الرأي جاء سطحياً ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديراً صحيحاً، ولذلك خالفهم زعيم مسئول «صفوان بن أمية» قائلاً: يا قوم! لا تفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أي: من المسلمين في غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم، فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم إلا أن هذا الرأي رُفِضَ أمام رأي الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة، ولكن قبل أن يتحرك

أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبي معبد الخزاعي، ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد - وقد شَنَّ عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة - : محمد، قد خرج في أصحابه، يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرُّقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول؟

قال: والله! ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصي الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله! لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم.

قال: فلا تفعل، فإني ناصح.

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكي، وأخذ الفزع والرعب، فلم ير العافية إلا في مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة. بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامي، لعله ينجح في كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة، وطبعًا فهو ينجح في الاجتناب عن لقائه، فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة، فقال: هل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيباً بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟ قالوا: نعم.

قال: فأبلغوا محمدًا أنا قد أجمعنا الكرة؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فأخبرهم بالذي قاله أبو سفيان، وقالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ﴾ - أي زاد المسلمين قولهم ذلك - ﴿إِيْمَنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد بعد - مقدمه يوم الأحد - الإثنين والثلاثاء والأربعاء - ١٠/١١ شوال سنة ٣هـ - ثم رجع إلى المدينة، وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عزة الجمحي - وهو الذي كان قد منَّ عليه من أسارى بدر؛ لفقره وكثرة بناته، على أن لا يُظَاهِر عليه أحدًا، ولكنه نكث وغدر، فحرَّض الناس بشعره على النبي ﷺ والمسلمين كما أسلفنا، وخرج لمقاتلتهم في أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد! أفلني، وامن علي، ودعني لبناتي، وأعطيك عهدًا أن لا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: «لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»

ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

كما حكم بالإعدام في جاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن أبي العاص، جد عبد الملك بن مروان لأمه، وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية إلى ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ، فأمنه على أنه إن وُجدَ بعد ثلاث قتله، فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامي أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربًا، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه^(١).

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة، إنما هي جزء من غزوة أحد وتمة لها، وصفحة من صفحاتها.

تلك هي غزوة أحد بجميع مراحلها وتفصيلها، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذي لا يشك فيه أن التفوق العسكري في الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت في جانب المسلمين أكثر وأفدح، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعًا، وأن دفعة القتال جرت لصالح الجيش المكي، لكن هناك أمورًا تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح.

فمما لا شك فيه أن الجيش المكي لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدني لم يلتجئ إلى الفرار - مع الارتباك الشديد والفوضى العامة - بل قاوم بالبسالة حتى تجمّع حول مقر قيادته، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكي، وأن أحدًا من جيش المدينة لم يقع في أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شيء من غنائم المسلمين، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام - كما هو دأب الفاتحين في ذلك الزمان - بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال، قبل أن يتركها المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول في المدينة لنهب الذراري والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب، وكانت مفتوحة وخالية تمامًا.

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة، نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد، وحمراء الأسد من ابن هشام ٦٠/٢ إلى ١٢٩، وزاد المعاد ٩١/٢ إلى ١٠٨، وفتح الباري ٣٤٥/٧ إلى ٣٧٧ مع صحيح البخاري، ومختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبدالله النجدي من ص ٢٤٢ إلى ٢٥٧، وقد أحلنا على المصادر الأخرى في مواضعها.

الإسلامي بعد عمل التطويق - وكثيرًا ما يلقي الفاتحون بمثل هذه الخسائر التي نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصرًا وفتحًا فكلًا وحاشا.

بل يؤكد لنا تعجيل أبي سفيان في الانسحاب والانصراف؛ أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال، ويزداد ذلك تأكيدًا حين ننظر إلى موقف أبي سفيان من غزوة حمراء الأسد.

وإذن فهذه الغزوة إنما كانت حربًا غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال، من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهَيَّؤْا فِي أَبْغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] فقد شبه أحد العسكريين بالآخر في إيقاع الألم، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

ونزل القرآن يلقي ضوءًا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة، وصرّح بالأسباب التي أدّت إلى هذه الخسارة الفادحة، وأبدى النواحي الضعيفة التي لم تزل موجودة في طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبه في مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التي أنشئت للحصول عليها هذه الأمة، التي تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس.

كما تحدّث القرآن عن موقف المنافقين، ففضحهم، وأبدى ما كان في باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوساوس التي كانت تختلج بقلوب ضُعَفَاء المسلمين، والتي كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدّس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التي تمخضت عنها هذه المعركة.

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] وترتك في نهايتها تعليقًا جامعًا على نتائج هذه المعركة وحكمتها قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطاً تاماً^(١). وقال ابن حجر: قال العلماء: وكان في قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهي، لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم الرسول ﷺ أن لا يبرحوا منه، ومنها أن عادة الرسل أن تبلى وتكون لها العاقبة، والحكمة في ذلك أنهم لو انتصروا دائماً دخل في المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفياً عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهره من الفعل والقول عاد التلويح تصريحاً، وعرف المسلمون أن لهم عدواً في دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم، ومنها أن في تأخير النصر في بعض المواطن هضماً للنفس، وكسراً لشماختها، فلما أُبْتُلي المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون، ومنها أن الله هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها، ومنها أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم، ومنها أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم في أذى أوليائه، فمحّص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين^(٢)..

(١) انظر زاد المعاد ٩٩/٢ إلى ١٠٨.

(٢) فتح الباري ٣٤٧/٧.

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيء على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهَمَّت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم، وتستأصل شأفتهم.

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة، ثم قامت قبائل عضل وقارة في شهر صفر سنة ٤هـ بمكيدة، سببت في قتل عشرة من الصحابة، وفي نفس الشهر قامت بنو عامر بمكيدة مثلها، سببت في قتل سبعين من الصحابة، وتُعرف هذه الوقعة بوقعة بئر معونة، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تُجَاهر بالعداوة حتى قامت في ربيع الأول سنة ٤هـ بمكيدة تهدف إلى قتل النبي ﷺ، وتجرأت بنو غطفان، حتى هَمَّت بالغزو على المدينة في جمادى الأولى سنة ٤هـ.

فريح المسلمين التي كانت قد ذهبت في معركة أحد تركت المسلمين - إلى حين - يُهَدِّدُونَ بالأخطار، ولكن تلك هي حكمة محمد ﷺ التي صرفت وجوه التيارات وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبت لهم العلو والمجد من جديد، وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هي حركة المطاردة التي قام بها إلى حمراء الأسد، فقد حفظ بها قدرًا من سمعة جيشه، واستعاد بها من مكانته شيئًا مذكورًا، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم، بل زادت فيها، وفي الصفحة الآتية شيء مما جرى بين الطرفين.

سرية أبي سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما، يدعون بني أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلاً من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة وعقد له لواء، وباغت أبو سلمة بني أسد بن خزيمة في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا في الأمر، وأصاب المسلمون إبلاً وشاء لهم، فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حرباً.

كان مبعث هذه السرية حين استهلَّ هلال المحرم سنة ٤هـ، وعاد أبو سلمة وقد نغر عليه

جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات^(١).

بعث عبد الله بن أنيس:

وفي اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة ٤هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضي عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائبًا عن المدينة ثماني عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قُتل خالدًا وجاء برأسه، فوضعه بين يدي النبي ﷺ، فأعطاه عصا، وقال: «هذه آية بيني وبينك يوم القيامة»، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تُجعل معه في أكفانه^(٢).

بعث الرجيع:

وفي شهر صفر من نفس السنة - أي الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عضل وقارة، وذكروا أن فيهم إسلامًا. وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويُقرؤهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر - في قول ابن إسحاق وفي رواية البخاري أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي - في قول ابن إسحاق وعند البخاري أنه عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رايغ وجدة - استصرخوا عليهم حيًا من هذيل يقال لهم: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فدغد - وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلًا. فأما عاصم فأبى من النزول، وقاتلهم في أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقي خبيب وزيد بن الدثنة ورجل آخر فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قسيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رؤوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أزمعوا على صلبه قال: دعوني حتى أركع ركعتين، فتركوه فضلاهما، فلما سلم قال: والله! لولا أن تقولوا: إن ما بي جزع لزدت، ثم قال: اللهم! أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبق منهم أحدًا، ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع

(١) زاد المعاد ١٠٨/٢.

(٢) المصدر نفسه ١٠٩/٢، وابن هشام ٦١٩/٢، ٦٢٠.

وقد قربوا أبناءهم ونساءهم
إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي
فذا العرش صبرني على ما يراد بي
وقد خيروني الكفر والموت دونه
ولست أبالي حين أُقتل مُسلمًا
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه، وأنت في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرنى أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه.

ثم صلبوه ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمري، فاحتمله بخدعة ليلاً، فذهب به فدفنه، وكان الذي تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث وكان خبيب قد قتل أباه حارثًا يوم بدر.

وفي الصحيح أن خبيبًا أول من سنَّ الركعتين عند القتل، وأنه رئي وهو أسير يأكل قطعًا من العنب، وما بمكة تمر.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعث قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظلة من الدبر - الزنابير - فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا، وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه في حياته^(١).

مأساة بثر معونة:

وفي نفس الشهر الذي وقعت فيه مأساة الرجيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى، وهي التي تعرف بوقعة بثر معونة.

وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك (المدعو بمُلاعِبِ الأُسْتَةِ) قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله! لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك؛ لرجوت أن يجيبوهم فقال: «إني أخاف عليهم أهل نجد»، فقال أبو براء: أنا جار لهم، فبعث معه أربعين رجلًا - في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة الملقب بالمُعْتِق ليموت، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا

(١) ابن هشام ١٦٩/٢ إلى ١٧٩، وزاد المعاد ١٠٩/٢، صحيح البخاري ٥٦٨/٢، ٥٦٩، ٥٨٥.

يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن، ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة - وهي أرض بين بني عامر وحرّة بني سليم - فزّلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن ملحان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً قطعته بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بني عامر إلى قتال الباقيين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم، فأجابته عصية ورعل وذكوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قُتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارتث من بين القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأسر عمرو ابن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مضر جز عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملاً معه أبناء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح؛ وأولئك ذهبوا في غدره شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق بالقرقرة من صدر قناة، نزل في ظل شجرة وجاء رجلاً من بني كلاب فتزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل فقال: «لقد قتلت قتيلين لأدينيهما» وانشغل بجمع دياتهم من المسلمين ومن حلفائهم اليهود^(١)، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير كما سيذكر.

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة^(٢) تألماً شديداً، وتغلب عليه الحزن والقلق^(٣)، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التي قامت بالغدر والفتك في أصحابه، ففي الصحيح عن أنس قال: دعا النبي ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحاً، يدعو في صلاة الفجر على رعل وذكوان ولحيان وعصية، ويقول: «عصية عصت الله ورسوله»، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآناً قرأناه حتى نسخ

(١) انظر ابن هشام ١٨٣/٢ إلى ١٨٨، وزاد المعاد ١٠٩/٢، ١١٠، صحيح البخاري ٥٨٤/٢، ٥٨٦.

(٢) ذكر الواقدي أن خير أصحاب الرجيع وخير أصحاب بئر معونة أتى النبي ﷺ في ليلة واحدة.

(٣) روى ابن سعد عن أنس ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة ٥٤ / ٢.

بعد: «بلغوا قومنا أنا لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله ﷺ قنوته^(١).

غزوة بني النضير:

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرّقون على الإسلام والمسلمين، إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دسٍّ ومؤامرة، فكانوا يجاهرون بالحق والعداوة، ويختارون أنواعًا من الحيل، لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال، مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وأنهم بعد وقعة بني قينقاع، وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم، فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت.

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرّؤوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًّا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين^(٢).

وصبر النبي ﷺ، حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرجيع وبئر معونة، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبي ﷺ.

وبيان ذلك أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلّمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية الضمري - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! اجلس هنا حتى نقضي حاجتك، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظرون وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلي وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسوّل لهم الشيطان الشقاء الذي كُتِبَ عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقبها على رأسه يشدّخه بها؟... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله! ليخبرنّ بما هممتن به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، لكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم.

ونزل جبريل من عند ربّ العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما همّوا به، فنهض مسرعًا، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما همّت به يهود.

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بني النضير يقول لهم: اخرجوا من المدينة ولا تساكُنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضُربت عنقه، ولم يجد يهود مناصاً من الخروج، فأقاموا أياماً يتجهّزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبي - بعث إليهم أن اثبتوا وتمنعوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين

(١) البخاري ٥٨٦/٢، ٥٨٧، ٥٨٨.

(٢) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود في باب خبر النضير ١١٦/٣، ١١٧ «عون المعبود شرح سنن أبي داود».

يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١] وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حبي بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حربًا بالنسبة إلى المسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأوا كلب العرب عليهم، وفنكهم الشنيع يبعوثرهم، ثم إن يهود بني النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم محفوفًا بالمكاره، إلا أن الحال التي جددت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التي أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادًا، وضاعفت نقيمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بني النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكن النتائج.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حبي بن أخطب كبر وكبر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم وسار إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفي ذلك يقول حسان:

وهان على سراة بني لؤي حريق بالبويرة مستطير

البويرة: اسم لنخل بني النضير، وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِن لِّسَنَةٍ أَوْ تَرَكُّوْهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا فَإِذِْنِ اللَّهُ﴾ [الحشر: ٥].

واعترلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرًا، أو يدفع عنهم شرًا، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦].

ولم يطل الحصار - فقد دام ست ليال فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة - حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهاووا للاستسلام وإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزّلوا على ذلك، وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير،

فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق إلى خيبر، وذَهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط يامين بن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً.

وكانت أموال بني النضير وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ، يضعها حيث يشاء، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دجانة وسهل بن حنيف الأنصاريين لفقرهما، وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله.

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٢٥م وأنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق في أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد في الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: قل: سورة النضير^(١).

هذه خلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة، وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سبباً آخر حول هذه الغزوة، وهو أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلنَّ صاحبنا أو لتفعلنَّ كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء - وهو الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبي ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً، حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلاً؟ اخرج في ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا، وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا (أي اليهود) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ،

(١) ابن هشام ١٩٠/٢، ١٩١، ١٩٢، زاد المعاد ٧١/٢، ١١٠، صحيح البخاري ٥٧٤/٢، ٥٧٥.

فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك النبي ﷺ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصروهم، وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيول والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة - والحلقة: السلاح - فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام^(١).

غزوة بدر الثانية:

ولما استدار العام، وحضر الموعد المضروب مع قريش - في غزوة أُحد - آن لرسول الله ﷺ وصحبه أن يخرجوا إلى بدر؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وليديروا رحى الحرب كرة أخرى، حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء.

ففي شعبان سنة ٤هـ يناير سنة ٦٢٦م، خرج رسول الله ﷺ لموعده في ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه علي بن أبي طالب، واستخلف على المدينة عبد الله ابن رواحة وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين.

وأما أبو سفيان، فخرج في ألفين من مشركي مكة، ومعهم خمسون فرساً، حتى انتهى إلى مر الظهران على بعد مرحلة من مكة فنزل بمجنة - ماء في تلك الناحية.

خرج أبو سفيان، من مكة متثاقلاً، يفكر في عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش! إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جذب، وإني راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضاً، فقد رجع الناس ولم يُبدوا أي مصادمة لهذا الرأي وأي إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا

(١) مصنف عبد الرزاق ٣٥٨/٥ - ٣٦٠، وسنن أبي داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في خبر النضير ١٥٤/٢.

بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبته في النفوس وسادوا على الموقف.

وتُعرف هذه الغزوة: ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى^(١).

غزوة دومة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون.

مكث بعد بدر الصغرى في المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل - قريباً من الشام - تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمرُّ بها، وأنها قد حشدت جمعاً كبيراً تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وخرج في ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ، وأخذ رجلاً من بني عذرة دليلاً للطريق يقال له: مذكور.

خرج يسير الليل ويكمن النهار؛ حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، فهجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب.

وأما أهل دومة الجندل ففرُّوا في كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحداً، وأقام رسول الله ﷺ أياماً، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحداً، ثم رجع إلى المدينة، وودع في تلك الغزوة عيينة بن حصن، ودُومة - بالضم، موضع معروف بمشارف الشام، بينها وبين دمشق خمس ليال، وبعدها من المدينة خمس عشرة ليلة.

بهذه الإقدامات السريعة الحاسمة، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبي ﷺ في بسط الأمن، وتنفيذ السلام في المنطقة والسيطرة على الموقف، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التي كانت قد توالى عليهم، وأحاطت بهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وتم إجلاء قبيلة من اليهود، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار وإيفاء العهود والمواثيق، واستكانت البدو والأعراب، وحادت قریش عن مهاجمة المسلمين، ووجد المسلمون فرصة لنشر الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين.

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢/٢٠٩، ٢١٠، زاد المعاد ٢/١١٢.

غزوة الأحزاب

عاد السلام والأمن، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعثات التي استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود - الذين كانوا قد ذاقوا ألواناً من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم - لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر، فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحلُّ بالمسلمين من خلال المناوشات التي كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين. ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخّضت الليالي والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطّد سلطانهم، تحرّق هؤلاء اليهود أي تحرّق.

وشرعوا في التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدّون العدة، لتهيئة ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها، ولما لم يكونوا يجدون في أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة، خطّطوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها في الخروج إلى بدر، فرأت في ذلك إنقاذ سمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشاً، فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ والمسلمين.

وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة - وقائدهم أبو سفيان - في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن ربيعة كما خرجت بنو أسد وغيرها.

واتجهت هذه الأحزاب، وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيخوخ.

ولو بلغت هذه الأحزاب المحزنة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين مما يقاس، ربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، لم تزل واضحة أناملها على العروق النابضة، تتجسس الظروف، وتقدر ما يتمخض عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشاري أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضي الله عنه. قال سلمان: يا رسول الله! إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا- وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك-.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا.

وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم في عملهم هذا، ففي البخاري عن سهل بن سعد، قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا^(١)، فقال رسول الله ﷺ:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للمهاجرين والأنصار^(٢)

وعن أنس: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم. فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا^(٣)

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عني الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعتة يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب، ويقول:

اللهم! لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

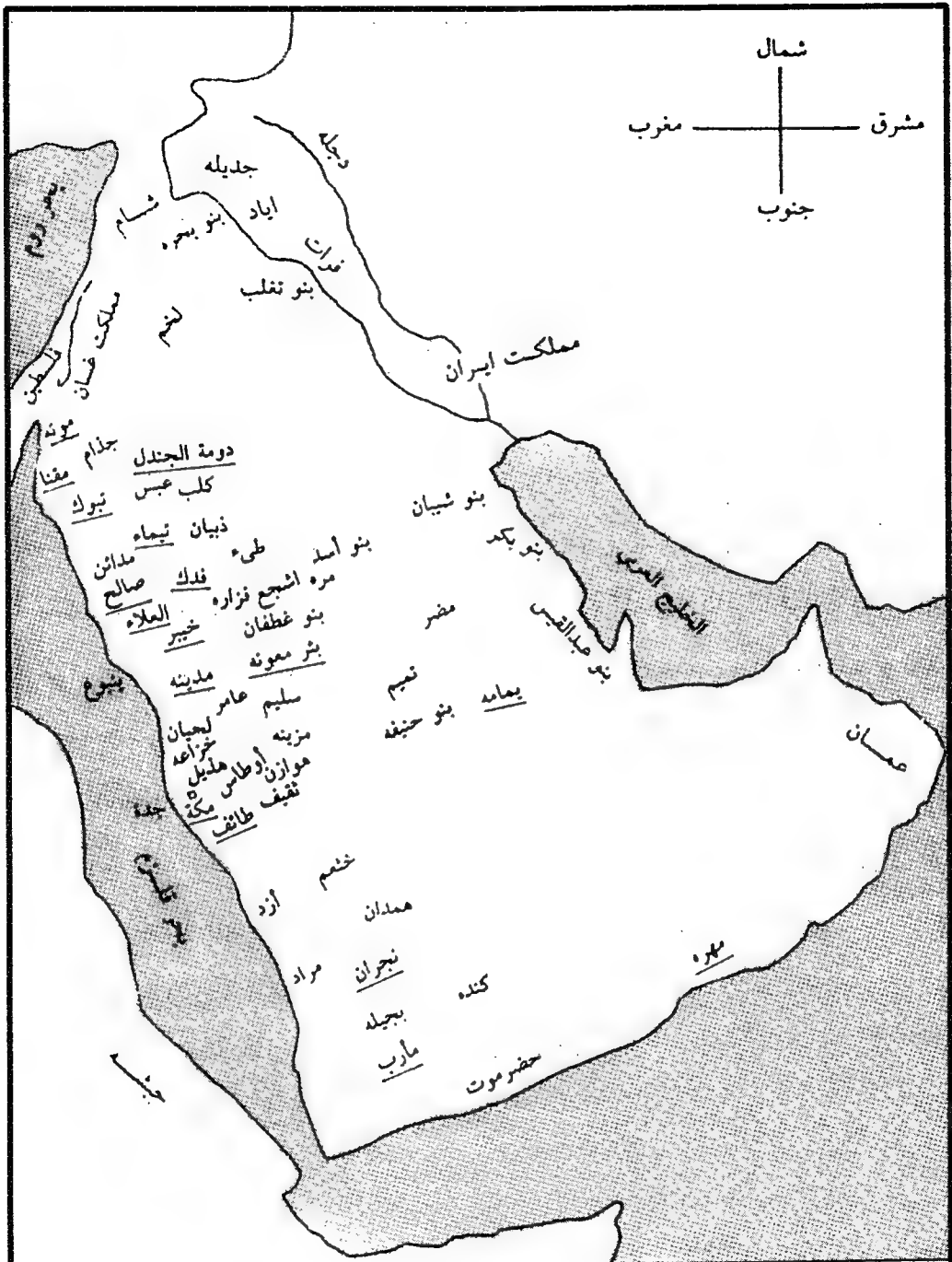
فأنزل سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد رغبوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

(١) أكتادنا: بالمشاة جمع كَيْد وهو ما بين الكاهل إلى الظهر.

(٢) صحيح البخاري باب غزوة الخندق ٥٨٨/٢.

(٣) المصدر نفسه.



الأسماء التي تحتها الخط
أماكن والبقية قبائل

أماكن والبقية قبائل

قال: ثم يمد بها صوته بآخرها، وفي رواية:

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا^(١)

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع، ما يفتت الأكباد قال أنس: (كان أهل الخندق) يؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سِنخة^(٢) توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق ولها ربح متن.

وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، ورفع رسول الله ﷺ عن حجرين^(٣).

وبهذه المناسبة وقع في حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، رأى جابر بن عبد الله في النبي ﷺ خمصاً شديداً، فذبح بهيمة وطحنت امرأته صاعاً من شعير ثم التمس من رسول الله ﷺ سرّاً أن يأتي في نفر من أصحابه، فقام النبي ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت برمة اللحم تغطّ به كما هي، وبقي العجين يُخبز كما هو^(٤). وجاءت أخت النعمان بن بشير بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى أبوه وخاله، فمرّت برسول الله ﷺ فطلب منها التمر وبدده فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه، وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه يسقط من أطراف الثوب^(٥).

وأعظم من هذين ما رواه البخاري عن جابر قال: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل» ثم قام وبطنه معصوب بحجر - ولبنا ثلاثة لا ندوق ذواقاً - فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيراً أهبل أو أهيم^(٦)، أي: صار رملاً لا يتماسك.

وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها المعاول، فاشتكى ذلك لرسول الله ﷺ، فجاء وأخذ المعول فقال: «بسم الله ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله! إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت فارس، والله! إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت

(١) المصدر نفسه ٥٨٩/٢.

(٢) المصدر نفسه ٥٨٨/٢. والإهالة: (الدهن الذي يؤتمد به سواء كان زيتاً أو سمّاً أو شحمًا سنخة: أي تغير طعمها ولونها من قدمها).

(٣) رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢.

(٤) روى ذلك البخاري ٥٨٨/٢، ٥٨٩.

(٥) ابن هشام ٢١٨/٢.

(٦) صحيح البخاري ٥٨٨/٢.

مفاتيح اليمن، والله! إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني»^(١).

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسي رضي الله عنه^(٢).

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال ويساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبي ﷺ يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمته المدينة - لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق في هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم في حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهلهم في المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة^(٣).

وأقبلت قريش في أربعة آلاف، حتى نزلت بمجتمع الأسياال من رومة بين الجرف وزغابة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد في ستة آلاف حتى نزلوا بذنب نقي إلى جانب أحد. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار. وكان شعارهم «حَمَّ لَا يَنْصُرُونَ»، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذراري فجعلوا في أطام المدينة.

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقاً عريضاً يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأساً.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضاباً، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، لينبوا به طريقاً يمكّنهم من العبور.

(١) المسند: ٣٠٣/٤ عن البراء بن عازب رضي الله عنه وقال في المجمع: ١٣٠/٦، ١٣١ وفيه ميمون أبو عبدالله وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات.

(٢) ابن هشام ٢/٢١٩.

(٣) المصدر نفسه ٣٠/٣٣١، ٣٣١.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى في ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وغيرهم، فتيّموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق ولسع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له علي بن أبي طالب، وقال كلمة حمي لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعفره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ، فتجاولا وتصارولا، حتى قتله علي رضي الله عنه، وانهزم الباقيون حتى اقتحموا من الخندق هارين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون في بعض الأيام محاولة بليغة، لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل وناضلوهم أشدّ النضال حتى فشل المشركون في محاولتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسبّ كفار قريش، فقال: يا رسول الله! ما كدت أن أصلي حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبي ﷺ: «والله! ما صليتها»، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب^(١).

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففي البخاري عن علي عن النبي ﷺ أنه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس»^(٢).

وفي مسند أحمد والشافعي أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهنّ جميعاً. قال النووي: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها. انتهى^(٣).

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين دامت أياماً، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر وحرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) شرح مسلم للنووي ٢٢٧/١.

وفي هذه المراماة قُتِل رجال من الجيشين، يُعدُّون على الأصابع ستة من المسلمين وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف.

وفي هذه المراماة رُمي سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأكل، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة، فدعا سعد: اللهم! إنك تعلم أنه ليس أحد أحبَّ إليَّ أن أجاهدكم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم! فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم؛ حتى أجاهدكم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتي فيها^(١). وقال في آخر دعائه: ولا تمنني حتى تقرأ عيني من بني قريظة^(٢).

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعي الدس والتآمر تتقلَّب في جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادهم. انطلق كبير مجرمي بني النضير إلى ديار بني قريظة، فأتى كعب بن أسد القرظي - سيد بني قريظة، وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب كما تقدَّم - فضرب عليه حيي الباب، فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيي: إني قد جئتكم يا كعب! بعز الدهر وبيحر طام، جئتكم بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نغمي إلى جانب أُحُد، قد عاهدوني وعاهدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.

فقال له كعب: جئتني والله! بذل الدهر وبيجهام قد هراق ماؤها، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء، ويحك يا حيي! فدعني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً.

فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين^(٣).

(١) صحيح البخاري ٥٩١/٣.

(٢) ابن هشام ٣٣٧/٣.

(٣) ابن هشام ٢٢٠/٢، ٢٢١.

وفعلًا قد قامت يهود بني قريظة بعمليات الحرب. قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب في فارح حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في نحور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت، قالت: فقلت يا حسان! إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله! ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله. قال: والله! لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فاحتجرت^(١) ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلتها، ثم رجعت إلى الحصن، وقلت: يا حسان! أنزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل. قال: ما لي بسلبه من حاجة^(٢).

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمدة الرسول ﷺ أثر عميق في حفظ ذراري المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون في منعة من الجيش الإسلامي - مع أنها كانت خالية عنهم تمامًا - فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن كدليل عملي على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملًا.

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلي موقف قريظة، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث لتحقيق الخبر السعدين: سعد بن معاذ، وسعد بن عباد، وعبد الله بن رواحة، وخوات بن جبير، وقال: «انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًا فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس». فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد. فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له، وقالوا: عضل وقارة، أي: أنهم على غدر، كخدر عضل وقارة بأصحاب الرجيع.

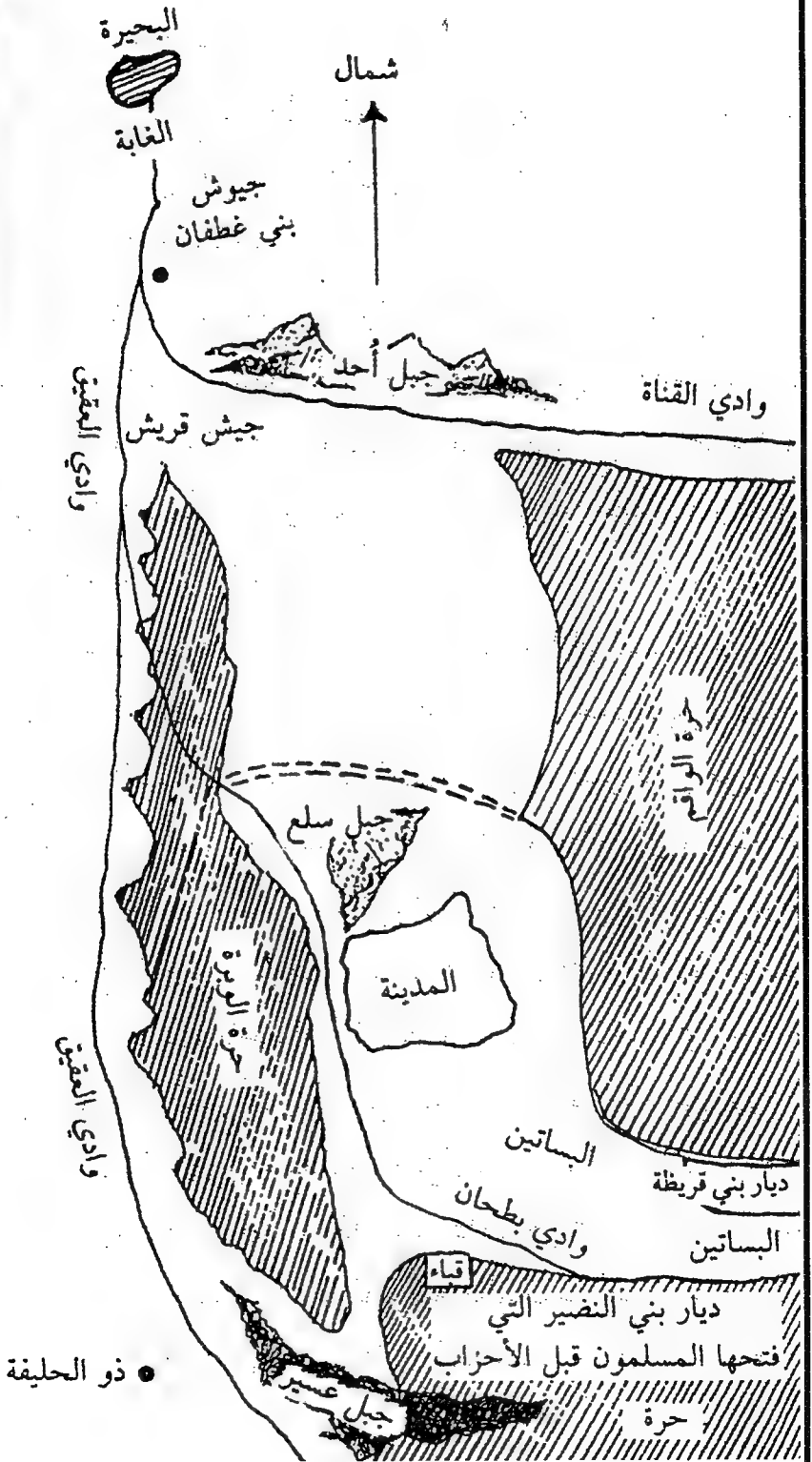
وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تظن الناس لجلية الأمر، فتجسّد أمامهم خطر رهيب. وقد كان أخرج موقف يفقه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من

(١) احتجرت: شدت وسطها.

(٢) ابن هشام ٢٢٨/٢ وذكر الحافظ ابن حجر أن أحمد رواه بإسناد قوي عن عبدالله بن الزبير. فتح الباري ٢٨٥/٦، كتاب فرض الخمس، باب ١٨.

خريطة غزوة الأحزاب

مجمع
الأسياال



ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذرايعهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصَرُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هَ هُنَاكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر في ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج، فترجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة، وحتى همت بنو سلمة بالفشل وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا هَ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَتَّهَلَّأُ الْيَرَبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣].

أما رسول الله ﷺ فتفتح بثوبه حين أتاه غدر قريظة، فاضطجع ومكث طويلاً، حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض يقول: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين! بفتح الله ونصره»، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لثلا تؤتى الذراري والنساء على غرة، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم، يفضي إلى تخاذل الأحزاب، وتحقيقاً لهذا الهدف أراد أن يصالح عيينة بن حصن والحارث بن عوف رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة؛ حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة على قريش التي اختبروا مدى قوتها وبأسها مراراً، وجرت المفاوضة على ذلك، فاستشار السعدين في ذلك، فقالا: يا رسول الله! إن كان الله أمرك بهذا فسمعا وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطعمون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله! لا نعطيهم إلا السيف، فصوب رأيهما وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة».

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمراً من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، وفلّ حدهم، فكان مما هياً من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي - رضي الله عنه - جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمрни ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة»، فذهب من فوره إلى بني قريظة - وكان عشيراً لهم في الجاهلية - فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه،

وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونسائهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهبوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم، قالوا فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش، وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن اليهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت من شوال - سنة ٥هـ - بعثوا إلى اليهود: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدًا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم هو يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإننا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله! نعيم، فبعثوا إلى اليهود: إنا والله! لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدًا. فقالت قريظة: صدقكم والله! نعيم، فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: «اللهم! استر عوراتنا وآمن روعاتنا» ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، قال: «اللهم! منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم! اهزمهم وزلزلهم»^(١).

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين، وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جندًا من الريح، فجعلت تقوِّض خيامهم، ولا تدع لهم قدرًا إلا كفاتها، ولا طنباً إلا قلعته، ولا يقرُّ لهم قرار، وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد ردَّ الله عدوه بغیظه لم ينالوا خيرًا، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة في شوال على أصحِّ القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرًا أو نحو شهر، ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت في شوال، ونهايته في ذي القعدة، وعند ابن سعد أن انصراف

(١) صحيح البخاري كتاب الجهاد ٤١١/١، وكتاب المغازي ٥٩٠/٢.

رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر؛ بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخّضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة، لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»^(١).

(١) صحيح البخاري ٥٩٠/٢.

غزوة بني قريظة

وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة.

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلِّين العصر إلا ببني قريظة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبي طالب، وقدمه إلى بني قريظة فسار علي حتى إذ دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها بئر: أنا، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يُرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلُّوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرَّك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالاً، حتى تلاحقوا بالنبي ﷺ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرساً، فنازلوا حصون بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد ﷺ في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم - وقد قال لهم: والله! لقد تبَّين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم - وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبي ﷺ بالسيوف مصليتين، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يُقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه، ويكبسوه يوم السبت؛ لأنهم قد آمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحيثُ قال سيدهم كعب بن أسد (في انزعاج وغضب): ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره، وكان حليفاً لهم، وكانت

أمواله وولده في منطقتهم، فلما رآوه قام إليه الرجال، وجهش النساء والصبيان ليكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم! وأشار بيده إلى حلقه، يقول إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ، حتى أتى المسجد النبوي بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدًا، فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال: أما أنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء، مع شدة التعب الذي اعتراهم؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدّم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وصاح علي: يا كتيبة! الإيمان، والله! لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم.

وحيثئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوُضِعَت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى، قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ». قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة، لم يخرج معهم؛ للجرح الذي كان أصاب أكحله في معركة الأحزاب، فأركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ، ففعلوا يقولون وهم كنفية: يا سعد! أجمل في مواليك فأحسن فيهم، فإن رسول الله ﷺ قد حَكَمَك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: «قوموا إلى سيدكم». فلما أنزلوه قالوا: يا سعد! إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ - وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالًا له وتعظيمًا - قال: «نعم وعليّ». قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل

الرجال، وتسبى الذرية، وتقسّم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات».

وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف، فإن بني قريظة - بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع - كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفاً وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحجفة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فَحَسِبْتَ بنو قريظة في دار بنت الحارث - امرأة من بني النجار - وَخَفِرَتْ لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم، فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله! القتل، وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فَضُرِبَتْ أعناقهم.

وهكذا تم استئصال أفاعي الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين في أخرج ساعة كانوا يمرون بها في حياتهم - وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمي الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام -.

وقتل مع هؤلاء شيطان بني النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان؛ وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيرة على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به - وعليه حُلَّةٌ قد شَقَّها من كل ناحية بقدر أنملة لثلا يسلمها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله ﷺ: أما والله! ما لُمْتُ نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يغلب، ثم قال: أيها الناس! لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثم جلس فَضُرِبَتْ عنقه.

وَقُتِلَ من نسائهم امرأة واحدة، كانت قد طرحت الرُحَى على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أنبت، وترك من لم ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القرظي، فترك حيًّا، فأسلم، وله صحبة.

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت - فوهبهم له، فقال ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله ﷺ إليّ، ووهب لي مالك وأهلك فهم لك. فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدي عندك يا ثابت! إلا ألحقتني بالأحبة، فضرب عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت - من ولد الزبير بن باطا - عبد الرحمن بن الزبير، فأسلم، وله صحبة. واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية

رفاعة بن سموأل القرظي، فوهبه لها، فاستحيته، فأسلم، وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر من قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذرائعهم، وخرج تلك الليلة عمرو - وكان رجلاً لم يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ - فراه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوي، فخلّى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بني قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم، سهمان للفارس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهمًا واحدًا، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصاري، فابتاع بها خيلًا وسلاحًا.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، فكانت عنده حتى توفي عنها وهي في ملكه، هذا ما قاله ابن إسحاق^(١) وقال الكلبي: إنه ﷺ أعتقها، وتزوجها سنة ٦هـ، وماتت مرجعه من حجة الوداع فدفعها بالبيع^(٢).

ولما أتم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه - التي قدمنا ذكرها في غزوة الأحزاب - وكان النبي ﷺ قد ضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتفضت جراحته، قالت عائشة: فانفجرت من لبته فلم يرفعهم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة! ما هذا يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغذوا جرحه دمًا، فمات منها^(٣).

وفي الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ»^(٤). وصحح الترمذي من حديث أنس: قال: لما حُمِلَتْ جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة كانت تحمله»^(٥).

قتل في حصار بني قريظة رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سويد، الذي طرحت عليه الرchy امرأة من قريظة، ومات في الحصار أبو سنان بن محصن أخو عكاشة.

أما أبو لبابة، فأقام مرتبطًا ست ليال، تأتیه امرأته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجدع، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سحرًا، وهو في بيت أم سلمة، فقامت على باب حجرتها، وقالت لي: يا أبا لبابة! أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلقوه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ، فلما مر النبي ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح

(١) انظر ابن هشام ٢/٢٤٥.

(٢) تلقح فهم أهل الأثر ص ١٢.

(٣) صحيح البخاري ٢/٥٩١.

(٤) صحيح البخاري ١/٥٣٦، وصحيح مسلم ٢/٢٩٤، وجامع الترمذي ٢/٢٢٥.

(٥) جامع الترمذي ٢/٢٢٥.

أطلقه.

وقعت هذه الغزوة في ذي القعدة سنة ٥ هـ، ودام الحصار خمسًا وعشرين ليلة^(١).

وأُنزل الله تعالى في غزوة الأحزاب وبني قريظة آيات من سورة الأحزاب، ذكر فيها أهم جزئيات الواقعة، وبين حال المؤمنين والمنافقين، ثم تخذيل الأحزاب، ونتائج الغدر من أهل الكتاب.

(١) ابن هشام ٢٣٧/٢، ٢٣٨، وانظر لتفصيل هذه الغزوة ابن هشام ٢٣٣/٢ إلى ٢٧٣ وصحيح البخاري ٥٩٠/٢، ٥٩١، زاد المعاد ٧٢/٢، ٧٣، ٧٤.

النشاط العسكري بعد هذه الغزوة

مقتل سلام بن أبي الحقيق:

كان سلام بن أبي الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمي اليهود، الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة^(١)، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتله، وكان قتل كعب ابن الأشرف على أيدي رجال من الأوس، فرغبت الخزرج في إحراز فضيلة مثل فضيلتهم؛ فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

وأذن رسول الله ﷺ في قتله، ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بني سلمة من الخزرج، قائدهم عبد الله بن عتيك.

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خير، إذ كان هناك حصن أبي رافع، فلما دنوا منه - وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرهم - قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلِّي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنّع بثوبه كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب.

قال عبد الله بن عتيك: فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على ود^(٢) قال: فقمتم إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليّ من داخل. قلت: إن القوم لو نذروا بي لم يخلصوا إليّ حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله، لا أدري أين هو من البيت. قلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئاً، وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: وما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأملك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربة أثختته ولم أقتله. ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنني قتلتها، فجعلت أفتح

(١) انظر فتح الباري ٣٤٣/٧.

(٢) أي المفاتيح على وتد.

الأبواب بابًا بابًا، حتى انتهت إلى درجة له، فوضعت رجلي، وأنا أرى أنني قد انتهت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب. فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك صاح الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهت إلى النبي ﷺ، فحدثته فقال: «ابسط رجلك»، فبسطت رجلي فمسحها فكأنما لم أشتكها^(١).

هذه رواية البخاري، وعند ابن إسحاق أن جميع نفر دخلوا على أبي رافع، واشتركوا في قتله، وأن الذي تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس، وفيه أنهم لما قتلوه ليلاً، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه، وأتوا منهراً من عيونهم، فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران، واشتدوا في كل وجه، حتى إذا يشسوا رجعوا إلى أصحابهم، وإنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ^(٢).

كان مبعث هذه السرية في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة ٥هـ^(٣).

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة، أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة.

سرية محمد بن مسلمة:

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً.

تحركت هذه السرية إلى القرطاء، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦هـ إلى بطن بني بكر بن كلاب، فلما أغارت عليهم هرب سائرهم، فاستاق المسلمون نعمًا وشاءً، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثمانية بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، كان قد خرج متكرراً لاغتيال النبي ﷺ بأمر من مسيلمة الكذاب^(٤)، فأخذه المسلمون، فلما جاؤوا به ربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟» فقال: عندي خير يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه، ثم مرّ به مرة أخرى، فقال له مثل ذلك، فردّ عليه كما ردّ عليه أولاً، ثم مرّ مرة ثالثة

(١) صحيح البخاري ٥٧٧/٢.

(٢) ابن هشام ٢٤٧/٢، ٢٧٥.

(٣) رحمة للعالمين ٢٢٣/٢ مع ما يؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة في غزوة الأحزاب وقريظة.

(٤) السيرة الحلبية ٢٩٧/٢.

فقال - بعد ما دار بينهما الكلام السابق: «أطلقوا ثمامة»، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله! ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ، والله! ما كان على وجه الأرض دين أبغض عليّ من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فبشّرهُ رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم على قريش قالوا: صبأت يا ثمامة! قال: لا والله! ولكني أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله! لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ^(١).

غزوة بني لحيان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع، وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل في البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦هـ في مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غران - واد بين أمج وعسفان، حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم - وسمعت به بنو لحيان، فهربوا في رؤوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدرُوا عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة، وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ في إرسال البعوث والسرايا، وهاك صورة مصغرة منها:

١ - سرية عكاشة بن محصن إلى الغمر، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج عكاشة في أربعين رجلاً إلى الغمر، ماء لبني أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة.

٢ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة، في ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج ابن

- مسلمة في عشرة رجال إلى القصة في ديار بني ثعلبة، فكمن القوم لهم - وهم مائة - فلما ناموا قتلوهم، إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحًا.
- ٣ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة، في ربيع الآخر سنة ٦هـ. وقد بعثه النبي ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج معه أربعون رجلًا إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بني ثعلبة مع الصبح، فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هربًا في الجبال، وأصابوا رجلًا واحدًا فأسلم، وغنموا نعمًا وشاء.
- ٤ - سرية زيد بن حارثة إلى الجموم، في ربيع الآخر سنة ٦هـ. والجموم ماء لبني سليم في مر الظهران، خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مزينة يقال لها حليلة، فدلّتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نعمًا وشاء وأسرى، فلما قفل بما أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزينة نفسها وزوجها.
- ٥ - سرية زيد أيضًا إلى العيص، في جمادى الأولى سنة ٦هـ في سبعين ومائة راكب، وفيها أُخِذَت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ، وأفلت أبو العاص فأتى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ ردّ أموال العير عليه، ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برّد الأموال من غير أن يكرههم، فردّوا الكثير والقليل والكبير والصغير، حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدّى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فردّ عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف. كما ثبت في الحديث الصحيح^(١) ردّها بالنكاح الأول؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه ردّ عليه بنكاح جديد أو ردّ عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى، كما أنه ليس بصحيح سندًا^(٢). والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف، فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم في أواخر سنة ثمان قبيل الفتح، ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت في أوائل سنة ثمان. وقد بسطنا الكلام شيئًا في تعليقنا على بلوغ المرام^(٣)، وجنح موسى بن عقبة إلى أن هذا الحادث وقع في سنة سبع من قبل أبي بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف.
- ٦ - سرية زيد أيضًا إلى الطرف - أو الطرق - في جمادى الآخرة سنة ٦هـ خرج زيد في خمسة عشر رجلًا إلى بني ثعلبة، فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب من نعمهم عشرين بعيرًا، وغاب أربع ليال.

(١) انظر سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها.

(٢) انظر الكلام على الحديثين في تحفة الأحوذى ١٩٥/٢، ١٩٦.

(٣) وممن ذكر هذه السرية في حوادث سنة ٦هـ ابن حجر في فتح الباري ٤٩٨/٧.

٧ - سرية زيد أيضًا إلى وادي القرى، في رجب سنة ٦ هـ خرج زيد في اثني عشر رجلًا إلى وادي القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادي القرى، فقتلوا تسعة، وأفلت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة^(١).

٨ - سرية الخبط: تذكر هذه السرية في رجب سنة ٨ هـ ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية، قال جابر: بعثنا النبي ﷺ في ثلاثمائة راكب أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيرًا لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسَمَّى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العنبر، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنَّا منه، حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا له ذلك، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء تطعمونا»، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه^(٢).

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنه كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لغير قريش بعد صلح الحديبية.

(١) رحمة للعالمين ٢/٢٢٦، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور، وزاد المعاد ٢/١٢٠، ١٢١، ١٢٢، وحواشي تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٨، ٢٩.

(٢) صحيح البخاري ٢/٦٢٥، ٦٢٦، صحيح مسلم ٢/١٤٥، ١٤٦.

غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع

(في شعبان سنة ٥ أو ٦هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف، من حيث الوجهة العسكرية؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس. ونسرد الغزوة أولاً، ثم نذكر تلك الوقائع.

كانت هذه الغزوة في شعبان سنة خمس عند عامة أهل السَّيَر، وسنة ست من الهجرة على قول ابن إسحاق^(١). وسببها أنه بلغه ﷺ أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي؛ لتحقيق الخبر فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع في الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أبا ذر، وقيل نميلة بن عبد الله الليثي، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عيناً؛ ليأتيه بنجر الجيش الإسلامي، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

ولما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفاً شديداً، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسيع - بالضم فالتفتح مصغراً، اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل - فتهيأوا للقتال، وصف

(١) واستدل على ذلك بما ثبت في حديث الإفك من أن القضية كانت بعدما أنزل الحجاب، وآية الحجاب نزلت في شأن زينب، وزينب إذ ذاك كانت تحته، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت: أحمي سمعي وبصري. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ، وقد عقد عليها النبي ﷺ في أواخر سنة خمس بعد غزوة بني قريظة وأما ما وقع في حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عباد تنازعا في أصحاب الإفك، ومعلوم أن سعد بن معاذ مات عقب غزوة بني قريظة، فالظاهر أن هذا وهم الراوي، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ بل ذكر أسيد بن حضير، قال أبو محمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، وذكر سعد بن معاذ وهم (وانظر زاد المعاد ١١٥/٢) وأما الذين قالوا بوقوع هذه الغزوة سنة ٥هـ فقد قدموا عقده ﷺ على زينب إلى السنة الرابعة، أو أوائل السنة الخامسة، وقالوا: إن ذكر سعد بن معاذ ليس بهم، بل هو ثابت تماماً. والله أعلم.

رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عباد، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصر. وانهزم المشركون، وقُتِلَ من قُتِلَ، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظناً منه أنه من العدو.

كذا قال أهل المغازي والسير، قال ابن القيم: وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح: أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون، وذكر الحديث^(١) انتهى.

وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبتها، فأدّى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ^(٢).

وأما الوقائع التي حدثت في هذه الغزوة؛ فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبي وأصحابه؛ نرى أن نورد أولاً شيئاً من أفعالهم في المجتمع الإسلامي.

دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق:

قدمنا مراراً أن عبد الله بن أبي كان يحق على الإسلام والمسلمين، ولا سيما على رسول الله ﷺ حقاً شديداً. لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخرز؛ ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام، فصرفهم عن ابن أبي، كان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذي استلبه ملكه.

وقد ظهر حقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام، وبعد أن تظاهر به ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار؛ ليعود سعد بن عباد، فمرّ بمجلس فيه عبد الله بن أبي، فخرم ابن أبي أنفه وقال: لا تغبروا علينا، ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس القرآن، قال: اجلس في بيتك، ولا تغشنا في مجلسنا^(٣).

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام، ولما تظاهر به بعد بدر، لم يزل إلا عدواً لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي، وتوهين كلمة الإسلام، وكان يوالي أعداءه، وقد تدخل في أمر بني قينقاع كما ذكرنا، وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوفهم بما مضى.

(١) وانظر صحيح البخاري كتاب العتق ٣٤٥/١ وانظر أيضاً فتح الباري ٣٤١/٧.

(٢) زاد المعاد ١١٢/٢، ١١٣، ابن هشام ٢٨٩/٢، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥.

(٣) ابن هشام ٥٨٤/١، ٥٨٧. صحيح البخاري ٩٢٤/٢، وصحيح مسلم ٩/٢.

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة، فيقول: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه، وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أخذ - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس أي عدو الله! لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله! لكأنما قلت بجرًا أن قمت أشدد أمره، فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله! ما أبتغي أن يستغفر لي^(١).

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين، حتى قال لهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولئن قُوتلتم لننصرنكم.

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب، وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قصَّ الله تعالى في سورة الأحزاب ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إلى قوله: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَثْلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٢-٢٠].

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيدًا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادي، وكثرة السلاح والجيوش والعدد؛ وإنما السبب هي القيم والأخلاق والمثل التي يتمتع بها المجتمع الإسلامي، وكل من يمت بصلة إلى هذا الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ، الذي هو المثل الأعلى - إلى حد الإعجاز - لهذه القيم.

كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن بطريق استخدام السلاح، فقرَّروا أن يشنوا حربًا دعائية واسعة ضد هذا الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول أول هدف لهذه الدعاية الكاذبة، ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس في صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين. تحمَّل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم ابن أبي.

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلي، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذي تبناه، فلما تزوج النبي ﷺ بزينب وجد المنافقون ثلمتين - حسب زعمهم - لإثارة المشاغب ضد النبي ﷺ.

الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن في الزواج بأكثر من أربع نسوة، فكيف صحَّ له هذا الزواج.

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه - متبناه - فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب - وأكثروا من الدعاية في هذا السبيل، واختلقوا قصصاً وأساطير، قالوا: إن محمداً رآها بغتة، فتأثر بحسنها فشغفه حباً، وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلّى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلفة نشرًا بقيت آثاره في كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثرت تلك الدعاية أثراً قوياً في صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات، فيها شفاء لما في الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

وهذه إشارات عابرة، وصورة مصغرة مما اقترفه المنافقون قبل غزوة بني المصطلق، وكان النبي ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطّف، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرمهم، أو يتحملونه بالصبر، إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى، حسب قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَافٍ مَّرَّةٍ أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

دور المنافقين في غزوة بني المصطلق:

ولما كانت غزوة بني المصطلق، وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْصَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر فأثاروا الارتباك الشديد في صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبي ﷺ، وهاك بعض التفصيل عنها.

١ - قول المنافقين: (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل):

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزو مقيماً على المريسيع، ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجبر يقال له: جهجاه الغفاري، فازدحم هو وسان بن وبر الجهني على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين! فقال رسول الله ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة». وبلغ ذلك عبد الله ابن أبي ابن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال:

أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله! ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله! لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتهم بلادكم، وقاسمتهم أموالكم، أما والله! لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر، فقال عمر: مر عباد ابن بشر فليقتله. فقال: «فكيف يا عمر! إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذن بالرحيل». وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقه أسيد بن حضير فحياه، وقال: لقد رحت في ساعة منكراً؟ فقال له: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» - يريد ابن أبي - فقال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» قال: فأنت يارسول الله! تخرجه منها إن شئت، هو والله! الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يارسول الله! ارفق به، فوالله! لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكاً.

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى أذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نياماً. فعل ذلك؛ ليشغل الناس عن الحديث.

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ، وحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، فصدقه، قال زيد: فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتِفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١] إلى قوله: ﴿هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ إلى: ﴿لِيُخْرِجَ الْأَعْرَضَ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، فأرسل رسول الله ﷺ فقرأها عليّ، ثم قال: «إن الله قد صدقك»^(١).

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلاً صالحاً من الصحابة الأخيار، فبتراً من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبي قال له: والله! لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبي ﷺ أذن له، فخلّى سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي: يا رسول الله! إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله! أحمل إليك رأسه^(٢).

(١) انظر صحيح البخاري ٤٩٩/١، ٧٢٧/٢، ٧٢٨، ٧٢٩، وابن هشام ٢٩٠/٢، ٢٩١، ٢٩٢.

(٢) نفس المصدر الأخير، ومختصر السيرة للشيخ عبده النجدي ص ٢٧٧.

حديث الإفك:

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء نفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته؛ لأنها رضي الله عنها كانت فتية السن لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها، وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حملة واحدًا أو اثنين لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، والله غالب على أمره، يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عينها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟، وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسًا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه، ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه - لما استلبت الوحي طويلًا - في فراقها، فأشار عليه علي رضي الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها، تلويحًا لا تصريحًا، وأشار عليه أسامة وغيره بإمسакها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء، فقام على المنبر يستعذر من عبد الله بن أبي، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتله، فأخذت سعد بن عباد - سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي - الحمية القبلية، فجرى بينهما كلام تثار له الحيان، فحفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت.

أما عائشة؛ فلما رجعت مرضت شهرًا، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئًا، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي، فلما نهت خرجت مع أم مسطح إلى البراز ليلاً، فعثرت أم مسطح في مرطها، فدعت على ابنها، فاستنكرت ذلك عائشة منها، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ؛ لتأتي أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت تبكي، فبكت ليلتين ويومًا، لم تكن تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظننت أن البكاء فاتق كبدها، وجاء

رسول الله ﷺ بين يديه، وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور في الحرب، وقال له: «إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم» فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تماضر بنت الأصبع، وهي أم أبي سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

٢ - سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك، في شعبان سنة ٦هـ. وذلك أنه بلغ رسول الله أن بها جمعاً يريدون أن يمدّوا اليهود، فبعث إليها عليّاً في مائتي رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عيناً لهم، فأقر أنهم بعثوه إلى خير يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خبير، ودلّ العين على موضع تجمع بني سعد، فأغار عليهم علي، فأخذ خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن، وكان رئيسهم وبر بن عليم.

٣ - سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القرى، في رمضان سنة ٦هـ. كان بطن فزارة يريد اغتيال النبي ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق. قال سلمة بن الأكوع: وخرجت معه، حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة، فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل، ورأيت طائفة وفيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، فيهم امرأة هي أم قرفة عليها قشع من أديم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكتشف لها ثوباً، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة، فبعث بها إلى مكة، وفدي بها أسرى من المسلمين هناك^(١).

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبي ﷺ، وجّهزت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك، فلاقت جزاءها وقُتِل الثلاثون.

٤ - سرية كرز بن جابر الفهري^(٢) إلى العرنين، في شوال سنة ٦هـ وذلك أن رهطاً من عكل وعرينة أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها، فبعثهم رسول الله ﷺ في ذود في المرعى، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صَحُّوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم، فبعث في طلبهم كرزاً الفهري في عشرين من الصحابة، ودعا على العرنين: «اللهم! اعم عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيّق من مسك» فعمى الله عليهم السبيل، فأدركوا، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلت أعينهم، جزاء وقصاصاً بما فعلوا، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا^(٣) وحديثهم في الصحيح عن أنس^(٤).

(١) انظر صحيح مسلم ٨٩/٢ ويقال: إن هذه السرية كانت سنة سبع.

(٢) هذا هو الذي كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر في غزوة سفوان ثم أسلم وقتل شهيداً يوم فتح مكة.

(٣) زاد المعاد ١٢٢/٢.

(٤) صحيح البخاري ٦٠٢/٢.

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضمري مع سلمة بن أبي سلمة، في شوال سنة ٦هـ، أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبي سفيان، لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابياً لاغتيال النبي ﷺ، بيد أن المبعوثين لم ينجحوا في الاغتيال، لا هذا، ولا ذاك، ويذكرون أن عمرًا قُتل في الطريق ثلاثة رجال، ويقولون إن عمرًا أخذ جثة الشهيد خبيب في هذا السفر، والمعروف أن خبيبًا استشهد بعد الرجيع بأيام أو أشهر، ووقعة الرجيع كانت في صفر سنة ٤هـ، فلا أدري هل اختلط السفران على أهل السير، أو كان الأمران في سفر واحد في السنة الرابعة، وقد أنكر العلامة المنصورفوري أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة. والله أعلم.

هذه هي السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبني قريظة، لم يجر في واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد، ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يكن بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية.

عمرة الحديبية (في ذي القعدة سنة ٦هـ)

سبب عمرة الحديبية:

ولما تقدّم التطور في الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئاً فشيئاً، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان قد صدّ عنه المشركون منذ ستة أعوام. أَرى رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتَمروا، وَحَلَقَ بعضهم وقَصَّرَ بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهّزوا للسفر.

استنفار المسلمين:

واستنفر العرب ومن حوله من البوادي ليخرجوا معه، فأبطاء كثير من الأعراب، أما هو فغسل ثيابه، وركب ناقته القصواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نميلة الليثي، وخرج منها يوم الإثنين غرة ذي القعدة سنة ٦هـ، ومعه زوجته أم سلمة، في ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب.

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك في اتجاه مكة، فلما كان بذي الحليفة قلّد الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان أناه عينه، فقال: إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش^(١)، وجمعوا لك جموعاً وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت. واستشار النبي ﷺ أصحابه وقال: «أترون نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه؟» فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، لم نجيء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا»، فراحوا.

(١) هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة وبنو المصطلق الحياء بن سعد بن عمر، وبنو الهون بن خزيمة. فحالفوا قريشاً عند جبل حُبشي - بضم فسكون فكسر، جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك - فسموا أحابيش قريش باسم الجبل.

محاولة قريش صدّ المسلمين عن البيت :

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبي ﷺ عقدت مجلسًا استشاريًا، قرّرت فيه صدّ المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش، نقل إليه رجل من بني كعب أن قريشًا نازلة بذى طوى، وأن مائتي فارس في قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكراع الغميم، في الطريق الرئيسي الذي يوصل إلى مكة. وقد حاول خالد صدّ المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يترأى الجيشان، ورأى خالد المسلمين في صلاة الظهر يركعون ويسجدون فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرّر أن يميل على المسلمين - وهم في صلاة العصر - ميلاً واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت الفرصة خالداً.

تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامي :

وأخذ رسول الله ﷺ طريقاً وعرّاً بين شعاب، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهري الحمش، وفي طريق على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسي الذي يفضي إلى الحرم مارّاً بالتنعيم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد قتره الجيش الإسلامي قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرّات الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمّد^(١) قليل الماء، إنما يتبرضه^(٢) الناس تبرضاً، فلم يلبث أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله! ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا.

بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش :

ولما اطمأنّ رسول الله ﷺ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة^(٣) نصح لرسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل^(٤)، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ:

(١) ثمّد : حوض.

(٢) يتبرض : يأخذ منه القليل.

(٣) عيبة نصح الرجل: موضع سره.

(٤) استعار العوذ المطافيل للنساء مع أولادهن، والعوذ: الإبل حديثة التاج، والمطافيل: التي معها أولادها.

«إنا لم نجىء لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد أنهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاؤوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال فوالذي نفسي بيده! لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذ الله أمره».

قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إني قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعتة يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فبعثت قريش مكرز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر» فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم.

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحليس بن علقمة -: دعوني آته. فقالوا: آته. فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها» فبعثوها له، واستقبله القوم يلبن، فلما رأى ذلك. قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا، وجرى بينه وبين قريش كلام أحفظه.

فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آته فقالوا: آته، فاتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد! أرايت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك، وإن تكن الأخرى فوالله! إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس خلقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد كانت عندي لم أجرك بها لأجبتك، وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه وقال: من ذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر، أو لست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صاحب قومًا في الجاهلية فقتلهم، وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء» (وكان المغيرة ابن أخي عروة).

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وعلاقتهم به، فرجع إلى أصحابه، فقال: أي قوم! والله! لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشي، والله! ما رأيت ملكاً

يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله! إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

هو الذي كف أيديهم عنكم:

ولما رأى شباب قريش الطائشون، الطامحون إلى الحرب، رغبة زعمائهم في الصلح، فكروا في خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلاً ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويحدثوا أحداثاً تشعل نار الحرب، وفعلوا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلاً فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعاً، ورغبة في الصلح أطلق سراحهم النبي ﷺ وعفا عنهم، وفي ذلك أنزل الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤].

عثمان بن عفان سفيراً إلى قريش:

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيراً يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم، فاعتذر قائلاً: يا رسول الله! ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعاه، وأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم تأت لقتال، وإنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام». وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفي فيها أحد بالإيمان.

فانطلق عثمان حتى مر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله كذا وكذا، قالوا: قد سمعنا ما تقول: فانفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به ثم أسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش. فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، لكنه رفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم في الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قُتِلَ، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته تلك الإشاعة: «لا نبرح حتى نناجز

القوم» ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، في أول الناس ووسطهم وآخرهم، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «هذه عن عثمان» ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلّف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له: جد بن قيس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وكان عمر آخذًا بيده، ومعقل بن يسار آخذًا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ، وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ الآية [الفتح: ١٨].

إبرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش حراجة الموقف، فأسرعت إلى بعث سهيل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت له أن لا يكون في الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا. فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال: «قد سهل لكم أمركم، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» فجاء سهيل فتكلّم طويلًا، ثم اتفقا على قواعد الصلح وهي هذه:

- ١ - الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، معهم سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من أنواع التعرض.
- ٢ - وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض.
- ٣ - من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزءًا من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.
- ٤ - من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه - أي: هاربًا منهم - ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد - أي: هاربًا منه - لم يرّد عليه.

ثم دعا عليًا ليكتب الكتاب، فأملى عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله! لا ندري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم. فأمر النبي ﷺ عليًا بذلك، ثم أملى (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله) فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صدناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال: «إني رسول الله وإن كذبتُموني» وأمر عليًا أن يكتب محمد بن عبد الله، ويمحو لفظ رسول الله، فأبى علي أن يمحو هذا اللفظ، فمحاه ﷺ بيده، ثم تمت كتابة الصحيفة، ولما تمّ الصلح دخلت خزاعة في عهد

رسول الله ﷺ وكانوا حليف بني هاشم منذ عهد عبد المطلب كما قدّمنا في أوائل المقالة، فكان دخولهم في هذا العهد؛ تأكيداً لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر في عهد قريش؟
ردّ أبي جندل:

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده. فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد» فقال: فوالله! إذا لا أقاضيك على شيء أبداً. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي» قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل» قال: ما أنا بفاعل. وقد ضرب سهيل أبا جندل في وجهه، وأخذ بتلابيبه وجره؛ ليردّه إلى المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أأرّدُ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطيناهم عهد الله فلا نغدر بهم».

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل! فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدني قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، ففضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

النحر والحلق للحل عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال: «قوموا، فانحروا» فوالله! ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلّم أحداً كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جملًا كان لأبي جهل، كان في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلّقين ثلاثاً بالمغفرة وللمقصّرين مرة، وفي هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام، أو الصدقة، أو النسك في شأن كعب بن عجرة.

الإباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات فسأل أولياؤهن أن يردّهن عليهن بالعهد الذي تم في الحديبية، فرفض طلبهن هذا، بدليل أن الكلمة التي كتبت في المعاهدة بصدد هذا البند هي: (وعلى أنه لا

يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا^(١) فلم تدخل النساء في العقد رأسًا. وأنزل الله في ذلك: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَجَّرَاتٍ فَاَمْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعَصَمِ الْكَوْفَرِ﴾، فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَيِّنُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرَكَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ [المتحنة: ١٢] إلخ، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: قد بايعتك. ثم لم يكن يردهن.

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، تزوج بإحدهما معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة:

هذه هي هدنة الحديبية، ومن سبر أغوار بنودها مع خلفياتها لا يشك أنها فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أي اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يومًا ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية، وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية في جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشًا لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل لفحواه على أن قريشًا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لا تهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت في الإسلام بأجمعها، فلا يهم ذلك قريشًا، ولا تتدخل في ذلك بأي نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلًا ذريعًا بالنسبة إلى قريش؟ وفتحًا مبيّنًا بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التي جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذي يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس في العقيدة والدين: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] لا يحول بينهم وبين ما يريدون أي قوة من القوات، وقد حصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله في الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحًا كبيرًا في الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة؛ صار عدد الجيش الإسلامي في سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثاني؛ فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ بَدَءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣]، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها، وصدّها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته فالعقد بوضع

الحرب عشر سنين حد لهذه الغطوسة والصد، ودليل على فشل من بدأ الحرب وضعفه وانهاره.

أما البند الأول؛ فهو حد لصدّ قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضًا فشل لقريش، وليس فيه ما يشفي قريشًا سوى أنها نجحت في الصدّ لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط، وهي ما في البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدًا، ليس فيها شيء يضرّ بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلمًا لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفرّ إلا إذا ارتدّ عن الإسلام ظاهرًا أو باطنًا، فإذا ارتدّ فلا حاجة إليه للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامي خير من بقاءه فيه، وهذا الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله^(١)، وأما من أسلم من أهل مكة - فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل - لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئًا؟ وهذا الذي أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»^(٢).

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه في الحقيقة ينبيء عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخورهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثني، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جرف هار، لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ. وما سمح به النبي ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلًا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط.

حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ:

هذه هي حقيقة بنود هذه الهدنة، لكن هناك ظاهرتان عمّت لأجلهما المسلمين كآبة وحزن شديد، الأولى: أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتي البيت فنطوف به، فماله يرجع ولم يطف به؟.

الثانية: أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق، والله وعد إظهار دينه، فماله قبل ضغط قريش، وأعطى الدنية في الصلح؟ كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون. وصارت مشاعر المسلمين لأجلهما جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير في عواقب بنود الصلح، ولعل أعظمهم حزنًا كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى». قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم

(١) صحيح مسلم باب صلح الحديبية ١٠٥/٢.

(٢) المصدر نفسه.

في النار؟ قال: «بلى». قال: فقيم نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: «يا ابن الخطاب! إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري، ولن يضيعني أبداً». قال: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتكم أنا نأتيه العام؟» قال: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

ثم انطلق عمر متغيظاً فأتى أبا بكر، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ، وردَّ عليه أبو بكر، كما ردَّ عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله! إنه لعلی الحق.

ثم نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلخ فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله! أو فتح هو؟ قال: «نعم». فطابت نفسه ورجع.

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندماً شديداً. قال عمر: فعلت لذلك أعمالاً، مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً^(١).

انحلت أزمة المستضعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، واطمأنَّ بها، انفلت رجل من المسلمين، ممن كان يُعَذَّب من مكة، وهو أبو بصير رجل من ثقيف حليف لقريش، فأرسلوا في طلبه رجلين وقالوا للنبي ﷺ العهد الذي جعلت لنا، فدفعه النبي ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله! إني لأرى سيفك هذا يا فلان! جيداً. فاستلَّه الآخر، فقال: أجل. والله! إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد.

وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل صاحبي، وإنني لمقتول، فجاء أبو بصير وقال: يا نبي الله! قد والله! أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، قال رسول الله: «ويل أمه، مسعر حرب لو كان له أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة. فوالله! ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والهدنة، فتح الباري ٤٣٩/٧ إلى ٤٥٨، صحيح البخاري ٣٧٨/١، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٥٩٨/٢، ٦٠٠، ٧١٧، صحيح مسلم ١٤٠/٢، ١٠٥، ١٠٦، ابن هشام ٣٠٨/٢ إلى ٣٢٢، زاد المعاد ١٢٢/٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص ٣٩، ٤٠.

قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، فقدموا عليه المدينة^(١).

إسلام أبطال من قريش:

وفي أوائل سنة ٧ من الهجرة بعد هذه الهدنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال: «إن مكة قد ألفت إلينا أفلاذ كبدها»^(٢).

(١) المصادر السابقة.

(٢) اختلفوا كثيراً في تعيين السنة التي أسلم فيها هؤلاء الصحابة، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح أنها سنة ثمان، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشي معروفة، وأسلم خالد وعثمان بن طلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه في الطريق، وحضر الثلاثة عند النبي ﷺ وأسلموا وهذا يقتضي أنهم أسلموا في أوائل سنة سبع. والله أعلم.

المرحلة الثانية

طور جديد

إن صلح الحديبية كانت بداية طور جديد في حياة الإسلام، والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها في عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام، انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغطفان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية وزعيمتها في ربوع جزيرة العرب، انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجُلَّ ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود.

أما اليهود فقد كانوا جعلوا خير بعد جلائهم عن يثرب وَكُرًا للذَّس والتَّأمر، كانت شياطينهم تبيض هناك وتفرِّخ، وتؤجج نار الفتنة، وتُغري الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبي ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبي ﷺ بعد الهدنة هو شُنُّ الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

ولكن هذه المرحلة التي بدأت بعد الهدنة أعطت للمسلمين فرصة كبيرة، لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين في هذا المجال، وبرز نشاطهم في هذا الوجه على نشاطهم العسكري. ولذلك نرى أن تُقسَّم هذه المرحلة على قسمين:

(١) النشاط في مجال الدعوة، أو مكاتبة الملوك والأمراء.

(٢) النشاط العسكري.

وقبل أن نتابع النشاط العسكري في هذه المرحلة، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء، إذ الدعوة الإسلامية هي المقدم طبعًا، بل هو الهدف الذي عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام، والحروب والفتن، والقلق والاضطرابات.

مكاتبة الملوك والأمراء

في أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقبلون إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبي ﷺ خاتمًا من فضة، نقشه: محمد رسول الله، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، رسول سطر، والله سطر، هكذا:

الله

رسول (١)

محمد

واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وقد جزم العلامة المنصورفوري أن النبي ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام (٢). وفيما يلي نصوص هذه الكتب، وبعض ما تمخضت عنه.

١ - الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة:

وهذا النجاشي اسمه أصحمة بن الأبحر، كتب إليه النبي ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري في آخر سنة ست أو في المحرم سنة سبع من الهجرة. وقد ذكر الطبري نص الكتاب، ولكن النظر الدقيق في ذلك النص، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذي كتبه ﷺ بعد الحديبية، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة في العهد المكي، فقد ورد في آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ «وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر».

وروى البيهقي عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي وهو هذا: «هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني أنا رسوله فأسلم تسلم، ﴿قُلْ يَتَاهَلْ

(١) صحيح البخاري ٨٧٢/٢، ٨٧٣.

(٢) رحمة للعالمين ١/١٧١.

الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ إِلَّا نَتَّبِعُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، فَإِنْ أُبِيعَتْ فَإِنْ عَلَيْكَ إِثْمُ النَّصَارَى مِنْ قَوْمِكَ».

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله (باريس) نص كتاب قد عثر عليه في الماضي القريب - كما أورد ابن القيم مع الاختلاف في كلمة فقط - وبذل الدكتور في تحقيق ذلك النص جهدًا بليغًا واستعان في ذلك كثيرًا باكتشافات العصر الحديث، وأورد صورته في الكتاب وهو هكذا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتَّبَعَ الهدى، أما بعد فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته. ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالة على طاعته، وأن تبغني، وتؤمن بالذي جاءني فأني رسول الله ﷺ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغْتُ ونصحت، فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتَّبَعَ الهدى^(١).

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي بعد الحديبية، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر في الدلائل، وأما أن هذا الكتاب هو الذي كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه، والذي أوردته البيهقي عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التي كتبها النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية، فإن فيه الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] إلخ كما كان دأبه في تلك الكتب، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحًا، وأما النص الذي أوردته الدكتور حميد الله، فالأغلب عندي أنه نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته، ولعلَّ هذا هو السبب في ترك الاسم.

وهذا الترتيب ليس عندي عليه دليل قطعي سوى الشهادات الداخلية التي تؤيدها نصوص هذه الكتب. والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم أن النص الذي أوردته البيهقي عن ابن عباس هو نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد في هذا النص صريحًا والعلم عند الله^(٢).

(١) انظر رسول أكرم كي سياسي زندكي (بالاردو) ص ١٠٨، ١٠٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، وفي زاد المعاد:

أسلم أنت بدل والسلام على من اتبع الهدى. انظر زاد المعاد ٦٠/٣.

(٢) انظر لهذه المباحث كتاب الدكتور حميد الله «رسول أكرم كي سياسي زندكي» ص ١٠٨ إلى ١١٤ ومن ١٢١ إلى ١٣١.

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمري كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي أخذه النجاشي، ووضعه على عينه ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب. وكتب إلى النبي ﷺ بذلك، وهاك نصه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، والله الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغني كتابك يا رسول الله! فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء والأرض، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفروقاً، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت بها إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين^(١).

وكان النبي ﷺ قد طلب من النجاشي أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجري الحبشة، فأرسلهم في سفيتين مع عمرو بن أمية الضمري، فقدم بهم على النبي ﷺ وهو بخير^(٢). توفي النجاشي هذا في رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبي ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب. ولما مات وتخلّف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبي ﷺ كتاباً آخر ولا يُدرى هل أسلم أم لا؟^(٣).

٢- الكتاب إلى المقوقس ملك مصر:

وكتب النبي ﷺ إلى جريج بن متى^(٤)، الملقب بالمقوقس ملك مصر والإسكندرية: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتلك الله أجرًا مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٥) [آل عمران: ٦٤].

(١) زاد المعاد ٦١/٣.

(٢) ابن هشام ٣٥٩/٢.

(٣) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٩٩/٢.

(٤) هذا على رأي العلامة المنصورفوري في كتابه رحمة للعالمين ١٧٨/١؛ وقال الدكتور حميد الله «إن اسمه بنيامين» انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكي ص ١٤١.

(٥) هذا النص أورده ابن القيم في زاد المعاد ٦١/٣ والذي أورده الدكتور حميد الله أخذًا من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص، فيه «فأسلم تسلم يؤتلك الله» إلخ. وفيه «إثم القبط» بدل قوله: «إثم أهل القبط» انظر: رسول أكرم كي سياسي زندكي ص ١٣٦، ١٣٧.

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبي بلتعة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الربُّ الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر بغيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينًا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه، إن هذا النبي دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشارة موسى بيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبي أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبي، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به.

فقال المقوقس: إني قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر.

وأخذ كتاب النبي ﷺ، فجعله في حُقٍّ من عاج، وختم عليه ودفع به إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك.

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دلل بقيت إلى زمن معاوية^(١)، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له، وهي التي ولدت له إبراهيم، وأما سيرين فأعطاهما لحسان بن ثابت الأنصاري.

٣- الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبي ﷺ إلى كسرى ملك فارس بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت

فإن إثم المجوس عليك .

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمي، فدفعه السهمي إلى عظيم البحرين، ولا ندري هل بعث عظيم البحرين رجلاً من رجاله، أم بعث عبد الله السهمي، وأياً ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مرّقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه» وقد كان كما قال: فقد كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدتين، فليأتاني به، فاختر باذان رجلين ممن عنده، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يعث إليك من يأتيه بك، وبعثني إليك لتنتقل معي، وقال قولاً تهديدياً، فأمرهما النبي ﷺ أن يلقياه غداً.

وفي ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك في ليلة الثلاثاء لعشر ماضين من جمادى الأولى سنة سبع^(١)، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحي، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك: فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال: «نعم أخبراه ذلك عني، وقولا له إن ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى! ويتنهي إلى منتهى الخُفِّ والحافر». وقولا له: «إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء» فخرجوا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه في كتابه: انظر الرجل الذي كان كتب فيه أبي إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمري. وكان ذلك سبباً في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن^(٢).

٤- الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

وروى البخاري ضمن حديث طويل نص الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من أتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتكَ الله أجرك مرتين، فإن تولَّيت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿يَا هَذَا الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا

(١) فتح الباري ٨/ ١٢٧.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/ ١٤٧، فتح الباري ٨/ ١٢٧، ١٢٨.

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ [آل عمران: ٦٤].

واختار لحمل هذا الكتاب دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مآذ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء^(٢)، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبتني فكذبوه، فوالله! لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذبًا لكذبت عنه.

ثم قال: أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها - قال: ولم تمكثني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة - قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة. فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تُبعث في نسب من قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليدر الكذب على الناس، ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت

(١) صحيح البخاري ٤/١، ٥.

(٢) كان قيصر جاء إذ ذاك في إيلياء - بيت المقدس - من حمص ماضيًا، شكرًا لما منَّ الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس (انظر صحيح مسلم ٩٩/٢)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز، وصالحوا الروم على رد ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر، وردُّوا إليه الصليب الذي تزعم النصراني أن المسيح عليه السلام كان قد صُلب عليه، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أي سنة ٧هـ) يضع الصليب في موضعه، ويشكر الله على هذا الفتح المبين.

أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أنني أعلم أنني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثرُ اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابه حين أخرجنا، لقد أمر ابن أبي كبشة^(١)، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام^(٢).

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر، وقد أجاز قيصر دحية بن خليفة الكلبي، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة، ولما كان دحية يُحسَمُ في الطريق لقيه ناس من جذام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئاً، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته، فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حُسمى، وهي وراء وادي القرى في خمسمائة رجل، فشنَّ زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً، واستاق نعمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاء خمسة آلاف، والسبي مائة من النساء والصبيان.

وكان بين النبي ﷺ وبين قبيلة جذام موادة، فأسرع زيد بن رفاعة الجذامي أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبي ﷺ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه ونصروا دحية حين قُطِعَ عليه الطريق، فقبل النبي ﷺ احتجاجه وأمر برد الغنائم والسبي.

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه السرية قبل الحديبية، وهو خطأ واضح، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية. ولذا قال ابن القيم: هذا بعد الحديبية بلا شك^(٣).

٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوى:

وكتب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتاباً يدعو فيه إلى الإسلام، وبعث

(١) أبو كبشة قيل: كنية أبيه من الرضاعة، وقيل: أحد أجداده من جهة الأم، ومهما كان فإن العرب إذا أرادوا تنقيص أحد تركوا نسبته إلى جد عظيم معروف ونسبوه إلى جد غير معروف، وقد كانوا ينسبونه ﷺ إلى أبي كبشة بدل عبدالمطلب منذ ادَّعى النبوة.

(٢) صحيح البخاري ٤/١، صحيح مسلم ٩٨/٢، ٩٩.

(٣) انظر زاد المعاد ١٢٢/٢، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٢٩.

إليه العلاء بن الحضرمي بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ: أما بعد يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إلي في ذلك أمر، فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا، وإني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نغزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»^(١).

٦ - الكتاب إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة:

وكتب النبي ﷺ إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى هوزة بن علي، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفِّ والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

واختار لحمل هذا الكتاب سليط بن عمرو العامري، فلما قدم سليط على هوزة بهذا الكتاب مختومًا أنزله، وحيّاه، وقرأ عليه الكتاب، فردَّ عليه ردًّا دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله! والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ فأخبره، وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال: «لو سألني قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما في يديه». فلما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوزة مات، فقال النبي ﷺ: «أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتبنى، يُقتلُ بعدي» فقال قائل: يا رسول الله! من يقتله؟ فقال: «أنت وأصحابك» فكان كذلك^(٢).

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق:

كتب إليه النبي ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده

(١) زاد المعاد ٦١/٣، ٦٢، والنص الذي أورده الدكتور حميد الله آخذًا من صورة الكتاب الذي عثر عليه في الماضي القريب يختلف في كلمة واحدة، ففيه «لا إله غيره» بدل قوله: «لا إله إلا هو».

(٢) زاد المعاد ٦٣/٣.

لا شريك له، يبقى لك ملكك».

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بني أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب قال: من ينزع ملكي مني؟ أنا سائر إليه. ولم يسلم^(١). واستأذن قيصر في حربه ﷺ فثناه عن عزمه، فأجاز شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، وردّه بالحسنى.

٨- الكتاب إلى ملك عُمان:

وكتب النبي ﷺ كتابًا إلى ملك عُمان جيفر وأخيه عبد ابني الجلندی، ونصه: «يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندی، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقرتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل، وخيلي تحلُّ بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه. قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عُمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين، وأسهلها خُلُقًا - فقلت: إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم علي بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عُبدَ من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: يا عمرو! إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة. قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا. فسألني أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم، قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت أقرّوه وأتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو! ما تقول، إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت: ما كذبت، وما نستحلّه في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي؟ قلت: بلى، قال: فبأي شيء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشي يخرج له خرجًا، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله! لو سألني درهمًا واحدًا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا؟ قال هرقل: رجل رغب في دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله! لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله! صدقتك. قال عبد: فأخبرني ما

(١) المصدر نفسه ٦٢/٣، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٤٦/١.

الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه، لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به، ولكن أخي أضرب بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فبرأها على فقيرهم، قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ في الصدقات في الأموال حتى انتهت إلى الإبل. قال: يا عمرو! وتؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله! ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا. قال: فمكثت ببابه أيامًا، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبري، ثم إنه دعاني يومًا فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي، فقال: دعوه، فأرسلت، فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففصّ خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنني رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب في الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدي الله إياهم أنهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحدًا بقي غيرك في هذه الحرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال قال: دعني يومي هذا، وارجع إليّ غدًا.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو! إني لأرجو أن يسلم إن لم يضمن بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لي، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلًا ما في يدي، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالًا ليس كقتال من لاقى. قلت: أنا خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلي، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدقا النبي ﷺ، وخليائي بيني وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لي عونًا على من خالفني^(١).

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرًا عن كتب بقية الملوك، والأغلب أنه كان بعد الفتح.

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ولكن شغل فكرة هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

النشاط العسكري بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بني فزارة قامت بعمل القرصنة في لقاح رسول الله ﷺ.

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل خيبر، ذكر البخاري في ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث، وروى ذلك مسلم مسنداً من حديث سلمة بن الأكوع، وذكر الجمهور من أهل المغازي أنها كانت قبل الحديبية وما في الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازي^(١).

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رباح، وأنا معه بفرس أبي طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزاري قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح! خذ هذا الفرس فأبلغه طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ. ثم قمت على أكمة، واستقبلت المدينة، فناديت ثلاثاً: يا صباحاه! ثم خرجت في آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

[خذها] أنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع

فوالله! ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إليّ فارس جلست في أصل الشجرة، ثم رميته فعقرت به، حتى إذا دخلوا في تضاييق الجبل علوته، فجعلت أرميهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهري، وخلوا بيني وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحاً يستخفون، ولا يطرحون شيئاً إلا جعلت عليه آراماً من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه حتى أتوا متضايقاً من ثنية فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قرن، فصعد إلي منهم أربعة في الجبل، قلت: هل تعرفونني؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، فرجعوا فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبد الرحمن وأخرم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة ذات قرد ٦٠٣/٢، وصحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٣/٢، ١١٤، ١١٥، وفتح الباري ٤٦٠/٧، ٤٦١، ٤٦٣، زاد المعاد ١٢٠/٢.

فرسه ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله، وولّى القوم مدبرين، تتبعهم، أعدو على رجلي، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قرد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجلبتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقني رسول الله ﷺ والخيّل عشاء، فقلت: يا رسول الله! إن القوم عطاش، فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت ما عندهم من السرح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: «يا ابن الأكوع! ملكت فأسجح»^(١)، ثم قال: «إنهم ليقرّون الآن في غطفان».

وقال رسول الله ﷺ: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة» وأعطاني سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفني وراءه على العضباء راجعين إلى المدينة. واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة في هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد بن عمرو^(٢).

(١) أسجح : أي سهل والمعنى قدرت فاعف.

(٢) انظر المصدرين السابقين، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠.

غزوة خيبر ووادي القرى

(في المحرم سنة ٧هـ)

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ستين أو ثمانين ميلاً من المدينة في جهة الشمال، وهي الآن قرية في مناخها بعض الوخامة.

سبب الغزوة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وأمن منه أمناً باتاً بعد الهدنة أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتأمر، ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولاً.

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن رزام، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهي قريش - كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.

الخروج إلى خيبر:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر.

قال المفسرون: إن خيبر كانت وعداً وعدها الله تعالى بقوله: ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً

تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴿[الفتح: ٢٠] يعني: صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة خيبر.

عدد الجيش الإسلامي:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية، أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلاً: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَفَايِزِ لِنَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَوْنَ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر، أعلن أن لا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وقال ابن إسحاق: نميلة بن عبد الله الليثي، والأول أصح عند المحققين^(١).

وحينئذ قدم أبو هريرة المدينة مسلماً، فوافى سباع بن عرفطة في صلاة الصبح فلما فرغ من صلاته أتى سباعاً فزوّده، حتى قدم على رسول الله ﷺ وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهمانهم.

اتصال المنافقين باليهود:

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر: أن محمداً قصد قصدكم وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه، فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزّل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان. يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين. وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

الطريق إلى خيبر:

وسلك رسول الله ﷺ في اتجاهه نحو خيبر جبل عصر (بالكسر وقيل بالتحريك) ثم على الصهباء، ثم نزل على واد يقال له: الرجيع، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهايت غطفان وتوجّهوا إلى خيبر، لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حساً ولغطاً، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا، وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

(١) انظر فتح الباري ٧/٤٦٥، زاد المعاد ٢/١٣٣.

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما حسيل - ليدلاه على الطريق الأحسن، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أي: جهة الشام - فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله ﷺ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال: يا رسول الله! هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسميها له واحدًا واحدًا. قال: اسم واحد منها حزن فأبى النبي ﷺ من سلوكه، وقال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضًا وقال: اسم آخر حاطب. فامتنع منه أيضًا، وقال حسيل، فما بقي إلا واحدًا قال عمر: ما اسمه قال: مرحب، فاختار النبي ﷺ سلوكه.

بعض ما وقع في الطريق:

١ - عن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً، فقال، رجل من القوم لعامر: يا عامر! ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو بالقوم. يقول:

واللهم! لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اتقينا	وثبّت الأقدام إن لاقينا
وألقين سكينه علينا	إنا إذا صيح بنا أتينا

وبالصياح عولوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع. قال: «يرحمه الله». قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله! لولا أمتعتنا به^(١).

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد^(٢)، وقد وقع في حرب خيبر.

٢ - وبالصهباء من أدنى خيبر صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثري، فأكل وأكل الناس، ثم قام إلى المغرب، فمضض، ومضض الناس، ثم صلى ولم يتوضأ^(٣)، ثم صلى العشاء^(٤).

ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: «قفوا». فوقف الجيش فقال: «اللهم! رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، إنا نسألك

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢، صحيح مسلم باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢.

(٢) المصدر نفسه الأخير.

(٣) صحيح البخاري ٦٠٣/٢.

(٤) مغازي الواقدي (غزوة خيبر ١١٢).

خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله»^(١).

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر:

بات المسلمون الليلة الأخيرة التي بدأ في صباحها القتال قريبًا من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، وكان النبي ﷺ إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح صلى الفجر بغلس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله! محمد والخميس، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر خربت خيبر. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»^(٢).

حصون خيبر:

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين، شطر فيها خمسة حصون:

١ - حصن ناعم.

٢ - حصن الصعب بن معاذ.

٣ - حصن قلعة الزبير.

٤ - حصن أبي.

٥ - حصن الزار.

والحصون الثلاثة الأولى تقع في منطقة يقال لها: النطاة، وأما الحصنان الآخران فيقعان في منطقة تسمى: بالشق.

أما الشطر الثاني، ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط:

١ - حصن القموص (كان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير).

٢ - حصن الوطيح.

٣ - حصن السالام.

وفي خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت صغيرة لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع في مناعتها وقوتها.

والقتال الميرير إنما دار في الشطر الأول منها، أما الشطر الثاني فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال.

(١) ابن هشام ٣٢٩/٢.

(٢) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢، ٦٠٤.

معسكر الجيش الإسلامي:

وكان النبي ﷺ اختار لمعسكره منزلاً، فأتاه حباب بن المنذر فقال: يا رسول الله! أرايت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأي في الحرب؟ قال: «بل هو الرأي»، فقال: يا رسول الله! إن هذا المنزل قريب جداً من حصن نطاة، وجميع مقاتلي خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندري أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا. وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضاً هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذة معسكراً. قال ﷺ: «الرأي ما أشرت، ثم تحوّل إلى مكان آخر».

التهيو للقتال وبشارة الفتح:

ولما كانت ليلة الدخول أو بعدها قال: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله! ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها فقال: «أين علي بن أبي طالب»، فقالوا: يا رسول الله! هو يشتكي عينيه. قال: «فأرسلوا إليه». فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: «انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»^(١).

بدء المعركة وفتح حصن ناعم:

وأول حصن هاجمه المسلمون من هذه الحصون الثمانية هو حصن ناعم، وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجي، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودي الذي كان يُعدُّ بالآلف.

خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان القتال دعا إلى المبارزة. قال سلمة بن الأكوع: فلما أتينا خيبر ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهب

(١) صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٥٠٥/٢، ٦٠٦، ويؤخذ من بعض الروايات أن إعطاء الراية لعلي كان بعد فشل عدة محاولات لفتح هذا الحصن.

فبرز له عمي عامر فقال:

قد علمت خيبر أني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عمي عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرًا، فتناول به ساق اليهودي ليضربه، فرجع ذباب سيفه، فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبي ﷺ: «إن له لأجرين وجمع بين أصبعيه، إنه لجاهدٌ مجاهدٌ قل عربي مشى بها مثله»^(١).

ويبدو أن مرحبًا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى، وجعل يرتجز بقوله: قد علمت خيبر أني مرحب. إلخ، فبرز له علي بن أبي طالب. قال سلمة بن الأكوع: فقال علي:

أنا الذي سمّنتني أمي حيدر

كليث غابات كربه المنظره

أوفهم بالصاع كيل السندره

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه^(٢).

ولما دنا علي رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودي من رأس الحصن، وقال: من أنت، فقال: أنا علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علوتم وما أنزل على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله! يقتل ابني؟ قال: «بل ابنك يقتله». فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قُتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صدّ هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يشوا من مقاومة المسلمين، فتسلّلوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثاني من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث، دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

وروى ابن إسحاق: أن بني سهم من أسلم، أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد جهدنا وما

(١) صحيح مسلم باب غزوة خيبر ١٢٢/٢، باب غزوة ذي قرد وغيرها ١١٥/٢، صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٦٠٣/٢.

(٢) بين المصادر اختلاف كبير في الرجل الذي قتل مرحبًا، وفي اليوم الذي قتل فيه، وفتح هذا الحصن. وبعض هذا الاختلاف موجود في سياق روايات الصحيحين أيضًا، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخاري.

بأيدينا من شيء، فقال: «اللهم! إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعامًا وودكًا». فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكًا منه^(١).

ولما ندب النبي ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم في المهاجمة، ودار البراز والقتال أمام الحصن، ثم فتح الحصن في ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنقات والدبابات.

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التي ورد ذكرها في رواية ابن إسحاق كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية.

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطااة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع في رأس قلة، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار، وأقام محاصرًا ثلاثة أيام. فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم! إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعبودًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعته فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليه أصحروا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قُتل فيه نفر من المسلمين، وأُصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.

فتح قلعة أبي:

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبي وتحصنوا فيه، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام بطلان من اليهود واحدًا بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلها أبطال المسلمين، وكان الذي قتل المبارز الثاني هو البطل المشهور أبو دجانة سماك بن خرشة الأنصاري صاحب العصاة الحمراء، وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامي، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن في الشطر الأول.

فتح حصن النزار:

كان هذا الحصن أمتع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا

(١) ابن هشام ملخصًا ٢/٣٣٢، والودك: الشحم.

يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل، ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء، بينما كانوا قد أدخلوا منها القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشدَّ الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلاً للاقتحام فيه، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن، للاشتباك مع قوات المسلمين، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبي ﷺ بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير في داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكّنوا من التسلُّل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فروا - من فروا - من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذرائعهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهي ناحية النظاة والشق، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أدخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خيبر.

فتح الشطر الثاني من خيبر:

ولما فتح ناحية النظاة والشق، تحوّل رسول الله ﷺ إلى أهل الكتيبة التي بها حصن القموص حصن بني أبي الحقيق من بني النضير، وحصن الوطيح والسلام، وجاءهم كل فل كان انهزم من النظاة والشق، وتحصّن هؤلاء أشدَّ التحصن.

واختلف أهل المغازي هل جرى هناك قتال في أي حصن من حصونها الثلاثة أم لا؟ فسياق ابن إسحاق صريح في جريان القتال لفتح حصن القموص. بل يؤخذ من سياقه أنّ هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجري هناك مفاوضة للاستسلام^(١).

أما الواقدي، فيصرّح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاثة إنما أُخِذَت بعد المفاوضة، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال.

ومهما كان فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة - فرض على أهلها أشدَّ الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يوماً، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى همّ رسول

(١) ابن هشام ٣٣١/٢، ٣٣٦، ٣٣٧.

الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح.

المفاوضة:

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: انزل فأكلّمك؟ قال: «نعم» فنزل، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفرأ والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة إلا ثوبًا على ظهر إنسان^(١)، فقال رسول الله ﷺ: «وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتموني شيئًا» فصالحوه على ذلك^(٢). وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالا كثيرًا، غيبا مسكا فيه مال وحلى لحيي ابن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إسحاق: وأتي رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فوجد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخبرة كل غداة فقال: رسول الله ﷺ لكنانة: «أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك؟» قال: نعم! فأمر بالخبرة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه فدفعه إلى الزبير، وقال: عذّبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قُتل تحت جدار حصن ناعم أُلقي عليه الرحي، وهو يستظل بالجدار فمات).

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابني أبي الحقيق، وكان الذي اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة.

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، وكانت عروسًا حديثة عهد بالدخول.

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يُجلبى اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد! دعنا نكون في هذه

(١) ولكن صرّح في رواية أبي داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر سنن أبي داود، باب ما جاء في حكم أرض خيبر ٧٦/٢).

(٢) زاد المعاد ١٣٦/٢.

الأرض نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم وكان عبد الله بن رواحة يخرصه عليهم.

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، وجمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوابه وما ينزل به من أمور المسلمين، وإنما قُسمت على ألف وثمانمائة سهم، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفًا وأربعمائة وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقُسمت على ألف وثمانمائة سهم، فصار للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد^(١).

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخاري عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر^(٢). ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل^(٣).

قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرين:

وفي هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه.

قال أبو موسى: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين - أنا وأخوان لي - في بضع وخمسين رجلًا من قومي، فركبنا سفينة، فألقنا سفيتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفرًا وأصحابه عنده، فقال: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فأسهم لنا، وما قسّم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئًا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفيتنا مع جعفر وأصحابه، قسّم لهم معهم^(٤).

(١) زاد المعاد ١٣٧/٢، ١٣٨.

(٢) صحيح البخاري ٦٠٩/٢.

(٣) زاد المعاد ١٤٨/٢، صحيح مسلم ٩٦/٢.

(٤) صحيح البخاري ٤٤٣/١، وانظر أيضًا فتح الباري ٤٨٤/٧، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧.

ولما قدم جعفر على النبي ﷺ تلقاه وقبل ما بين عينيه، وقال: «والله! ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»^(١).

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري، يطلب توجيههم إليه، فأرسلهم النجاشي على مركبين، وكانوا ستة عشر رجلاً، معهم من بقي من نسائهم وأولادهم، وبقيتهم جاؤوا إلى المدينة قبل ذلك^(٢).

الزواج بصفية:

ذكرنا أن صفية جُعِلَتْ في السبايا حين قُتِل زوجها كنانة بن أبي الحقيق لغدره، ولما جمع السبي جاء دحية بن خليفة الكلبي، فقال: يا نبي الله! أعطني جارية من السبي. فقال: اذهب فخذ جارية. فأخذ صفية بنت حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة وبني النضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها، وعرض عليها النبي ﷺ الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعاً إلى المدينة حلَّت، فجهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح عروساً بها، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسويق، وأقام عليها ثلاثة أيام في الطريق بيني بها^(٣).

ورأى بوجهها خضرة، فقال: «ما هذا؟» قالت: يارسول الله! رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه، وسقط في حجري، ولا والله! ما أذكر من شأنك شيئاً، فقصصتها على زوجي، فلطم وجهي. فقال: تمنين هذا الملك الذي بالمدينة^(٤).

أمر الشاة المسمومة:

ولما اطمأن رسول الله بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث، - امرأة سلام بن مشكم - شاة مصلية، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثر فيها من السم، ثم سَمَّت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ولفظها، ثم قال: «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم». ثم دعا بها فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: قلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخْبَرُ، فتجاوز عنها.

وكان معه بشر بن البراء بن معرور، أخذ منها أكلة، فأساغها، فمات منها.

(١) زاد المعاد ١٣٩/٢. المعجم الصغير للطبراني ١٩/١.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١٢٨/١.

(٣) صحيح البخاري ٥٤/١، ٦٠٤/٢، ٦٠٦، زاد المعاد ١٣٧/٢.

(٤) المصدر نفسه الأخير، وابن هشام ٣٣٦/٢.

واختلفت الروايات في التجاوز عن المرأة وقتلها، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولاً، فلما مات بشر قتلها قصاصاً^(١).

قتلى الفريقين في معارك خيبر:

وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلاً، أربعة من قريش وواحد من أشجع، وواحد من أسلم، وواحد من أهل خيبر، والباقون من الأنصار.

ويقال: إن شهداء المسلمين في هذه المعارك ١٨ رجلاً. وذكر العلامة المنصورفوري ١٩ رجلاً، ثم قال: إني وجدت بعد التفحص ٢٣ اسمًا، واحد منها في الطبري فقط، وواحد عند الواقدي فقط، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة، وواحد اختلفوا هل قُتِلَ في بدر أو خيبر. والصحيح أنه قُتِلَ في بدر^(٢).

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلاً.

فدك:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث محيصة بن مسعود إلى يهود فدك، ليدعوهم إلى الإسلام فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب في قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فدك، بمثل ما صالح عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة، لأنه لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب^(٣).

وادي القرى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، انصرف إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة، فُقُتِلَ مدعم عبد لرسول الله ﷺ، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال النبي ﷺ: «كلا». والذي نفسي بيده! إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا. فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شراكين، فقال النبي ﷺ: «شراك من نار أو شراكان من نار»^(٤).

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصَفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عباد، وراية إلى

(١) انظر زاد المعاد ١٣٩/٢، ١٤٠، فتح الباري ٤٩٧/٧، وأصل القصة مروية في البخاري مطولاً ومختصراً، ١/ ٤٤٩، ٦١٠/٢، ٨٦٠، وفي ابن هشام ٣٣٧/٢، ٣٣٨.

(٢) رحمة للعالمين ٢/٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠.

(٣) ابن هشام ٣٣٧/٢، ٣٥٣.

(٤) صحيح البخاري ٦٠٨/٢.

الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عبّاد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله، حتى قُتِلَ منهم أحد عشر رجلًا، كُلُّما قُتِلَ منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنم الله أموالهم، وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقَسَمَ على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها^(١) (كما عامل أهل خيبر).

تيماء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فذك ووادي القرى لم يُدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون للصلح، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم^(٢)، وكتب لهم بذلك كتابًا، وهاك نصه: هذا كتاب محمد رسول الله ليني عاديًا، إن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عدا ولا جلاء، الليل مدٌّ، والنهار شدٌّ، وكتب خالد بن سعيد^(٣).

العود إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله في العودة إلى المدينة، وفي الطريق أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله» فقال رسول الله ﷺ: «اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا. إنكم تدعون سميًّا قريبًا»^(٤) وفي مرجعه ذلك سار ليلة، ثم نام في آخر الليل ببعض الطريق وقال لبلال: «اكأ لنا الليل» فغلبت بلال عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ أحد، حتى ضربتهم الشمس، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ، ثم خرج من ذلك الوادي، وتقدَّم، ثم صَلَّى الفجر بالناس، وقيل: إن هذه القصة في غير هذا السفر^(٥).

وبعد النظر في تفصيل معارك خيبر يبدو أن رجوع النبي ﷺ كان في أواخر صفر أو في

(١) زاد المعاد ١٤٦/٢، ١٤٧.

(٢) المصدر نفسه ١٤٧/٢.

(٣) ابن سعد ٢٧٩/١.

(٤) صحيح البخاري ٦٠٥/٢.

(٥) ابن هشام ٣٤٠/٢، والقصة معروفة مروية في عامة كتب الحديث: وانظر زاد المعاد ١٤٧/٢.

ربيع الأول سنة ٥٧هـ.

سرية أبان بن سعيد:

كان النبي ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكري أن إخلاء المدينة تمامًا بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها تطلب غرة المسلمين للقيام بالتهب والسلب أو أعمال القرصنة، ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب، تحت قيادة أبان ابن سعيد، بينما كان هو متجهًا إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبًا عليه، فوافى النبي ﷺ بخيبر، وقد افتتحها.

والأغلب أن هذه السرية كانت في صفر سنة ٥٧هـ. ورد ذكر هذه السرية في البخاري^(١). قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية^(٢).

(١) انظر صحيح البخاري باب غزوة خيبر ٢/٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) فتح الباري ٧/٤٩١.

بقية السرايا والغزوات

في السنة السابعة

غزوة ذات الرقاع:

ولما فرغ رسول الله ﷺ عن كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة؛ تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أي إلى الأعراب القسا الضارين في فيافي نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة في فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر، ولذلك لم تكن تُجدي فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عُرِفَت بغزوة ذات الرقاع.

وعامة أهل المغازي يذكرون هذه الغزوة في السنة الرابعة، ولكن حضور أبي موسى الأشعري وأبي هريرة رضي الله عنهما في هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧هـ.

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة أن النبي ﷺ سمع باجتماع أنمار أو بني ثعلبة وبني محارب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم في أربعمئة أو سبعمئة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان، وسار فتوغّل في بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له: نخل على بعد يومين من المدينة، ولقي جمعًا من غطفان فتقاربوا، وأخاف بعضهم بعضًا. ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف وفي صحيح البخاري: وأقيمت الصلاة فصلّى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكان للنبي ﷺ أربع، وللقوم ركعتان^(١).

وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن

(١) صحيح البخاري ٤٠٧/١، ٤٠٨، ٥٩٣/٢.

سنة نفر بيننا بعير نعتقه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلفُ على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا^(١).

وفيه عن جابر: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس في العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فتمنا نومة؛ فجاء رجل من المشركين، فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافني؟ قال: «لا». قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله». قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، فجننا فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فها هو ذا جالس» ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ.

وفي رواية أبي عوانة: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «من يمنعك مني؟» قال: كن خير آخذ. قال: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال الأعرابي: أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلّى سبيله. فجاء إلى قومه، فقال جئتكم من عند خير الناس^(٢).

وفي رواية البخاري قال مسدد عن أبي عوانة عن أبي بشر: اسم الرجل غورث بن الحارث^(٣) قال ابن حجر: ووقع عند الواقدي في سبب هذه القصة أن اسم الأعرابي دعثور، وأنه أسلم، لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان في غزوتين والله أعلم^(٤).

وفي مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فندر زوجها أن لا يرجع حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين ربيّة^(٥) للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا وهو قائم يصلي بسهم فزعه، ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله، هلا نبهتني، فقال: إني كنت في سورة فكرهت أن أقطعها^(٦).

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساء، وإذا نظرنا إلى تفاصيل

(١) صحيح البخاري باب غزوة ذات الرقاع ٥٩٢/٢، وصحيح مسلم باب غزوة ذات الرقاع ١١٨/٢.

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص ٢٦٤، وانظر فتح الباري ٤١٦/٧.

(٣) صحيح البخاري ٥٩٣/٢.

(٤) فتح الباري ٤٢٨/٧.

(٥) ربيّة: الشخص المخصص للمراقبة.

(٦) زاد المعاد ١١٢/٢، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة ابن هشام ٢٠٣/٢، إلى ٢٠٩، زاد المعاد ١١٠/٢،

١١١، ١١٢، فتح الباري ٤١٧/٧ إلى ٤٢٨.

السرايا بعد هذه الغزوة؛ نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترى أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئاً فشيئاً حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة، وتغزو حينئذٍ، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة، لأن الظروف في داخل البلاد كانت قد تطوّرت لصالح الإسلام والمسلمين.

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧هـ. وبعث في خلال ذلك عدة سرايا، وهاك بعض تفصيلها:

- ١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوحة بقرية، في صفر أو ربيع الأول سنة ٧هـ. كان بنو الملوحة قد قتلوا أصحاب بشير بن سويد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر. فشنوا الغارة في الليل فقتلوا من قتلوا، وساقوا النعم، وطاردتهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين. ونجح المسلمون في بقية الانسحاب.
- ٢ - سرية حُسمي في جمادى الثانية سنة ٧هـ، وقد مضى ذكرها في مكاتبة الملوك.
- ٣ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة في شعبان سنة ٧هـ. ومعه ثلاثون رجلاً، كانوا يسيرون الليل ويستخفون في النهار، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر إلى محالهم، فلم يلق أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة.
- ٤ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فذك في شعبان سنة ٧هـ، في ثلاثين رجلاً، خرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل، فرموهم بالنبل حتى فني نبل بشير وأصحابه، فقتلوا جميعاً إلا بشير فإنه ارتث إلى فذك، فأقام عند يهود، حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.
- ٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثي في رمضان سنة ٧هـ إلى بني عوال، وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، وقيل إلى الحرقات من جهينة في مائة وثلاثين رجلاً، فهجموا عليهم جميعاً، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعماً وشاء، وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد مرداس ابن نهيك بعد أن قال: لا إله إلا الله. فلما قدموا وأخبروا النبي ﷺ كبر عليه وقال: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله». فقال: إنما قالها متعوذاً. قال: «فهلأ شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟»
- ٦ - سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر في شوال سنة ٧هـ في ثلاثين ركباً، وذلك أن أسيراً

أو بشير بن رزام كان يجمع غطفان لغزو المسلمين، فأخرجوا أسيرًا في ثلاثين من أصحابه، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خير، فلما كانوا بقرقرة نيار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين.

٧ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن وجبار (بالفتح، أرض لغطفان وقيل لفزارة وعذرة) في شوال سنة ٧هـ في ثلاثمائة من المسلمين، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة. فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب بشير نعمًا كثيرة، وأسّر رجلين، فقدم بهما إلى المدينة، إلى رسول الله ﷺ، فأسلما.

٨ - سرية أبي حذرر الأسلمي إلى الغابة. ذكرها ابن القيم في سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء، وملخصها أن رجلًا من جشم بن معاوية أقبل في عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيسًا على محاربة المسلمين، فبعث رسول الله ﷺ أبا حذرر مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس، فكمن أبو حذرر في ناحية، وصاحبه في ناحية، وأبطأ على القوم راعيهم، حتى ذهبت فحمة العشاء، فقام رئيس القوم وحده، فلما مر بأبي حذرر رماه بسهم في فؤاده، فسقط ولم يتكلم، فاحتز أبو حذرر رأسه، وشدّ في ناحية العسكر، وكبر، وكبر صاحبه وشدّا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم^(١).

(١) زاد المعاد ١٤٩/٢، ١٥٠، وابن هشام ٢/٦٢٩، ٦٣٠، وعنده: ابن أبي حذرر وانظر لتفصيل هذه السرايا رحمة للعالمين ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، زاد المعاد ٢/١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، تلقح فهم أهل الأثر مع حواشيها ص ٣١ ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤.

عمرة القضاء

قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هَلَ ذُو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وأن لا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من أُسْتُشَهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان. أه^(١).

واستخلف على المدينة عوف بن الأضبط الديلي، أو أبا رهم الغفاري، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جندب الأسلمي، وأحرم للعمرة من ذي الحليفة، ولَبَّى، ولَبَّى المسلمون معه، وخرج مستعدًا بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يأجج وضع الأداة كلها، الحجف، والمجان، والنبيل، والرماح، وخلف عليها أوس بن خولي الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب والسيوف في القرب^(٢).

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبًا على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحو السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون.

وخرج المشركون إلى جبل قعيقعان - الجبل الذي في شمال الكعبة - ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهتهم حمى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته^(٣)، كما أمرهم بالاضطباع، أي أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفي الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون - وقد صفَّ المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يُلَبَّى حتى استلم الركن بمحجنه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبدالله بن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ يرتجز متوشعًا بالسيف:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله	خَلُّوا فكل الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله	في صحف تُثَلَّى على رسوله
يأرب! إني مؤمن بقبيله	إني رأيت الحق في قبوله
بأن خير القتل في سبيله	اليوم نضربكم على تنزيله

(١) فتح الباري ٧/٧٠٠.

(٢) المصدر نفسه، وزاد المعاد ٢/١٥١.

(٣) صحيح البخاري ١/٢١٨، ٢/٦١٠، ٦١١، صحيح مسلم ١/٤١٢.

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله^(١)

وفي حديث أنس فقال عمر: يا ابن رواحة! بين يدي رسول الله ﷺ ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ : «خل عنه يا عمر! فلهو أسرع فيهم من نضح النبل»^(٢).

ورمل رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(٣).

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعي، وقد وقف الهدي عند المروة، قال: «هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر». فنحر عند المروة وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناساً إلى يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا علياً، فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا، فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ ، ونزل بسرف فأقام بها.

ولما أراد الخروج من مكة تبعته ابنة حمزة، تنادي ياعم! ياعم! فتناولها علي، واختصم فيها علي وجعفر وزيد، ففضى النبي ﷺ لجعفر، لأن خالتها كانت تحته.

وفي هذه العمرة تزوج النبي ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول في مكة بعث جعفر بن أبي طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشي، فبنى بها بسرف^(٤).

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة أي: المصالحة التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون^(٥) وهذه العمرة تُسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقضية، والقصاص، والصالح^(٦).

وبعد الرجوع من عمرة القضاء بعث عدة سرايا، هاك تفصيلها:

١- سرية ابن أبي العوجاء، في ذي الحجة سنة ٧هـ، في خمسين رجلاً بعثه رسول الله ﷺ إلى بني سليم، ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالاً

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها في الروايات فجعلنا بين شتيها.

(٢) رواه الترمذي، أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء في إنشاد للشعر ١٠٧/٢.

(٣) صحيح مسلم ٤١٢/١.

(٤) زاد المعاد ١٥٢/٢.

(٥) انظر زاد المعاد ١٧٢/١، فتح الباري ٥٠٠/٧.

(٦) انظر المصدر الأخير نفسه.

شديدًا، جرح فيه أبو العوجاء، وأسِرَ رجلان من العدو.

٢- سرية غالب بن عبدالله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ٥٨هـ. بُعِثَ في مائتي رجل، فأصابوا من العدو نِعَمًا، وقتلوا منهم قتلى.

٣- سرية ذات أطلح في ربيع الأول سنة ٥٨هـ. كانت بنو قضاة قد حشدت جموعًا كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصاري في خمسة عشر رجلًا، فلقوا العدو، فدعوههم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهدوا كلهم إلا رجل واحد، فقد ارتث من بين القتلى^(١).

٤- سرية ذات عرق إلى بني هوازن في ربيع الأول سنة ٥٨هـ. كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى، فأرسل إليه شجاع بن وهب الأسدي في خمسة وعشرين رجلًا، فاستاقوا نِعَمًا من العدو، ولم يلقوا كيدًا^(٢).

(١) رحمة للعالمين ٢/٢٣١.

(٢) المصدر نفسه، وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ص ٣٣ حاشية.

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ، وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في جمادى الأولى سنة ٨هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م.

ومؤتة (بالضم فالسكون) هي قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

سبب المعركة:

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطاً، ثم قدّمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهّز إليه جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل^(١)، وهو أكبر جيش إسلامي، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب.

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم:

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبداً بن رواحة»^(٢). وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقتلوه، وقال لهم: «اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بناء»^(٣).

توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبدالله بن رواحة:

ولما تهيأ الجيش الإسلامي للخروج حضر الناس، ودعوا أمراء رسول الله ﷺ، وسلّموا

(١) زاد المعاد ٢/١٥٥، فتح الباري ٧/٥١١.

(٢) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/٦١١.

(٣) مختصر السيرة للشیخ عبدالله ص ٣٢٧.

عليهم، حينئذ بكى أحد أمراء الجيش، عبدالله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله! ما بي حب الدنيا، ولا صباية بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَلَنْ يَنْكَرُوا إِلَّا وَأَرْدَاهَا كَانَ عَلَى رِجِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبتكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، ورّدكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرغ^(١) تقذف الزيدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي^(٢) يا أرشد الله! من غاز، وقد رشدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم^(٣).

تحرك الجيش الإسلامي، ومباغتته حالة رهبة:

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف.

المجلس الاستشاري بمعان:

لم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، الذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم، مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

ولكن عبدالله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجّع الناس، قائلاً: يا قوم! والله! إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيراً استقرّ الرأي على ما دعا إليه عبدالله بن رواحة.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو:

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى

(١) الفرغ: السعة.

(٢) الجدث: القبر.

(٣) ابن هشام ٣٧٣/٢، ٣٧٤، زاد المعاد ١٥٦/٢.

لقبتهم جموع هرقل بقرية من قرى اللقاء يقال لها «مشارف»، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمتهم قطبة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري.

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حِبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخرَّ صريعاً.

وحيث أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قُطِعَت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قُطِعَت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعاً إياها حتى قُتِلَ. يقال: إن روميًا ضربه ضربة قطعتة نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سُمِّي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين.

روى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شيء في دبره. يعني ظهره^(١).

وفي رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنة ورمية^(٢). وفي رواية العمري عن نافع زيادة «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده»^(٣).

ولما قُتِل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبدالله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة، ثم قال:

أقسمت يا نفس! لتنزلنَّ
كارهة أو لتطاعنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة
مالي أراك تكرهين الجنه

(١) صحيح البخاري، باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/٢.

(٢) المصدر نفسه ٦١١/٢.

(٣) انظر فتح الباري ٥١٢/٧، وظاهر الحديثين التخالف في العدد، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمي السهام، انظر المصدر المذكور.

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعرق من الحلم فقال: شِدْ بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدّم، فقاتل حتى قُتِلَ.

الراية إلى سيف من سيوف الله:

وحينئذ تقدّم رجل من بني عجلان - اسمه ثابت بن أرقم - فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريئاً، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية^(١). وفي لفظ آخر: لقد دقّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية^(٢).

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مُخْبِراً بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال -: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرّفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم»^(٣).

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المبررتين كان مستغرباً جداً أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر العظيم من جيوش الروم، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيراً فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيراً، ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية، تُلقِي الرعب في قلوب الرومان؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيّداً أن الإفلات من برائتهم صعب جداً لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غير أوضاع الجيش، وعبّاه من جديد، فجعل مقدمته ساقية، وميمته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة - يتأخّر بالمسلمين قليلاً قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظناً منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام

(١) صحيح البخاري باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٦١١/١.

(٢) المصدر نفسه ٦١١/٢.

(٣) المصدر نفسه ٦١١/٢.

بمكيدة ترمي بهم في الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين، ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة^(١).

قتلى الفريقين:

وَأُسْتُشْهِدَ يَوْمَئِذٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، أَمَّا الرُّومَانُ، فَلَمْ يُعْرِفْ عَدَدَ قَتْلَاهُمْ غَيْرَ أَنْ تَفْصِيلَ الْمَعْرَكَةِ يَدُلُّ عَلَى كَثَرَتِهِمْ.

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثَّارِ، الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحثف بالظلف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تُذَكَّرُ، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذيبيان وفزارة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضي البعيدة النائية.

سرية ذات السلاسل:

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية التي تقطن مشارف الشام في معركة مؤتة، من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسئولية الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سببًا للاتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بلي، فبعثه إليهم في جمادى الآخرة سنة ٨هـ على إثر معركة مؤتة ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعًا من قضاة قد تجمّعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليهم، ويمكن أن

(١) انظر فتح الباري ٧/ ٥١٣، ٥١٤، زاد المعاد ٢/ ١٥٦، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والتي قبلهما.

يكون السببان اجتماعاً معاً.

وعقد رسول الله ﷺ لعمر بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرساً، وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من بلي وعذرة وبلقين، فسار الليل وكمن النهار، فلما قُرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمر، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً، وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يُصَلِّي بالناس. وسار حتى وطىء بلاد قضاة، فدوَّخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرَّقوا.

وبعث عوف بن مالك الأشجعي بريداً إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقولهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.

وذاة السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها: لغتان) بقعة وراء وادي القرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام. وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جذام يقال له: السلسل، فسمَّيت ذات السلاسل^(١).

سرية أبي قتادة إلى خضرة:

كانت هذه السرية في شعبان سنة ٨ هـ. وذلك لأن بني غطفان كانوا يتحشدون في خضرة - وهي أرض محارب بنجد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً فقتل منهم، وسبى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة^(٢).

(١) انظر ابن هشام ٢/٦٢٣، ٦٢٤، ٦٢٥، ٦٢٦، زاد المعاد ٢/١٥٧.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٣.

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا اه^(١).

سبب الغزوة:

قدّمنا في وقعة الحديبية أن بندًا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أي من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتوترات في الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر في شهر شعبان سنة ٨هـ، فأغاروا على خزاعة ليلاً، وهم على ماء يقال له: «الوتير» فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بني بكر! أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعي، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراي الناس فقال:

يارب! إني ناشد محمداً
 قد كنتم ولدًا وكنا والدًا^(٢)
 فانصر، هداك الله، نصرًا أبدًا
 فيهم رسول الله، قد تجردًا
 إن سيم خسفًا وجهه تريدًا
 إن قريشًا أخلفوك الموعدًا
 وجعلوا لي في كداء رصدا
 وهم أذلُّ، وأقلُّ عندًا
 حلف أبينا وأبيه الأتلدًا^(١)
 ثمة أسلمنا ولم ننزع يدا
 وادع عباد الله يأتوا مددا
 أبيض مثل البدر، يسمو صعدا
 في فيلق كالبحر يجري مزيدا
 ونقضوا ميثاقك المؤكدا
 وزعموا أن لست أدعو أحدا
 هم بيتونا بالوتير هجدا
 وقتلونا ركعًا وسجدًا^(٣)

فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم!» ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب».

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضًا ونقضًا صريحًا للميثاق لم يكن له أي مبرر، ولذلك سرعان ما أحسَّت قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسًا استشاريًا، وقرَّرت أن تبعث قائدها أبا سفيان مُتمِّلاً لها؛ ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة».

وخرج أبو سفيان - حسب ما قرَّره قريش - فلقى بديل بن ورقاء بعسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ - وظن أنه أتى النبي ﷺ - فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أو ما جئت محمداً؟ قال: لا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها ففته، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً.

(١) الأتلد : القديم، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبين بني هاشم منذ عهد عبدالمطلب.

(٢) يشير إلى أم عبدمناف - وهي حبي زوجة قصي - كانت من خزاعة.

(٣) يقول : قتلنا وقد أسلمنا.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية! أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله! لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه، فلم يرد عليه شيئاً، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يُكلّم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله! لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي! إنك أمس القوم بي رحمًا، وإنني قد جئت في حاجة، فلا أرجعنّ كما جئت خائبًا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان! لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله! ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحنى. قال: والله! ما أعلم لك شيئاً يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنيًا عني شيئاً؟ قال: لا والله! ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس! إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلّمته، فوالله! ما ردّ عليّ شيئاً، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، قد أشار علي بشيء صنعته، فوالله! ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله! ما وجدت غير ذلك.

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبراني أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتي إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهّزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يا بنية! ما هذا الجهاز؟ قالت: والله! ما أدري. فقال: والله! ما هذا زمان غزو بني الأصفر، فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله! لا علم لي، وفي صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكبًا، وارتجز: يارب! إني ناشد محمدًا.. الأبيات. فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل ثم أبو سفيان وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنه

سائر إلى مكة. وقال: «اللهم! خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها».

وزيادة في الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال تحت قيادة أبي قتادة بن ربعي إلى بطن إضم فيما بين ذي خشب وذي المروة على ثلاثة برد من المدينة، في أول شهر رمضان سنة ٨هـ، ليظن الظأن أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته^(١).

وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبغته قريشاً، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والمقداد والزبير بن العوام وأبا مرثد الغنوي، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش، فانطلقوا تُعَادِي بهم خيلهم حتى وجدوا المرأة بذلك المكان، فاستنزلوها، وقالوا: معك كتاب؟ فقالت ما معي كتاب، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئاً، فقال لها علي: أحلف بالله، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبتنا، والله! لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهم، فأتوا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: (من حاطب ابن أبي بلتعة إلى قريش) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال: «ما هذا يا حاطب؟» فقال: لا تعجل علي يا رسول الله! والله! إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدّلت، ولكني كنت امرأً ملصقاً في قريش لست من أنفسهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، فقال عمر بن الخطاب: دعني يارسول الله! أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر! لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فذرفت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم^(٢).

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أي خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيؤهم للزحف والقتال.

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبط، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فقتله محلم بن جثامة لشيء كان بينهما، وأخذ بغيره ومثبعه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية، وجاؤوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ، فلما قام بين يديه قال: «اللهم! لا تغفر لمحلم» وقالها ثلاثاً، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه، قال ابن إسحاق: وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك. انظر زاد المعاد ٢/١٥٠، وابن هشام ٢/٦٢٧، ٦٢٨.

(٢) انظر صحيح البخاري ١/٤٢٢، ٢/٦١٢.

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك سنة ٨هـ غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهاً إلى مكة، في عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم واستخلف على المدينة أبا رهم الغفاري.

ولما كان بالجحفة أو فوق ذلك لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلماً مهاجراً، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال علي لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿قَالَ لَا تَزِرِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها:

لعمرك إني حين أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله	فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هداني هاد غير نفسي ودلني	على الله من طردته كل مطرد

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: أنت طردتني كل مطرد^(١).

الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ الكديد - وهو ماء بين عسفان وقديد - فأفطر وأفطر الناس معه^(٢)، ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادي فاطمة - نزله عشاء، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ:

وركب العباس - بعد نزول المسلمين بمر الظهران - بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الخطابة أو أحداً يُخبرُ قريشاً؛ ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها.

(١) حُسن إسلام أبي سفيان هذا بعد ذلك، ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وشهد له بالجنة، وقال: «أرجو أن يكون خلفاً من حمزة». ولما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا علي، فوالله! ما نطقت بخطينة منذ أسلمت. زاد المعاد ١٦٢/٢، ١٦٣.

(٢) صحيح البخاري ٦١٣/٢.

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش، فهم على وجل وترقب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار.

قال العباس: والله! إني لأسير عليها - أي: على بغلة رسول الله ﷺ - إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً. قال: يقول بديل: هذه والله! خزاعة، خمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حنظلة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك؟ فذاك أبي وأمي. قلت: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله.

قال: فما الحيلة؟ فذاك أبي وأمي، قلت: والله! لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحبه.

قال: فجئت به، فكُلِّما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يارسول الله! هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يارسول الله! إني قد أجرتة، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله! لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر! فوالله! لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس! فوالله! لإسلامك كان أحب إليّ من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بي إلا أنني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إليّ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس! إلى رحلك، فإذا أصبحت فأنتني به» فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ أما هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قبل أن تُضرب عنقك،

فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن».

الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة:

وفي هذا الصباح - صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ، غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل^(١)، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس! من هذه؟ فيقول - مثلاً -: سليم، فيقول: مالي وسليم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس! من هؤلاء؟ فيقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالي ولبني فلان؟ حتى مرَّ به رسول الله ﷺ في كتيبه الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله! يا عباس! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله! يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً. قال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة، قال: فنعلم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد، فلما مرَّ بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحْلُ الحُرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً. فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله! ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: «وما قال؟» فقال: كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله! ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: «بل اليوم يوم تُعْظَمُ فيه الكعبة، اليوم يوم أعزَّ الله فيه قريشاً» ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد. وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان ومضى قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأخمش الساقين، قبح من طليعة قوم.

(١) الخطم: الأنف، شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق.

قال أبو سفيان: ويلكم، لا تغرّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تُغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. ففترّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وبثوا أوباشًا لهم، وقالوا: نقدّم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم، وإن أُصيبوا أُعطينا الذي سُئِلْنَا. فاجتمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين، وكان فيهم رجل من بني بكر - حماس بن قيس - كان يُعدُّ قبل ذلك سلاحًا، فقالت له امرأته: لماذا تُعدُّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه قالت: والله! ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: إني والله! لأرجو أن أخدمك بعضهم. ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فمالي علّه هذا سلاح كامل وألّه
وذو غرارين سريع السّله^(١)

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا في الخدمة.

الجيش الإسلامي بذي طوى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذي طوى - وكان يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل - وهناك ورّع جيشه وكان خالد بن الوليد على المجنبه اليمنى - وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً، حتى توافوني على الصفا.

وكان الزبير بن العوام على المجنبه اليسرى، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها - من كداء - وأن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرجال والحسر - وهم الذين ليس معهم سلاح الوقاية مثل الدرع والمغفر - فأمره أن يأخذ بطن الوادي، حتى ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامي يدخل مكة:

وتحرّكت كل كتية من الجيش الإسلامي على الطريق التي كُلفت الدخول منها فأما خالد وأصحابه فلم يلقيهم أحد من المشركين إلا أناموه، وقُتِلَ من أصحابه من المسلمين كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة، كانا قد شدّا عن الجيش، فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلًا جميعًا، وأما سفهاء قريش فلقبهم خالد وأصحابه بالخدمة فناوشوهم شيئًا من قتال،

(١) علّه: يقال علّ الرجل يعمل من المرض، غرارين: حدين، السله: الانتشال والسحب.

فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلاً فانهمزم المشركون، وانهزم حماس بن قيس - الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليّ بابي فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمه
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمه
ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه لهم نهيت خلفنا وهمهمه^(١)
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا.

وأما الزبير فتقدّم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما بالقوس، ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩] والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن مُحَرِّمًا يومئذ، فاقصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففُتِحَتْ، فدخلها فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام، فقال: «قاتلهم الله! والله ما استقسما بها قط» ورأى في الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فُمِحِيَتْ.

الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قريش:

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب، حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يمينه، وعمودًا عن يساره، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلّى هناك، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع؟

(١) النهيت والهمهمة: أصوات.

فأخذ بعضادتي الباب، وهم تحته، فقال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

لا تثريب عليكم اليوم:

ثم قال: «يا معشر قريش! ما ترون أنني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء».

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي رضي الله عنه، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله! اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك، وفي رواية: أن الذي قال ذلك هو العباس، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعِيَ له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم بر ووفاء» وفي رواية ابن سعد في الطبقات أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: «خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان! إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف».

بلال يؤذن على الكعبة:

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعُتَّاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: أما والله! لو أعلم أنه حق لاتبعته، فقال أبو سفيان: أما والله! لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء، فخرج عليهم النبي ﷺ فقال لهم: «قد علمت الذي قلت» ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله! ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك.

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبي طالب، فاغتسل وصلى ثماني ركعات في

بيتها، وكان ضحى، فظنّها من ظنّها صلاة الضحى وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ!» وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلها، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبي ﷺ، فقال لها ذلك.

إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صباية، وهبار بن الأسود، وقيتان كانتا لابن خطل، كانتا تغنيان بهجو النبي ﷺ، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وهي التي وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبي سرح، فجاء به عثمان إلى النبي ﷺ، وشفع فيه فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أسسك عنه، رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتدّ ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبي جهل ففرّ إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبي ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم، وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلّقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره فقال: اقتله. فقتله.

وأما مقيس بن صباية فقتله نميلة بن عبد الله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتدّ ولحق بالمشرّكين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ بمكة، فقتله علي.

وأما هبار بن الأسود فهو الذي كان قد عرض لزَيْنَب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنيها، ففرّ هبار يوم مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه.

وأما القيتان فُقُتِلَت إحداهما، واستؤمن للأخرى، فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

قال ابن حجر: وذكر أبو معشر فيمن أُهْدِرَ دمه الحارث بن طلائل الخزاعي فقتله علي، وذكر الحاكم أيضًا ممن أُهْدِرَ دمه كعب بن زهير، وقصته مشهورة وقد جاء بعد ذلك، وأسلم ومدح، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد أسلمت، وأرنب مولاة ابن خطل أيضًا فُقُتِلَت، وأم سعد، فُقُتِلَت فيما ذكر ابن إسحاق، فكمملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القيتان، اختلف في اسمهما، أو باعتبار الكنية

واللقب^(١).

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان ممن أُهْدِرَ دمه، لكنه بصفته زعيمًا كبيرًا من زعماء قريش خاف على نفسه وقرّ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التي دخل بها مكة، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فردّه، فقال لرسول الله ﷺ: اجعلني بالخيار شهرين. قال: «أنت بالخيار أربعة أشهر». ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرّهما على النكاح الأول.

وكان فضالة رجلًا جريئًا جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو في الطواف، ليقتله فأخبره الرسول ﷺ بما في نفسه فأسلم.

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ في الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجّده بما هو أهله، ثم قال: «أيها الناس! إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخّص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلّت لي ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وفي رواية: «لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه» فقال العباس: يا رسول الله! إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: «إلا الإذخر».

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلًا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ بهذا الصدد: «يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل فلقد كثر القتل إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله».

وفي رواية: فقام رجل من أهل اليمن يقال له: (أبو شاه) فقال: اكتب لي يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»^(٢).

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة:

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهي بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم:

(١) فتح الباري ١١/٨، ١٢.

(٢) انظر لهذه الروايات صحيح البخاري ٢٢/١، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٢-٢/٦١٥، ٦١٧، وصحيح مسلم ٢٧٦/١، ٤٣٨، ٤٣٩، وابن هشام ٤١٥/٢، ٤١٦، أبو داود ٢٧٦/١.

أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه - فلما فرغ من دعائه قال: «ماذا قُلتُم؟» قالوا: لا شيء يا رسول الله! فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله! المحيا محياكم، والممات مماتكم».

أخذ البيعة:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبائع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس، فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفي المدارك^(١): روي أن النبي ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان متكررة خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ: «أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً» فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «ولا تسرقن». فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: وإنك لهند؟ قالت: «نعم» فاعف عما سلف يا نبي الله! عفا الله عنك.

فقال: «ولا يزنين». فقالت: أو تزني الحرة؟ فقال: «ولا يقتلن أولادهن». فقالت: ربيناهم صغاراً، وقتلتموهم كباراً، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قُتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسول الله ﷺ.

فقال: «ولا يأتين بيهتان». فقالت: والله! إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: «ولا يعصينك في معروف». فقالت: والله! ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تُكسّر صنمها وتقول: كنا منك في غرور.

وفي الصحيح: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله! ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا من أهل خبائك. قال: «وأيضاً، والذي نفسي بيده!» قالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل مسيك، فهل عليّ حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ قال: «لا - أراه -

(١) انظر مدارك التنزيل للنسفي تفسير آية البيعة.

إلا بالمعروف^(١).

إقامته ﷺ بمكة، وعمله فيها :

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا، يُجَدِّدُ معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعي، فجَدَّدَ أنصاب الحرم، وبَثَّ سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التي كانت حول مكة، فَكُسِّرَتْ كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كَسَرَهُ.

السرايا والبعوث:

١ - ولما اطمأنَّ رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العزى، لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ٨هـ ليهدمها، وكانت بنخلة، وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وهي أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيبان، فخرج إليها خالد في ثلاثين فارسًا حتى انتهى إليها، فهدمها، ولما رجع سأله رسول الله ﷺ: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا. قال: فإنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد متغيظًا قد جرَّد سيفه، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «نعم، تلك العزى، وقد أيسأت أن تعبد في بلادكم أبدًا».

٢ - ثم بعث عمرو بن العاص في نفس الشهر إلى سواع ليهدمه، وهو صنم لهذيل برهاط، على قرابة ١٥٠ كيلومترًا شمال شرقي مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قال: لم؟ قال: تُمنع. قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك، فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزائنه، فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

٣ - وفي نفس الشهر بعث سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارسًا إلى مناة، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل إليها سعد، وخرجت امرأة عريانة سوداء نائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا في خزائنه شيئًا.

٤ - ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة (٨ هـ) إلى بني جُدَيْمَةَ، داعيًا إلى الإسلام، لا مقاتلًا. فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار وبني سليم، فأنتهى إليهم، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا:

(١) صحيح البخاري ح ٣٨٢٥، ٧١٦١ (فتح الباري ٧/ ١٧٥، ١٣/ ١٤٨).

أسلمنا، فجعلوا يقولون: «صبأنا صبأنا» فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرًا، فأمر يومًا أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبي ﷺ، فذكروا له، فرفع ﷺ يديه وقال: اللهم! إني أبرأ إليك مما صنع خالد» - مرتين - (١).

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله ﷺ عليًّا فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر في ذلك، فبلغ ﷺ فقال: «مهلاً يا خالد! دع عنك أصحابي، فوالله! لو كان أحدُ ذهبًا، ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته» (٢).

تلك هي غزوة فتح مكة، وهي المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذي قضى على كيان الوثنية قضاءً باتًا، لم يترك لبقائها مجالًا ولا مبررًا في ربوع الجزيرة العربية، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والصدام الذي كان دائرًا بين المسلمين والوثنيين، وكانت تلك القبائل تعرف جيدًا أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق، وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم أي تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت، فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول.

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضًا، وناظره في الإسلام، وتمكّن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه، دخل بسببه بشر كثير في الإسلام، حتى إن عدد الجيش الإسلامي الذي لم يزد في الغزوات السالفة على ثلاثة آلاف إذا هو يزخر في هذه الغزوة في عشرة آلاف.

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس، وأزالت عنها آخر الستور التي كانت تحول بينها وبين الإسلام، وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسي والديني كليهما معًا في طول جزيرة العرب وعرضها، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية.

فالطور الذي كان قد بدأ بعد هدنة الحديبية لصالح المسلمين قد تم، وكُمّل بهذا الفتح المبين، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تمامًا، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تمامًا. ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى الرسول ﷺ، فيعتنقوا الإسلام، ويحملوا دعوته إلى العالم، وقد تم استعدادهم لذلك في سنتين آتيتين.

(١) صحيح البخاري ٤٥٠/١، ٦٢٢/٢.

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢٨٩/٢ إلى ٤٣٧، وصحيح البخاري ١/كتاب الجهاد وكتاب المناسك و ٦١٢/٢ إلى ٦١٥، ٦٢٢، فتح الباري ٣/٨ إلى ٢٧، وصحيح مسلم ٤٣٧/١، ٤٣٨، ٤٣٩، ١٠٢/٢، ١٠٣، ١٣٠، وزاد المعاد ١٦٠/٢ إلى ١٦٨، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبدالله النجدي ص ٣٢٢ إلى ٣٥١.

المرحلة الثالثة

وهي آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ، تمثل النتائج التي أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل وفتن واضطرابات ومعارك وحروب دامية، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عامًا.

وكان فتح مكة هو أخطر كسب حصل عليه المسلمون في هذه الأعوام، تغيّر لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حدًا فاصلًا بين المدة السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشًا كانت في نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب في ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثني في جزيرة العرب.

ويمكن أن تُقسّم هذه المرحلة إلى صفحتين:

(١) صفحة المجاهدة والقتال.

(٢) صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام.

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا في هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، إلا أنا اخترنا في الترتيب الوضعي، أن نأتي على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى، ونظرًا إلى أن صفحة القتال ألصق بما مضى، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها في الترتيب.

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شده لها العرب، وبوغت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذي لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطسة، وفي مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال - وكلها من قيس عيلان - رأت هذه البطون من نفسها عزًا وأنفة أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النصري، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

مسير العدو ونزوله بأوطاس:

ولما أجمع القائد العام - مالك بن عوف - المسير إلى حرب المسلمين ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فسار حتى نزل بأوطاس - وهو واد في دار هوازن بالقرب من حنين، لكن وادي أوطاس غير وادي حنين، وحنين واد إلى جانب ذي المجاز، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا من جهة عرفات^(١).

مجرب الحروب يُغلط رأي القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دريد بن الصمة - وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيُه ومعرفته بالحرب، وكان شجاعًا مجربًا - قال دريد: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرر، ولا سهل دهس، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي وثغاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكًا وسأله عما حملة على ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعي ضأن والله! وهل يرد المنهزم شيئًا؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِّحَتْ في أهلك ومالك. ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم اتق الصباة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك.

ولكن مالكًا - القائد العام - رفض هذا الطلب قائلًا: والله! لا أفعل، إنك قد كُبرت وكُبر

(١) انظر فتح الباري ٨/٢٧، ٤٢.

عقلك، والله! لتطيعني هوازن أو لأتكان على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يأليتنى فيها جذع أخب فيها وأضع
أقود وطفاء الزمع كأنها شاة صدع

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم. قال: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، والله! ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ:

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو، فبعث أبا حذرد الأسلمي، وأمره أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل.

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين:

وفي يوم السبت - السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ - غادر رسول الله ﷺ مكة - وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله في مكة - خرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

ولما كان عشية جاء فارس، فقال: إني طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بظعنهم ونعمهم وشائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله» وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبي مرثد الغنوي^(١).

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرية عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم أنواط. فقال: «الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده! كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السنن، لتركبنَّ

(١) انظر سنن أبي داود. الجهاد، فضل الحرس في سبيل الله ٢ / ١٠.

سنن من كان قبلكم»^(١).

وقد كان بعضهم قال نظرًا إلى كثرة الجيش: لن نغلب اليوم، وكان قد شقَّ ذلك على رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامي يباغت الرماة والمهاجمين:

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين الليلة التي بين الثلاثاء والأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرَّق كمناه في الطرق والمداخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلوعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وبالسر عبا رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات وفرَّقها على الناس، وفي عماية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناه العدو في مضايق هذا الوادي فينناهم ينحطون إذا هم تُمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدَّت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب، وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر - الأحمر - وصرخ جبلة أو كلدة بن الجند: ألا بطل السحر اليوم.

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «هلمُّوا إليَّ أيها الناس! أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» ولم يبق معه في موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته. وحيثُ ظهرت شجاعة النبي ﷺ التي لا نظير لها، فقد طفق يركز بغلته قِبَلَ الكفار وهو يقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذًا بلجام بغلته، والعباس بركابه، يكفانها، أن لا تُشرع، ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلاً: «اللهم! أنزل نصرك».

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادي الصحابة قال العباس: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله! لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا ليك! يا ليك!^(٢). ويذهب الرجل ليشي بعيره فلا يقدر

(١) روى ذلك الترمذي. الفتن، باب لتركين سنن من كان قبلكم، ٤/٤١٢، وأحمد في مسنده ٥/٢١٨.

(٢) صحيح مسلم ٢/١٠٠.

عليه، فيأخذ درعه، فيقذفها في عتقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلى سبيله، فيؤم الصوت، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار، يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! ثم قصرت الدعوة في بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحر واحتدم، فقال: «الآن حمي الوطيس». ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة، فلم يزل حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً.

انكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة:

وما هي إلا ساعات قلائل - بعد رمي القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظعن.

وهذا هو التطور الذي أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة، وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامر الأشعري، فتناوش الفريقان القتال قليلاً، ثم انهزم جيش المشركين، وفي هذه المناوشة قُتل القائد أبو عامر الأشعري.

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركت دريد بن الصمة فقتله ربيعة بن ربيع.

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف؛ فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

الغنائم:

وكانت الغنائم: السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرون ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها، ثم حبسها بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري، ولم يُقسّمها حتى فرغ من غزوة الطائف.

وكانت في السبي الشيماء بنت الحارث السعدية؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما جيء بها إلى رسول الله ﷺ عرّفت له نفسها فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منّ عليها، وردّها إلى قومها.

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة في الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هوازن وثقيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النصري - وتحصّنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة في نفس الشهر - شوال سنة ٨هـ.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة في ألف رجل، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف، فمر في طريقه على النخلة اليمانية، ثم على قرن المنازل، ثم على لية، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريباً من حصنه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن.

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففي رواية أنس عند مسلم أن مدة حصارهم كانت أربعين يوماً، وعند أهل السير خلاف في ذلك، فقليل: عشرين يوماً، وقيل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر^(١).

ووقعت في هذه المدة مراماة ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رمياً شديداً كأنه رجل جراد، حتى أُصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقُتل منهم اثنا عشر رجلاً، واضطّروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك.

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شذخة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دابة^(٢)، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالاً.

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأعناب وتحريقها. فقطّعها المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم.

ونادى مناديه ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة

(١) فتح الباري ٨ / ٤٥.

(٢) لم تكن الدابة كدبابتنا اليوم، وإنما كانت تصنع من الخشب، كان الناس يدخلون في جوفها ثم يدفعونها في أصل الحصن لينقبوه وهم في جوفها، أو ليدخلوا من الثقبات.

وعشرون^(١) رجلاً فيهم أبو بكر - تسور حصن الطائف وتدلّى منه ببكرة مستديرة يستقي عليها، فكأنّاه رسول الله ﷺ: «أبا بكر» - فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة.

ولما طال الحصار، واستعصى الحصن، وأُصيب المسلمون بما أُصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحمّاة - وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقيمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرّك، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اغدوا على القتال» فغدوا فأصابهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن شاء الله، فسرّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك.

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا: «آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون».

وقيل: يا رسول الله! ادع على ثقيف، فقال: «اللهم! اهد ثقيفاً وأت بهم».

قسمة الغنائم بالجعرانة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف؛ مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنّى بها، يتنّغي أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظي بالأنصبة الجزلة.

وأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة - كذا في الشفاء^(٢) - وأعطى الحارث بن الحارث بن كلة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجلاً من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين وخمسين وأربعين وأربعين حتى شاع في الناس أن محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطرّوه إلى شجرة، فانترعت رداءه فقال: «أيها الناس! ردّوا عليّ ردائي، فوالذي نفسي بيده! لو كان عندي عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً».

(١) صحيح البخاري ٢/٦٢٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض ٨٦/١.

ثم قام إلى جنب بغيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعه، ثم رفعها، فقال: «أيها الناس! والله! مالي من فيثكم، ولا هذه البرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

وبعد إعطاء المؤلفلة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل إما أربعاً من الإبل وإما أربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بغيراً أو عشرين ومائة شاة.

الأنصار تجد على رسول الله ﷺ:

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، ولكنها لم تُفهم أول الأمر، فأُطْلِقَت السنة شتّى بالاعتراض.

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كُثِرَتْ فيهم القالة، حتى قال قائلهم: لقي والله! رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عباد فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قَسَمْتَ في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي: قال: «فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«يا معشر الأنصار! ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلَّالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟» قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل.

ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال: «أما والله! لو شِئتم لقلتم، فصدقتهم ولصدقتهم: أتيتنا مُكْذِباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك.

أوجدتم يامعشر الأنصار! في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكُم؟ فوالذي نفس محمد بيده! لولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْباً، وسلكت الأنصار شِعْباً؛ لسلكت شعب الأنصار، اللهم! ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحطاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا^(١).

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً، وهم أربعة عشر رجلاً، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا، ثم قالوا: يا رسول الله! إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعَمَّات والخالات وهنَّ مخازي الأقاليم:

فأمنن علينا رسول الله من كرم
إذ فوك تملؤه من محضها الدرر
فإنك المرء نرجوه وننتظر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها
وذلك في أبيات.

فقال: «إن معي من ترون، وإن أحبَّ الحديث إليَّ أصدق، فأبناؤكم ونسأؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً. فقال: «إذا صليت الغداة - أي: صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا»، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس»، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهتموني.

فقال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم، وقد خيَّرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً فمن كان عنده منهن شيء فطابت نفسه بأن يرده فسيبيل ذلك، ومن أحبَّ أن يستمسك بحقه فليردَّ عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا»، فقال الناس: قد طينا لرسول الله ﷺ فقال: «إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض. فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم» فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلَّف منهم أحد غير عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرَدَّ عجوزاً صارت في يديه منهم، ثم ردَّها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية قبطية.

العمرة والانصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم في الجعرانة أهلَّ معتمراً منها، فأدَّى العمرة،

(١) ابن هشام ٤٩٩/٢، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخاري ٦٢٠/٢، ٦٢١.

وانصرف بعد ذلك راجعًا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عتاب بن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة ودخوله فيها لست ليال بقيت من ذي القعدة سنة ٨هـ^(١).

(١) تاريخ ابن خلدون ٤٨/١، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف، وما وقع خلالها - زاد المعاد ج ٢ من ص ١٦٠ إلى ٢٠١، وابن هشام ج ٢ من ص ٣٨٩ إلى ٥٠١، وصحيح البخاري أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ج ٢ من ص ٦١٢ إلى ٦٢٢، وفتح الباري ج ٨ من ص ٣ إلى ٥٨.

البعوث والسرايا

بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود، ويبعث العمال، ويث الدعاء، ويكتب من بقي فيه الاستكبار عن الدخول في دين الله، والاستلام للأمر الواقع الذي شاهده العرب وهاك صورة مصغرة من ذلك:

المصدقون:

قد عرفنا مما تقدّم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان في أواخر أيام السنة الثامنة فما هو إلا أن استهلّ هلال المحرم من سنة ٩هـ، وبعث رسول الله ﷺ المصدقين إلى القبائل. وهذه هي قائمتهم:

- | | |
|-------------------------|---|
| (١) عيينة بن حصن | إلى بني تميم. |
| (٢) يزيد بن الحصين | إلى أسلم وغفار |
| (٣) عباد بن بشر الأشهلي | إلى سليم ومزينة. |
| (٤) رافع بن مكث | إلى جهينة. |
| (٥) عمرو بن العاص | إلى بني فزارة. |
| (٦) الضحاك بن سفيان | إلى بني كلاب. |
| (٧) بشير بن سفيان | إلى بني كعب. |
| (٨) ابن اللثبية الأزدي | إلى بني ذبيان. |
| (٩) المهاجر بن أبي أمية | إلى صنعاء. (وخرج عليه الأسود العنسي وهو بها). |
| (١٠) زياد بن لبيد | إلى حضرموت. |
| (١١) عدي بن حاتم | إلى طيء وبني أسد. |
| (١٢) مالك بن نويرة | إلى بني حنظلة. |
| (١٣) الزبرقان بن بدر | إلى بني سعد (إلى قسم منهم). |
| (١٤) قيس بن عاصم | إلى بني سعد (إلى قسم آخر منهم). |
| (١٥) العلاء بن الحضرمي | إلى البحرين. |

(١٦) علي بن أبي طالب

إلى نجران (الجمع الصدقة والجزية
كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في المحرم سنة ٩هـ؛ بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في المحرم سنة ٩هـ. وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا.

السرايا:

وكما بعث المصدقون إلى القبائل، مست الحاجة إلى بعث عدة من السرايا، مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة. وهاك لوحة تلك السرايا:

١ - سرية عيينة بن حصن الفزاري - في المحرم سنة ٩هـ - إلى بني تميم، في خمسين فارسًا، لم يكن فيهم مهاجري ولا أنصاري، وسببها أن بني تميم كانوا قد أغروا القبائل، ومنعواهم عن أداء الجزية.

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل ويكمن النهار، حتى هجم عليهم في الصحراء، فولّى القوم مدبرين، وأخذ منهم أحد عشر رجلًا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًا، وساقهم إلى المدينة، فأنزلوا في دار رملة بنت الحارث.

وقدّم فيهم عشرة من رؤسائهم، فجاؤوا إلى باب النبي ﷺ، فنادوا: يا محمد! اخرج إلينا، فخرج فتعلّقوا به، وجعلوا يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى حتى صلّى الظهر، ثم جلس في صحن المسجد، فأظهروا رغبتهم في المفاخرة والمباهاة، وقدّموا خطيبهم عطار بن حاجب فتكلّم، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس - خطيب الإسلام - فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد مفاخرًا، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من أقوالنا، ثم أسلموا فأجازهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم، وردّ عليهم نساءهم وأبناءهم^(١).

٢- سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم بناحية تبالة، بالقرب من تربة، في صفر سنة ٩هـ. خرج قطبة في عشرين رجلًا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فشنّ الغارة، فاقتتلوا قتالًا

(١) هكذا ذكره أهل المغازي أن هذه السرية كانت في المحرم سنة ٩هـ. وفيه نظر ظاهر، فإن السياق يشعر بأن الأقرع ابن حابس لم يكن أسلم قبلها وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذي قال حين استردّ رسول الله ﷺ سبايا بني هوازن: أما أنا وبنو تميم فلا. وهذا يقتضي إسلامه قبل هذه السرية.

شديدًا حتى كثر الجرحى في الفريقين جميعًا، وقُتِلَ قطبة مع من قُتِلَ، وساق المسلمون النعم والنساء والشاء إلى المدينة.

٣- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب في ربيع الأول سنة ٩هـ. بُعِثَتْ هذه السرية إلى بني كلاب؛ لدعوتهم إلى الإسلام، فأبوا وقاتلوا، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم رجلاً.

٤- سرية علقمة بن مجرز المدلجي إلى سواحل جدة في شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ في ثلاثمائة، بعثهم إلى رجال من الحبشة كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا^(١).

٥- سرية علي بن أبي طالب إلى صنم لطيء، يقال له: الغلس - ليهدمه - في شهر ربيع الأول سنة ٩هـ. بعثه رسول الله ﷺ في خمسين ومائة على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموه وملأوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام، ووجد المسلمون في خزانة الغلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع، وفي الطريق قَسَمُوا الغنائم، وعزلوا الصفي لرسول الله ﷺ. ولم يقسموا آل حاتم.

ولما جاؤوا إلى المدينة استعظفت أخت عدي بن حاتم رسول الله ﷺ قائلة: يارسول الله! غاب الوافد وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فَمَنْ عَلِيٍّ، مَنْ الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدي بن حاتم. قال: «الذي فر من الله ورسوله؟» ثم مضى، فلما كان الغد قالت مثل ذلك، وقال لها مثل ما قال أمس. فلما كان بعد الغد قالت مثل ذلك، فَمَنْ عَلَيْهَا، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه علي - فقال لها: «سليه الحملان»، فسألته، فأمر لها به.

ورجعت أخت عدي بن حاتم إلى أخيها عدي بالشام، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ: لقد فعل فعله ما كان أبوك يفعلها، ائنه راغبًا أو راهبًا، فجاءه عدي بغير أمان ولا كتاب، فأتى به إلى داره، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما يفرك؟ أيفرك أن تقول: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟» قال: لا. ثم تكلم ساعة ثم قال: «إنما نثر أن يقال: الله أكبر فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟» قال: لا. قال: «إن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضالون». قال: فإني حنيف مسلم. فانبط وجهه فرحًا، وأمر به فتزل

عند رجل من الأنصار، وجعل يأتي النبي ﷺ طرفي النهار^(١).

وفي رواية ابن إسحاق عن عدي: أن النبي ﷺ لما أجلسه بين يديه في داره قال له: «إيه يا عدي بن حاتم! ألم تكن ركوسيا؟» قال: قلت بلى. قال: «أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟» قال: قلت: بلى. قال: «فإن ذلك لم يحل لك في دينك». قال: قلت أجل والله! قال: وعرفت أنه نبي مرسل، يعرف ما يجهل^(٢).

وفي رواية لأحمد أن النبي ﷺ قال: «يا عدي! أسلم تسلم». فقلت إني من أهل دين. قال: «أنا أعلم بدينك منك». فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: «نعم، ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟» فقلت: بلى قال: «فإن هذا لا يحل لك في دينك». قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها^(٣).

وروى البخاري عن عدي قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي! هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله، فلا يجد أحداً يقبله منه» - الحديث - وفي آخره: قال عدي: فرأيت الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه»^(٤).

(١) زاد المعاد ٢/٢٠٥.

(٢) ابن هشام ٢/٥٨١.

(٣) مسند الإمام أحمد ٤/٢٥٧، ٢٧٨.

(٤) صحيح البخاري ح ١٤١٣، ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢.

غزوة تبوك

في رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل لم يبق بعدها مجال للريبة والظن في رسالة محمد ﷺ عند العرب، ولذلك انقلب المجرى تمامًا، ودخل الناس في دين الله أفواجًا - كما سيظهر ذلك مما تقدّمه في فصل الوفود، ومن العدد الذي حضر في حجة الوداع - وانتهت المتاعب الداخلية واستراح المسلمون؛ لتعليم شرائع الله، وبث دعوة الإسلام .

سبب الغزوة:

إلا أنها كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر، وهي قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدّم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي - على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطدامًا عنيفًا في مؤتة، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتعطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم.

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر، ومواطأتهم للمسلمين، إن هذا كان خطرًا يتقدّم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة، ويهدّد الثغور الشامية التي تجاور العرب، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها، وقبل أن تثير القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان.

ونظرًا إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة؛ حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهّز لمعركة دامية فاصلة.

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان:

وكانت الأنباء تتراعى إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين،

حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتاً غير معتاد إلا ويظنون زحف الرومان، ويظهر ذلك جلياً مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهراً في هذه السنة (٩هـ) وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له، ولم يظن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق، يقول عمر بن الخطاب - وهو يروي هذه القصة - : وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أأتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر - وكانا يسكنان في عوالي المدينة، يتناوبان إلى النبي ﷺ - ونحن نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. الحديث^(١).

وفي لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أناثم هو؟ ففرغت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نسائه. الحديث^(٢).

وهذا يدل على خطورة الموقف. الذي كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان. ويزيد ذلك تأكيداً ما فعله المنافقون حينما نُقِلَتْ إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ في كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض في طريقه من عوائق، برغم هذا كله طفق هؤلاء المنافقون يأملون في تحقق ما كانوا يخفونه في صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله ونظرًا إلى قُرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتأمر، في صورة مسجد، وهو مسجد الضرار، أسسوه كفرةً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلي فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين، فلا يظنوا ما يؤتى به في هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم في الخارج، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه - إلى قفوله من الغزوة - لشغله بالجهاز، ففشلوا في مرامهم وفضحهم الله، حتى قام الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدل أن يصلي فيه.

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان:

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط

(١) صحيح البخاري ٧٣٠/٢.

(٢) المصدر نفسه ٣٣٤/١.

الذين قدموا بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هبَّ جيشًا عرمرمًا قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء. وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

زيادة خطورة الموقف:

والذي كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس في عسرة وجذب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال، من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة.

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله. إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان في هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة؛ كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية، وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاصمة في حنين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذي يتربصون الدوائر بالمسلمين ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبي عامر الفاسق سيعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، في حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا يخفق كثير من الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى.

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدًا، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرَّر رسول الله ﷺ الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهَّزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قلَّش ما يريد غزوة يغزوها إلا ورَّشى بغيرها، ولكنه نظرًا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلى للناس أمرهم؛ ليتأهَّبوا أهبة كاملة، وحضَّشهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلال، وتحثُّهم على القتال ورغَّبهم رسول الله ﷺ في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله.

المسلمون يتسابقون إلى التجهُّز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى أمثاله، فقاموا يتجهَّزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - حتى كان يجيء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم: ﴿لَا أَحَدٌ مَّا أَهْلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

كما تسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات. كان عثمان بن عفان قد جهَّز عيرًا للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدَّق بها ثم تصدَّق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها في حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقبلها ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم»^(١)، ثم تصدَّق وتصدَّق، حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كله، ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله - وكانت أربعة آلاف درهم، وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عباد ومحمد بن مسلمة، كلهم جاؤوا بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مدًا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها؛ وبعثت النساء ما قدرن عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم ييخل بماله إلا المنافقون: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩].

الجيش الإسلامي إلى تبوك:

وهكذا تجهَّز الجيش، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وقيل سباع بن عرفة، وخلف على أهله علي بن أبي طالب، وأمره بالإقامة فيهم، وغمص عليه المنافقون، فخرج فلحق برسول الله ﷺ، فردَّه إلى المدينة وقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي».

ثم تحرك رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيرًا -

(١) جامع الترمذي. مناقب عثمان بن عفان ٢/٢١١.

ثلاثون ألف مقاتل، لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قبله قط - فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهّزوه تجهيزًا كاملاً بل كانت في الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلاً يعتقدون بغيرٍ واحدًا وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قتلها - ليشربوا ما في كرشه من الماء، ولذلك سُمِّيَ هذا الجيش جيش العسرة.

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أي وادي القرى - فاستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «لا تشربوا من مائها ولا تتوضؤوا منه للصلاة. وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً»، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام.

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي^(١).

واشدّت في الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ، فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجاتهم من الماء.

ولما قرب من تبوك قال: «إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي». قال معاذ: فجننا وقد سبق إليها رجلان، والعين تبض بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم. وقال لهما: «ما شاء الله أن يقول»، ثم غرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع الوشل، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناناً»^(٢).

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ: «تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقيم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشدّ عقاله»، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقت به بجبلي طيء^(٣).

وكان دأب رسول الله ﷺ في الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب

(١) صحيح البخاري باب نزول النبي ﷺ بالحجر ٦٣٧/٢.

(٢) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢٤٦/٢.

(٣) المصدر نفسه.

والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما.

الجيش الإسلامي بتبوك:

نزل الجيش الإسلامي بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحضَّ على خير الدنيا والآخرة، وحذَّر وأُنذِر، وبشَّر وأبشَر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة. وأما الرومان وحُلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدُّم واللقاء، بل تفرَّقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية. وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

جاء يحنة بن روبة صاحب أيلة، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً فهو عندهم، وصالحه أهل ميناء على ربع ثمارها وكتب لصاحب أيلة «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر».

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعمئة وعشرين فارساً، وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت البقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاه خالد في خيله، فأخذه وجاء إلى رسول الله ﷺ، فحقت دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمئة رأس، وأربعمئة درع، وأربعمئة رمح، وأقرَّ بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء.

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على ساداتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسَّعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيداً، وكفى الله المؤمنين القتال، وفي الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبي ﷺ، وذلك أنه

حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادي، فانتهاز أولئك المنافقون هذه الفرصة. فبينما رسول الله ﷺ وصاحبه يسيران إذ سمعوا وكزة. القوم من روائهم، قد غشوه وهم ملتشمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا في الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم، وبما همّوا به، فلذلك كان حذيفة يسمّى بصاحب سر رسول الله ﷺ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَهُمُوا بِمَالِكٍ يَتَالُؤُاْ﴾.

ولما لاحت للنبي ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: «هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه» وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن^(١):

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وكانت عودته ﷺ من تبوك ودخوله في المدينة في رجب سنة ٩هـ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا. أقام منها عشرين يومًا في تبوك، والبواقي قضاها في الطريق جيئةً وذهابًا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ.

المخلفون:

وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها - اختبارًا شديدًا من الله تعالى، امتاز به المؤمنون من غيرهم، كما هي سنته تعالى في مثل هذه المواطن، حيث يقول: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكره لرسول الله ﷺ قال لهم: «دعوه، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه» فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسًا - نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر - وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلًا^(٢) - فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى

(١) هذا رأي ابن القيم وقد مضى البحث عليه.

(٢) ذكر الواقدي أن هذا العدد كان من منافقي الأنصار، وأن المعذرين من الأعراب كانوا أيضًا اثنين وثمانين رجلًا من بني غفار وغيرهم، وأن عبدالله بن أبي ومن أطاعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عددًا كثيرًا (انظر فتح الباري ١١٩/٨).

من الأعدار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، وباعيعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال ابن أمية - فاختاروا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة أن لا يكلموا هؤلاء الثلاثة، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضاعت عليهم بما رحبت، وضاعت عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

وفرح المسلمون، وفرح الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه وغايته، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم.

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُفْقَرُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١]، وقال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة: «إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم العذر»، قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة».

أثر الغزوة:

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذي لم يجدوا عنه محيداً ولا مناصاً.

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم، والقيام على قبرهم، وأمر بهدم وكره دسهم وتآمرهم التي بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات أُفْتَضُّوا بها افتضاحاً تاماً، لم يبق في معرفتهم بعدها أي خفاء، كأن الآيات قد نصّت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة.

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فحج مكة؛ بل وما قبلها، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه

الغزوة^(١).

نزول القرآن حول موضوع الغزوة:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج - وهو في السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة، وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين والمخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين، إلى غير ذلك من الأمور.

بعض الوقائع المهمة في هذه السنة:

وفي هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية في التاريخ:

- (١) بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عويمر العجلاني وامراته.
- (٢) رجمت المرأة الغامدية التي جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة، رجمت بعد ما فطمت ابنها.
- (٣) توفي النجاشي أصحمة، ملك الحبشة، وصلى عليه رسول الله ﷺ صلاة الغائب.
- (٤) توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ، فحزن عليها حزناً شديداً، وقال لعثمان: «لو كانت عندي ثالثة لزوجتكها».
- (٥) مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر.

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٥١٥/٢ إلى ٥٣٧، وزاد المعاد ٢/٣ إلى ١٣ وصحيح البخاري ٦٣٣/٢، ٦٣٥، ٦٣٦، ٦٣٧ و ٢٥٢/١، ٤١٤ وغيرها وصحيح مسلم مع شرحه للنووي ٢/٢٤٦. وفتح الباري ٨/١١٠ إلى ١٢٦.

حج أبي بكر رضي الله عنه

وفي ذي القعدة أو ذي الحجة من نفس السنة (٩هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرًا على الحج؛ ليقم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك، وذلك تمشيًا منه على عادة العرب في عهود الدماء والأموال، فالتقى علي بأبي بكر بالعرج أو بضجنان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال علي: لا، بل مأمور ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب عند الجمرة، فأذن في الناس بالذي أمره رسول الله ﷺ. ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وأجل لهم أربعة شهور، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئًا، ولم يظاهروا عليهم أحدًا، فأبقى عهدهم إلى مدتهم.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالًا ينادون في الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية في جزيرة العرب، وأنها لا تُبدى ولا تُعيد بعد هذا العام^(١).

(١) صحيح البخاري ١/٢٢٠، ٤٥١، ٦٢٦/٢، ٦٧١، زاد المعاد ٣/٢٥، ٢٦، ابن هشام ٢/٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥.

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبي ﷺ وبعوثه وسراياه؛ لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر في أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها - لا يمكن لنا إلا أن نقول: إن النبي ﷺ كان أكبر قائد عسكري في الدنيا، وأشدّهم وأعمقهم فراسة وتيقظاً، إنه صاحب عبقرية فذة في هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم في صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا في الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيها الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل في أي معركة من المعارك التي خاضها لغلطة في الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش، وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفعة القتال، بل أثبت في كل ذلك أن له نوعاً آخر من القيادة غير ما عرفتها الدنيا في القواد ولم يقع ما وقع في أحد وحينئذٍ إلا من بعض الضعف في أفراد الجيش - في حنين - أو من جهة معصيتهم أوامره، وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهة العسكرية.

وقد تجلّت عبقرية ﷺ في هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبت مجابهاً للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم في أهدافهم - كما فعل في أحد - أو يغيّر مجرى الحرب حتى يُبدّل الهزيمة انتصاراً - كما في حنين - مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتركان على أعصابهم أسوأ الأثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه هي من ناحية القيادة العسكرية الخاصة أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخلية السبيل لنشر الدعوة، كما استطاع أن يتعرّف على المخلصين من أصحابه ممن هو يطن النفاق، ويضمّر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد الذين لا قوا بعده الفرس والرومان في ميادين العراق والشام، ففاقوهم في تخطيط الحروب وإدارة دفعة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات، أن يوفر السكّنى والأرض والحرف والمشاكل للمسلمين، حتى تفصى من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا

دار، وهياً السلاح والكراع والعدة والنفقات، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغي والعدوان على عباد الله.

وقد غيّر أغراض الحروب وأهدافها التي كانت تضطرم نار الحرب لأجلها في الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغي والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوتر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمت النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد في الأرض - في الجاهلية - إذ صارت هذه الحرب - في الإسلام - جهاداً في تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية وغايات محمودة، يعتزُّ بها المجتمع الإنساني في كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهاداً في تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنصف، من نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه، وصارت جهاداً في تخليص المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً. واجعل لنا من لدنك نصيراً، وصارت جهاداً في تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر الله، اغزوا، فلا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً». الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: «يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا»^(١). وكان إذا جاء قومًا بلبيل لم يغر عليهم حتى يصبح، ونهى أشد النهي عن التحريق في النار، ونهى عن قتل الصبية، وقتل النساء وضربهن، ونهى عن النهب حتى قال: «إن النهي ليست بأحل من الميتة». ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا اشتدَّت إليها الحاجة، ولا يبقى سواه سبيل وقال عند فتح مكة: «لا تجهز على جريح، ولا تتبع مدبراً، ولا تقتلن أسيراً» وأمضى السنة بأن السفير لا يُقتل، وشدَّد في النهي عن قتل المعاهدين حتى قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عاماً»... إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التي طهَّرت الحروب من أدران الجاهلية، حتى جعلتها جهاداً مُقَدَّساً^(٢).

(١) صحيح مسلم ٨٢/٢، ٨٣. والمعجم الصغير للطبراني ١٢٣/١، ١٨٧.

(٢) انظر ذلك مفصلاً في زاد المعاد ٢/٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨.

الناس يدخلون في دين الله أفواجًا

كانت غزوة فتح مكة - كما قلنا - معركة فاصلة، قضت على الوثنية قضاءً باتًا، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل، وزالت عنهم الشبهات، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام. قال عمرو بن سلمة: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ - أي النبي ﷺ - فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه. أوحى الله كذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام، فكأنما يقرأ في صدري، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئكم والله! من عند النبي ﷺ حقًا. فقال: «صلوا صلاة كذا في حين كذا، وصلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا». الحديث^(١).

وهذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك أي تأكيد بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين - التاسع والعاشر - ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامي الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح، إذا هو يذخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل، ثم نرى في حجة الوداع بحرًا من رجال الإسلام - مائة ألف من الناس أو مائة ألف وأربعة وأربعون ألفًا منهم - يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد تدوى له الآفاق، وترتج له الأرجاء.

الوفود:

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفدًا، ولا يمكن لنا استقصاؤها، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها، وإنما نذكر منها إجمالاً ماله روعة أو أهمية في التاريخ. وليكن على ذكر من القاريء أو وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح؛ ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا:

(١) وفد عبد القيس - كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل

ذلك. كان رجل منهم يقال له: منقذ بن حيان، يرد المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ، وعلم بالإسلام أسلم وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصري الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «إن فيك خصلتين يجبهما الله: الحلم والأناة».

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلاً، وكان فيهم الجارود ابن العلاء العبدي، وكان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه^(١).

(٢) وفد دوس - كانت وفادة هذه القبيلة في أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخير، وقد قدمنا حديث إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه، حتى يشس منهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: «اللهم! اهد دوساً». ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتاً من قومه إلى المدينة في أوائل سنة سبع ورسول الله ﷺ بخير فلحق به.

(٣) رسول فروة بني عمرو الجذامي - كان فروة قائداً عربياً من قواد الرومان، عاملاً لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعدما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء في معركة مؤتة سنة ٨هـ. ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الرّدة والموت، فاختر الموت على الرّدة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له عفراء، وضربوا عنقه^(٢).

(٤) وفد صداء - جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨هـ. وذلك أن رسول الله ﷺ هياًً بعثاً من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صداء، وبينما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن الحارث الصدائي، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافداً على من ورائي، فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فردّ الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائي إلى قومه فرغّبهم في القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عليه خمسة عشر رجلاً منهم، وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعاهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل في حجة الوداع.

(٥) قدوم كعب بن زهير بن أبي سلمى - كان من بيت الشعراء، ومن أشعر العرب، وكان

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٣٣/١، فتح الباري ٨٥/٨، ٨٦.

(٢) زاد المعاد ٤٥/٣.

يهجو النبي ﷺ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨هـ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بجير بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالًا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقي من شعراء قريش هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدًا جاء تائبًا، وإلا فانج إلى نجاتك، ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب، وأشفق على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل من جهينة، وصلى معه الصبح، فلما انصرف أشار عليه الجهني فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول الله! إن كعب بن زهير، قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن جئتك به؟ قال: «نعم». قال: أنا كعب بن زهير. فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: «دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه».

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التي أولها:

بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم إثرها، لم يفد، مكبول
قال فيها - وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ، ويمدحه -:

نبئت أن رسول الله أوعدني مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم لقد أقوم مقامًا لو يقوم به
لظل يرعد، إلا أن يكون له حتى وضعت يميني ما أنازعه
فلهو أخوف عندي إذ أكلّمه من ضيغم بضراء الأرض مخدره
إن الرسول لنور يستضاء به

ثم مدح المهاجرين من قريش؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل في كعب حين جاء إلا بخير، وعرض في أثناء مدحهم على الأنصار لاستئذان رجل منهم في ضرب عنقه، قال:

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرد السود التنابيل

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار في قصيدة له، وتدارك ما كان قد فرط منه في شأنهم، قال في تلك القصيدة:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكارم كابرًا عن كابر إن الخيار هم بنو الأخيار

(٦) وفد عذرة - قدم هذا الوفد في صفر سنة ٩هـ. هم اثنا عشر رجلاً فيهم حمزة بن النعمان. قال متكلمهم حين سُئِلُوا من القوم: نحن بنو عذرة، أخوة قصي لأمه، نحن الذين عضدوا قصياً، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحّب بهم النبي ﷺ، وبشّرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها. أسلموا وأقاموا أياماً ثم رجعوا.

(٧) وفد بلي - قدم في ربيع الأول سنة ٩هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثاً، وقد سأل رئيسهم أبو الضبيب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة»، وسأل عن وقت الضيافة، فقال: «ثلاثة أيام»، وسأل عن ضالة الغنم فقال: «هي لك أو لأخيك أو للذئب»، وسأل عن ضالة البعير، فقال: «مالك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه».

(٨) وفد ثقيف - كانت وفادتهم في رمضان سنة ٩هـ. وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفي جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف في ذي القعدة سنة ٨هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام - وهو يظن أنهم يطيعونه؛ لأنه كان سيداً مطاعاً في قومه، وكان أحبّ إليهم من أبكارهم - فلما دعاهم إلى الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب - الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا - فأجمعوا أن يرسلوا رجلاً إلى رسول الله ﷺ، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بني مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان ابن أبي العاص الثقفي، وكان أحدثهم سناً.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة في ناحية المسجد، لكي يسمعو القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف. يأذن لهم فيها بالزنى وشرب الخمر وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللّات، وأن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يُكسّروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئاً من ذلك، فخلّوا وتشاوروا، فلم يجدوا محيصاً عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشتروطوا أن يتولّى رسول الله ﷺ هدم اللّات، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبداً؛ فقبل ذلك، وكتب لهم كتاباً، وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص الثقفي، لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلّم الدين والقرآن؛ وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبي العاص في رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول

الله ﷺ، فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائماً عمد إلى أبي بكر لنفس الغرض، (وكان من أعظم الناس بركة لقومه في زمن الردة، فإن ثقيفاً لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف! كنتم آخر الناس إسلاماً، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا على الردة، وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال، وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنى والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيف نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجلاً لهدم الآلات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكرزين وقال لأصحابه: والله! لأضحكنكم من ثقيف. فضرب بالكرزين، ثم سقط يركض، فارتج أهل الطائف، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الربة، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله، إنما هي لكاع حجارة ومدر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها، وأخرجوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرته نبيه وإعزاز دينه^(١).

(٩) رسالة ملوك اليمن - وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حمير، وهم الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قيل ذي رعين، همدان ومعاقر، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتاباً يبين فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجالاً من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل. وجعله على الكورة العليا من جهة عدن بين السكون والسكاسك، وكان قاضياً وحاكماً في الحروب، وعاملاً على أخذ الصدقة والجزية، ويصلي بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على الكورة السفلى: زيد ومأرب، وزمع، والساحل، وقال: «يسراً ولا تُعسراً، وبشراً ولا تُفراً، وتطاوعا ولا تختلفا» وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ. أما أبو موسى الأشعري رضي الله عنه فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع.

(١٠) وفد همدان - قدموا سنة ٩ هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ

(١) زاد المعاد ٢٦/٣، ٢٧، ٢٨، ابن هشام ٣/٥٣٧ إلى ٥٤٢.

كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النبط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يقفل خالداً، فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتاباً من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعاً، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ الكتاب خرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان».

(١١) وفد بني فزارة - قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم في بضعة عشر رجلاً جاؤوا مُقرِّين بالإسلام، وشكوا جذب بلادهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، ورفع يديه واستسقى، وقال: «اللهم! اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم! اسقنا غيثاً، مغيثاً، مريئاً، مريعاً، طبقاً، واسعاً، عاجلاً، غير آجل، نافعاً غير ضار، اللهم! سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولا هدم، ولا غرق، ولا محق، اللهم! اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء»^(١).

(١٢) وفد نجران - (نجران، بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع)^(٢)، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا على دين النصرانية).

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلاً، منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران، أحدهم: العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه: عبد المسيح، والثاني: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه: الأيهم أو شرحبيل، والثالث: الأسقف وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه: أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقي النبي ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول في عيسى عليه السلام، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦١].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله في عيسى ابن مريم في ضوء هذه الآية الكريمة،

(١) زاد المعاد ٤٨/٣.

(٢) فتح الباري ٩٤/٨.

وتركهم ذلك اليوم؛ ليفكروا في أمرهم، فأبوا أن يُقروا بما قال في عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله في عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله! لئن كان نبياً فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم، فجاؤوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله، وترك لهم الحرية الكاملة في دينهم، وكتب لهم بذلك كتاباً، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلاً أميناً، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبي ﷺ بعث إليهم علياً؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين^(١).

(١٣) وفد بني حنيفة - كانت وفادتهم سنة ٩ هـ. وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة الكذاب^(٢) - وهو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بني حنيفة - نزل هذا الوفد في بيت رجل من الأنصار، ثم جاؤوا إلى النبي ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات في مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد التأمل في جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبي ﷺ أراد استثلافه بالإحسان بالقول والفعل أولاً، فلما رأى أن ذلك لا يجدي فيه نفعا تفرّس فيه الشر.

وكان النبي ﷺ قد أرى قبل ذلك في المنام أنه أتى بخزائن الأرض، فوقع في يديه سواران من ذهب، فكبراً عليه وأهماء، فأوحى إليه أن انفخهما، فنفخهما، فذهبا، فأولهما كذايين يخرجان من بعده، فلما صدر مسيلمة ما صدر من الاستنكاف - وقد كان يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته - جاءه رسول الله ﷺ وفي يده قطعة من جريد، ومعه خطيبه ثابت ابن قيس بن شماس، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، فكلّمه فقال له مسيلمة: إن شئت خلّينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن

(١) فتح الباري ٩٤/٨، ٩٥، زاد المعاد ٣/٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، وقد اضطربت الروايات في بيان كيفية وفد نجران، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين، وقد ذكرنا - ملخصاً - ما ترجح عندنا في هذا الوفد.

(٢) فتح الباري ٨٧/٨.

تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، والله! إني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت، وهذا ثابت يجيبك عني». ثم انصرف^(١).

وأخيراً وقع ما تفرّس فيه النبي ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقي يفكر في أمره، حتى ادّعى أنه أشرك في الأمر مع النبي ﷺ، فادّعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحلّ لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، وافتتن به قومه فتبعوه، وأصفقوا معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له: رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم وكتب إلى رسول الله ﷺ كتاباً قال فيه: إني أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فردّ عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٢).

وعن ابن مسعود قال: جاء ابن النواحة، وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ، فقال لهما: أتشهدان أنني رسول الله؟ فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله فقال النبي ﷺ: «أمنت بالله ورسوله. لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما»^(٣).

كان ادّعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقُتِلَ في حرب اليمامة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في ربيع الأول سنة ١٢هـ، قتله وحشي قاتل حمزة، وأما المتنبئ الثاني، وهو الأسود العنسي الذي كان باليمن، فقتله فيروز، واحتز رأسه قبل وفاة النبي ﷺ بيوم ليلة، فأثاه الوحي فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبي بكر رضي الله عنه^(٤).

(١٤) وفد بني عامر بن صعصعة - كان فيهم عامر بن الطفيل عدو الله وأريد بن قيس - أخو لبيد لأمه - وخالد بن جعفر، وجبار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذي غدر بأصحاب بئر معونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تأمر عامر وأريد، واتفقا على الفتك بالنبي ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبي ﷺ، ودار أريد خلفه، واختلط سيفه شبراً، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبي ﷺ، فلما رجعا أرسل الله على أريد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سلولية، فأصيب بغدة في عنقه فمات وهو يقول: «أغدة كغدة البعير، وموتاً في بيت السلولية».

وفي صحيح البخاري: أن عامراً أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك

(١) انظر صحيح البخاري باب وفد بني حنيفة، وباب قصة الأسود العنسي ٢/٦٢٧، ٢٢٨ وفتح الباري ٨/٨٧ إلى ٩٣.

(٢) زاد المعاد ٣/٣١، ٣٢.

(٣) رواه الإمام أحمد، مشكاة المصابيح ٢/٣٤٧.

(٤) فتح الباري ٨/٩٣.

أهل السهل ولي أهل المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء، فطُعنَ في بيت امرأة، فقال: «أغدة كغدة البعير، في بيت امرأة من بني فلان، إيتوني بفروسي. فركب، فمات على فرسه».

(١٥) وفد تحيب - قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم وكان الوفد ثلاثة عشر رجلاً، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلاماً كانوا خلفوه في رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله! ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي، فدعا له بذلك، فكان أقتع الناس، وثبتت في الردة على الإسلام، وذُكر قومه؛ ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة ١٠هـ.

(١٦) وفد طيء - قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل، فلما كلموا النبي ﷺ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ عن زيد: «ما دُكر لي رجل من العرب بفضل، ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه»، وسماه زيد الخير.

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة في سبتي تسع وعشر، وقد ذكر أهل المغازي والسير منها وفود أهل اليمن، والأزد وبني سعد هذيم من قضاة، وبني عامر بن قيس، وبني أسد، وبهراء، وخولان، ومحارب، وبني الحارث بن كعب، وغامد، وبني المتفق، وسلامان، وبني عبس، ومزينة، ومراد، وزبيد، وكندة، وذو مرة، وغسان، وبني عيش، ونخع - وهو آخر الوفود، توافد في منتصف محرم سنة ١١هـ في مائتي رجل - وكانت وفادة الأغلبية من هذه الوفود سنة ٩ و ١٠هـ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١هـ.

وتتابع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيطاً عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لساداتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد ما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب، وقد وصف القرآن بعضهم بقوله في سورة التوبة: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبَغَاءً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ. وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥ وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرِّ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[التوبة: ٩٧، ٩٨] وأثنى على آخرين منهم قال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين؛ فقد كان الإسلام فيهم قويا، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين^(١).

(١) كلمة للخضري في محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/١٤٤. وانظر في تفاصيل الوفود التي ذكرناها أو أشرنا إليها، صحيح البخاري ١/١٣، ٢/٦٢٦، ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٢٩، ٦٣٠. وابن هشام ٢/٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥٣٧، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٠، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٦٠ إلى ٦٠١، وزاد المعاد ٣/٢٦ إلى ٦٠، وفتح الباري ٨/٨٣ إلى ١٠٣.

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدّم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ؛ ينبغي لنا أن نلقي نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي هو فذلكة حياته، والذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين، حتى تَوْجَّ الله هامته بسيادة الأولين والآخرين.

إنه ﷺ قيل له: ﴿يَأَيُّهَا الْمُرْمَلُ قُرْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآيات ﴿يَأَيُّهَا الْمُدْبِرُ قُرْ فَأَنْذِرْ﴾ الآيات، فقام، وظل قائمًا أكثر من عشرين عامًا، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى.

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها، والمُكبَّل بأوهان الشهوات وأغلالها، حتى إذا خَلَصَ هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر، بل معارك متلاحقة.. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها، وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها، قبل أن تنمو وتمد جذورها في التربة، وفروعها في الفضاء، وتظل مساحات أخرى.. ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية؛ حتى كانت الروم تُعَدُّ لهذه الأمة الجديدة، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية.

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت، فهي معركة خالدة، الشيطان صاحبها، وهو لا يني لحظة عن مزاوله نشاطه في أعماق الضمير الإنساني، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة، في شظف من العيش، والدنيا مقبلة عليه، وفي جهد وكد، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة؛ في نصب دائم لا ينقطع، وفي صبر جميل على هذا كله، وفي قيام الليل، وفي عبادة لربه، وترتيل لقرآنه، وتبَتُّل إليه كما أمره أن يفعل^(١).

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتجَيَّر له العقول، فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصَحَّت العقول العليلة، حتى تركت الأصنام؛ بل كُسِّرت، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد، وُسِمِعَ الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد، وانطلق الثَّراء شمالًا وجنوبًا،

(١) كلمة سيد قطب في ظلال القرآن ٢٩/١٦٨، ١٦٩.

يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله.

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور، وسادات وعبيد، وحكام ومحكومون، وظالم ومظلوم، وإنما الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، متمثلون لأحكامه: أذهب الله عنهم عيب الجاهلية ونخوتها وتعاضلها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب.

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفي مسائلها الأخروية، فتقلبت مجرى الأيام، وتغير وجه الأرض، وانعدل خط التاريخ، وتبدلت العقليات.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل الدعوة - ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوساً جامدة لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانحيار، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكُهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب؛ لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة^(١).

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تُشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها.

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ، يُشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث مُعَاذًا على اليمن سنة ١٠هـ قال له فيما قال: يا مُعَاذُ! إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري، فبكي معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ.

و شاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ألواناً من المتاعب بضعاً وعشرين عاماً، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدّى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة.

أعلن النبي ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلمس أن يأتّم برسول الله ﷺ^(١) وفي يوم السبت لأربع بقين من ذي القعدة تهيأ النبي ﷺ للرحيل^(٢)، فترجّل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلّد بدنه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحليفة قبل أن يصلي العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح، فلما أصبح قال لأصحابه: «أتاني الليلة آت من ربي فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة»^(٣).

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريعة وطيب فيه مسك، في بدنه ورأسه، حتى كان ويص الطيب يرى في مفارقة ولحيته، ثم استداهه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أהלّ بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما، ثم خرج، فركب القصواء، فأهل أيضاً، ثم أهل لما استقلت به على البيداء.

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذى طوى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذي الحجة سنة ١٠هـ - وقد قضى في الطريق ثمان ليال، وهي المسافة الوسطى - فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يحل، لأنه كان قارئاً قد ساق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند

(١) روى ذلك مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ٣٩٤/١.

(٢) انظر لتحقيق ذلك فتح الباري ١٠٤/٨.

(٣) رواه البخاري عن عمر ٢٠٧/١.

الحجون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هدي في أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم يحلوا حلالاً تاماً، فترددوا، فقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت» فحل من لم يكن معه هدي، وسمعوا وأطاعوا.

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة - وهو يوم التروية - توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر - خمس صلوات - ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة، فزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفاً من الناس، فقام فيهم خطيباً، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

«أيها الناس! اسمعوا قلبي، فإني لا أدري لعلني لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً^(١).

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - وكان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل - وربما الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله^(٢).

أيها الناس! إنه لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا ولاة أمركم، تدخلوا جنة ربكم^(٣).

وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس «اللهم! اشهد». ثلاث مرات^(٤).

(١) ابن هشام ٦٠٣/٢.

(٢) صحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ ٣٩٧/١.

(٣) معادن الأعمال ج ١١٠٨، ١١٠٩ ورواه ابن جرير وابن عساكر.

(٤) مسلم ٣٩٧/١.

وكان الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خلف^(١).

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ولما نزلت بكى عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص. فقال: «صدقت»^(٢).

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حتى تبيّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهللّه، ووحدّه، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً.

فدفع - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة - وهي الجمرة الكبرى نفسها، كانت عندها شجرة في ذلك الزمان، وتُسَمَّى بجمرة العقبة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات، يُكَبِّرُ مع كل حصاة منها، مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غير - وهي سبع وثلاثون بدنة، تمام المائة - وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.

ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى على بني عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم الناس على سقائيتكم لنزع معكم»، فناولوه دلوفاً فشرب منه^(٣).

وخطب النبي ﷺ يوم النحر - عاشر ذي الحجة - أيضاً حين ارتفع الضحى، وهو على

(١) ابن هشام ٦٠٥/٢.

(٢) رواه ابن أبي شيبة وابن جرير. انظر تفسير ابن كثير ١٥/٢، والدر المنثور ٤٥٦/٢.

(٣) رواه مسلم عن جابر، باب حجة النبي ﷺ ٣٩٧/١، ٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠.

بغلة شهباء، وعلي يُعَبَّر عنه، والناس بين قائم وقاعد^(١). وأعاد في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبي بكرة قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال:

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وقال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى. قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

«وستلقون ربكم، فيسألکم عن أعمالکم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضهم رقاب بعض».

«ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللهم! اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب فَرُبَّ مُبْلَغ أَوْعَى من سامع»^(٢).

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يش أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»^(٣).

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدي المناسك ويُعَلِّم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها، وقد خطب في بعض أيام التشريق أيضاً، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سراء بنت نبهان قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرؤوس، فقال: «أليس هذا أوسط أيام التشريق»^(٤). وكانت خطبته في هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفي يوم النفر الثاني - الثالث عشر من ذي الحجة - نفر النبي ﷺ من منى، فنزل بخيف بني كنانة من الأبطح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر

(١) روى ذلك أبو داود، باب أي وقت يخطب يوم النحر ٢٧٠/١.

(٢) صحيح البخاري، باب الخطبة أيام منى ٢٣٤/١ وغيرها.

(٣) رواه الترمذي ٣٨/٢، ١٣٥، وابن ماجه في الحج، مشكاة المصابيح ٢٣٤/١.

(٤) أبو داود. باب أي يوم يخطب بمنى ٢٦٩/١.

والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وكان قد أمر الصحابة أيضًا.

ولما قضى مناسكه حَتَّ الرُّكَّابَ إلى المدينة المطهَّرة، لا ليأخذ حظًا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفي سبيل الله^(١).

آخر البعوث:

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى حق الحياة لمن آمن بالله ورسوله، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل في الإسلام، كما فعلت بفروة بن عمرو الجذامي الذي كان واليًا على معان من قبل الروم.

ونظرًا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يُجَهِّز جيشًا كبيرًا في صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطيء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبنَّ أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب.

وتكلَّم الناس في قائد الجيش لحدائثة سنه، واستبطؤوا في بعثه، فقال رسول الله ﷺ: «إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وإيم الله إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ، وإن هذا من أحب الناس إليّ بعده»^(٢).

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، ويتظمون في جيشه، حتى خرجوا ونزلوا الجرف، على فرسخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث، حتى يعرفوا ما يقضي الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ في خلافة أبي بكر الصديق^(٣).

(١) انظر لتفصيل حجة النبي ﷺ صحيح البخاري كتاب المناسك ج ١ و ٦٣١/٢ وصحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ وفتح الباري ج ٣ من شرح كتاب المناسك و ج ١٠٣/٨ إلى ١١٠ وابن هشام ٦٠١/٢ إلى ٦٠٥، زاد المعاد ١/ ١٩٦، ٢١٨ إلى ٢٤٠.

(٢) صحيح البخاري. باب بعث النبي ﷺ أسامة ٦١٢/٢.

(٣) المصدر السابق وابن هشام ٦٠٦/٢، ٥٦٠.

إلى الرفيق الأعلى

طلائع التوديع :

لما تكاملت الدعوة، وسيطر الإسلام على الموقف، أخذت طلائع التوديع للحياة والأحياء تطلع من مشاعره ﷺ، وتتضح بعباراته وأفعاله.

إنه اعتكف في رمضان من السنة العاشرة عشرين يومًا، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام فحسب، وتدارسه جبريل القرآن مرتين، وقال في حجة الوداع: «إني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا» وقال وهو عند جمرة العقبة: «خذوا عني مناسككم، فلعلني لا أحج بعد عامي هذا» وأنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، فعرف أنه الوداع، وأنه نعت إليه نفسه.

وفي أوائل صفر سنة ١١هـ خرج النبي ﷺ إلى أحد، فصلى على الشهداء كالمودع للأحياء والأموات، ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرطكم، وإني شهيد عليكم، وإني والله! لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، أو مفاتيح الأرض، وإني والله! ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»^(١).

وخرج ليلة - في منتصفها - إلى البقيع فاستغفر لهم، وقال: «السلام عليكم يا أهل المقابر! ليهن لكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، والآخر شر من الأولى». وبشرهم قائلًا: «إنا بكم للاحقون».

بداية المرض:

وفي اليوم الثامن أو التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١هـ - وكان يوم الإثنين - شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع - وهو في الطريق - أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة، حتى إنهم كانوا يجدون سورتها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه. وقد صلى النبي ﷺ بالناس وهو مريض ١١ يومًا، وجميع أيام المرض كانت ١٣ أو ١٤ يومًا.

الأسبوع الأخير:

وثقل برسول الله ﷺ المرض، فجعل يسأل أزواجه: «أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟» ففهمن

(١) متفق عليه، صحيح البخاري ٥٨٥/٢.

مراده، فأُذِنَ له يكون حيث شاء، فانتقل إلى عائشة، يمشي بين الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه تخطُّ قدماه حتى دخل بيتها، ف قضى عندها آخر أسبوع من حياته. وكانت عائشة تقرأ بالمعوذات والأدعية التي حفظتها من رسول الله ﷺ، فكانت تنفث على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة.

قبل الوفاة بخمسة أيام:

ويوم الأربعاء قبل خمسة أيام من الوفاة، اتقدت حرارة العلة في بدنه، فاشتدَّ به الوجع وغمي، فقال: هريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتَّى، حتى أخرج إلى الناس، فأعهد إليهم، فأقعده في مخضب، وصبوا عليه الماء، حتى طفق يقول: «حسبكم، حسبكم».

وعند ذلك أحس بخفة، فدخل المسجد - وهو معصوب الرأس بعصابة دسمة - حتى جلس على المنبر، وخطب الناس - والناس مجتمعون حوله - فقال:

«لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» - وفي رواية: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١) - وقال: «لا تتخذوا قبوري وثناً يُعبد»^(٢).

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: «من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه».

ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، وعاد لمقالاته الأولى في الشحناء وغيرها، فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل! ثم أوصى بالأنصار قائلاً:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كرشي وعييتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحْسِنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» وفي رواية أنه قال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»^(٣).

ثم قال: «إن عبدًا خيرَه الله أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده» قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر. قال: فدينك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيرَه الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فدينك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّر،

(١) صحيح البخاري ٦٢/١، موطأ الإمام مالك ص ٣٦٠.

(٢) موطأ الإمام مالك ص ٦٥.

(٣) صحيح البخاري ٥٣٦/١.

وكان أبو بكر أعلمنا^(١).

ثم قال رسول الله ﷺ: «إن من أمن الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»^(٢).

قبل أربعة أيام:

ويوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام قال - وقد اشتدّ به الوجع - : «هلموا أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده» - وفي البيت رجال فيهم عمر - فقال عمر: قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرّبوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللّغظ والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا عني»^(٣).

وأوصى ذلك اليوم بثلاث: أوصى بإخراج اليهود والنصارى والمشرّكين من جزيرة العرب، وأوصى بإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، أما الثالث فنسبه الراوي، ولعلّه الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة، أو تنفيذ جيش أسامة، أو هي «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

والنبي ﷺ مع ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم - يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام - وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها بالمرسلات عُرْفًا^(٤).

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد. قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: «أصلي الناس؟» قلنا: لا يارسول الله! وهم ينتظرونك. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب». ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلي الناس؟» - ووقع ثانياً وثالثاً ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء - فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام^(٥)؛ ١٧ صلاة في حياته ﷺ. صلاة العشاء من يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الإثنين وخمس عشرة صلاة فيما بينها.

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر، حتى لا

(١) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٥٤٦/٢.

(٢) صحيح البخاري ٥١٦/١.

(٣) متفق عليه. مشكاة المصابيح ٥٤٨/٢، صحيح البخاري ٢٢/١، ٤٢٩، ٤٤٩، ٦٣٨/٢.

(٤) رواه البخاري عن أم الفضل: باب مرض النبي ﷺ ٦٣٧/٢.

(٥) متفق عليه مشكاة المصابيح ١٠٢/١.

يتشاءم به الناس^(١)، فأبى، وقال: «إنكن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليُصَلَّ بالناس»^(٢).

قبل يوم أو يومين:

ويوم السبت أو الأحد وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بأن لا يتأخر، قال: «أجلساني إلى جنبه» فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويسمع الناس التكبير^(٣).

قبل يوم:

وقبل يوم من الوفاة - يوم الأحد - أعتق النبي ﷺ غلامه، وتصدق بستة أو بسبعة دنانير كانت عنده^(٤)، ووهب للمسلمين أسلحته، وفي الليل أرسلت عائشة بمصباحها إلى امرأة من النساء. وقالت: أقطري لنا في مصباحنا من عكتك السمن^(٥)، وكانت درعه ﷺ مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير^(٦).

آخر يوم من الحياة:

روى أنس بن مالك: أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر يوم الإثنين - وأبو بكر يصلي بهم - لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ، كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمّ المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم، فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الست^(٧).

ثم لم يأت على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي ﷺ فاطمة فسارها بشيء فبكت. ثم دعاها، فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة، فسألنا عن ذلك - أي فيما بعد - فقالت: سارني النبي ﷺ أنه

(١) ينظر له البخاري مع الفتح ٤٤٧/٧ ح ٤٤٤٥ ومسلم كتاب الصلاة ١/٣١٣ ح ٩٣، ٩٤.

(٢) صحيح البخاري ١/٩٩.

(٣) صحيح البخاري ١/٩٨، ٩٩.

(٤) ابن سعد ٢/٢٣٧.

(٥) المصدر نفسه ٢/٢٣٩.

(٦) صحيح البخاري ح ٢٠٦٨، ٢٠٩٦، ٢٢٠٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٣٨٦، ٢٥٠٩، ٢٥١٣، ٢٩١٦، ٤١٦٧.

(٧) المصدر نفسه، باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤٠.

يقبض في وجهه الذي توفي فيه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أنني أول أهله يتبعه فضحكت^(١).
وبشّر النبي ﷺ فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين^(٢).

ورأت فاطمة ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه، فقالت: واكرب أباه!
فقال لها: «ليس على أهلك كرب بعد اليوم»^(٣).

ودعا الحسن والحسين فقَبَلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهنَّ وذكرهنَّ.
وظفّق الوجع يشتدُّ ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخير حتى كان يقول: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»^(٤).

وقد طرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال، وهو كذلك [وكان هذا آخر ما تكلم وأوصى به الناس]: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد» - يحذر ما صنعوا - [لا يقيّن دينان بأرض العرب]^(٥).

وأوصى الناس، فقال: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»، كرر ذلك مرارًا^(٦).

الاحتضار:

وبدأ الاحتضار فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونجري، وأن الله جمع بين ربي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن - بن أبي بكر - وبه السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيتُه ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتدَّ عليه، وقلت: أليّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فليتنه. فأمره - وفي رواية أنه استنَّ بها كأحسن ما كان مستنًا - وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» - الحديث -^(٧).

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف،

(١) صحيح البخاري ٦٣٨/٢.

(٢) ويدل بعض الروايات أن هذا الحوار والبشارة لم يكن في آخر يوم من حياته بل في آخر أسبوع. رحمة للعالمين ١/ ٢٨٢.

(٣) صحيح البخاري ٦٤١/٢.

(٤) المصدر نفسه ٦٣٧/٢.

(٥) صحيح البخاري مع الفتح ٦٣٤/١ ح ٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٣٤٥٣، ٣٤٥٤، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ٥٨١٥، ٥٨١٦ وابن سعد ٢/ ٢٥٤.

(٦) المصدر الأول نفسه ٦٣٧/٢.

(٧) صحيح البخاري. باب مرض النبي ﷺ ٦٤٠/٢.

وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم! اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى»^(١).

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثاً، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقع هذا الحادث حين اشتدت الضحى من يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ. وقد تم له ﷺ ثلاث وستون سنة وزادت أربعة أيام.

تفانم الأحزان على الصحابة:

وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها. قال أنس: ما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وما رأيت يوماً كان أقبح ولا أظلم من يوم مات فيه رسول الله ﷺ^(٢).

ولما مات قالت فاطمة: يا أبتاه! أجاب ربا دعاه. يا أبتاه! من جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه^(٣).

موقف عمر:

ووقف عمر بن الخطاب يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات^(٤).

والله! ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات.

موقف أبي بكر:

وأقبل أبو بكر على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة فتيمن رسول الله ﷺ، وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه، فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مِتَّها.

ثم خرج أبو بكر وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر! فأبى عمر أن يجلس، فشهد

(١) المصدر نفسه والباب، وباب آخر ما تكلم النبي ﷺ ٢/٦٣٨، ٦٣٩، ٦٤٠، ٦٤١.

(٢) رواه الدارمي. مشكاة المصابيح ٥٤٧/٢.

(٣) صحيح البخاري باب مرض النبي ﷺ ٢/٦٤١.

(٤) ابن هشام ٢/٦٥٥.

أبو بكر، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، من كان منكم يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] قال ابن عباس: والله! لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها.

قال ابن المسيب: قال عمر: والله! ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات^(١).

التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض:

ووقع الخلاف في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فجرت مناقشات ومجادلات وحوار وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، وأخيرًا اتفقوا على خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومضى في ذلك بقية يوم الإثنين حتى دخل الليل، وشغل الناس عن جهاز رسول الله ﷺ، حتى كان آخر الليل - ليلة الثلاثاء - مع الصبح، وبقي جسده المبارك على فراشه، مغشى بثوب حبرة، قد أغلق دونه الباب أهله.

ويوم الثلاثاء غسلوا رسول الله ﷺ من غير أن يجردوه من ثيابه، وكان القائمون بالغسل العباس وعليًا، والفضل وقثم ابني العباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ، وأسامة بن زيد، وأوس بن خولي. فكان العباس وقثم يقلبونه، وأسامة وشقران يصبان الماء، وعلي يغسله، وأوس أسنده إلى صدره^(٢). وقد غسل ثلاث غسلات بماء وسدر، وغسل من بثر يقال لها: الغرس لسعد بن حيشمة بقاء، وكان يشرب منها^(٣).

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب يمانية بيض سحولية من كرسف، ليس فيها قميص ولا عمامة^(٤). أدرجوه فيها إدراجًا.

واختلفوا في موضع دفنه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض» فرفع أبو طلحة فراشه الذي تُوفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدًا. ودخل الناس الحجرة أرسالًا عشرة عشرة، يُصلُّون على رسول الله ﷺ أفذاذًا ولا يؤمُّهم

(١) صحيح البخاري ٦٤٠/٢، ٦٤١.

(٢) لينظر ابن ماجه ٥٢١/١.

(٣) لينظر طبقات ابن سعد ٢٧٧/٢ - ٢٨١.

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري ١٦٩/١، صحيح مسلم ٣٠٦/١.

أحد، وصلى عليه أولاً أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، وصلت عليه النساء بعد الرجال، ثم صلى عليه الصبيان أو الصبيان، ثم النساء^(١).

ومضى في ذلك يوم الثلاثاء كاملاً، حتى دخلت ليلة الأربعاء، قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي^(٢) من جوف الليل [وفي رواية: من آخر الليل] من ليلة الأربعاء^(٣).

(١) ينظر موطأ الإمام مالك. الجنائز، ما جاء في دفن الميت ١/ ٢٣١، وابن سعد ٢/ ٢٨٨-٢٩٢.

(٢) جمع مسحاة: ما يجرف به الطين.

(٣) مسند أحمد ٦/ ٦٢، ٢٧٤، وانظر تفصيل لحوقه بالرفيق الأعلى: صحيح البخاري، باب مرض النبي ﷺ وعدة أبواب بعده مع فتح الباري وصحيح مسلم ومشكاة المصابيح باب وفاة النبي ﷺ وابن هشام ٢/ ٦٤٩ إلى ٦٦٥ وتلقيح فهوم أهل الأثر ص ٣٨، ٣٩ ورحمة للعالمين ١/ ٢٧٧ إلى ٢٨٦ وتعيين عامة الأوقات من المرجع الأخير.

البيت النبوي

(١) كان البيت النبوي في مكة قبل الهجرة يتألف منه عليه الصلاة والسلام، ومن زوجته خديجة بنت خويلد، تزوجها وهو في خمس وعشرين من سنه، وهي في الأربعين، وهي أول من تزوجها من النساء، ولم يتزوج عليها غيرها، وكان له منها أبناء وبنات، أما الأبناء، فلم يعيش منهم أحد، وأما البنات فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، فأما زينب فتزوجها قبل الهجرة ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وأما رقية وأم كلثوم فقد تزوجهما عثمان بن عفان رضي الله عنه الواحدة بعد الأخرى، وأما فاطمة فتزوجها علي بن أبي طالب بين بدر وأحد، ومنها كان الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

ومعلوم أن النبي ﷺ كان ممتازاً عن أمته بحل التزوج بأكثر من أربع زوجات لأغراض كثيرة، فكان عدد من عقد عليهن ثلاث عشرة امرأة، منهن تسع مات عنه، واثنان توفيتا في حياته، إحداهما خديجة، والأخرى أم المساكين زينب بن خزيمة، واثنان لم يدخل بهما. وهاهي أسماؤهن وشيء عنهن.

(٢) سودة بنت زمعة، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة عشر من النبوة، بعد وفاة خديجة بأيام، وكانت قبله عند ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو، فمات عنها.

(٣) عائشة بنت أبي بكر الصديق، تزوجها في شوال سنة إحدى عشرة من النبوة، بعد زواجه بسودة بسنة، وقبل الهجرة بستين وخمسة أشهر، تزوجها وهي بنت ست سنين، وبني بها في شوال بعد الهجرة بسبعة أشهر في المدينة، وهي بنت تسع سنين، وكانت بكرًا ولم يتزوج بكرًا غيرها، وكانت أحب الخلق إليه، وأفقّه نساء الأمة، وأعلمهن على الإطلاق.

(٤) حفصة بنت عمر بن الخطاب، تأيمت من زوجها خنيس بن حذافة السهمي بين بدر وأحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٣هـ.

(٥) زينب بنت خزيمة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت تُسمّى أم المساكين، لرحمتها إياهم ورقتها عليهم، كانت تحت عبد الله بن جحش، فاستشهد في أحد، فتزوجها رسول الله ﷺ سنة ٤هـ. ماتت بعد الزواج بشهرين أو ثلاثة أشهر.

(٦) أم سلمة هند بنت أبي أمية، كانت تحت أبي سلمة، فمات عنها في جمادى الأخرى سنة ٤هـ، فتزوجها رسول الله ﷺ في شوال من نفس السنة.

(٧) زينب بنت جحش بن رباب من بني أسد بن خزيمة، وهي بنت عمة رسول الله ﷺ،

وكانت تحت زيد بن حارثة - الذي كان يعتبر ابنًا للنبي ﷺ - فطلّقها زيد، فأُنزل الله تعالى يخاطب رسول الله ﷺ ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، وفيها نزلت من سورة الأحزاب آيات فصلت قضية التبني - وسأتي على ذكرها - تزوجها رسول الله ﷺ في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة.

(٨) جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة، كانت في سبي بني المصطلق في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاّتها، فقصى رسول الله ﷺ كتابتها، وتزوجها في شعبان سنة ٦هـ.

(٩) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، كانت تحت عبيد الله بن جحش، وهاجرت معه إلى الحبشة، فارتدّ عبيد الله وتنصّر، وتوفي هناك، وثبتت أم حبيبة على دينها وهجرتها، فلما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتابه إلى النجاشي في المحرم سنة ٧هـ. خطب عليه أم حبيبة فزوجها إياه وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة.

(١٠) صفية بنت حيي بن أخطب من بني إسرائيل، كانت من سبي خيبر، فاصطفاه رسول الله ﷺ لنفسه، فأعتقها وتزوجها بعد فتح خيبر سنة ٧هـ.

(١١) ميمونة بنت الحارث، أخت أم الفضل لبابة بنت الحارث، تزوجها في ذي القعدة سنة ٧هـ، في عمرة القضاء، بعد أن حل منها على الصحيح.

فهؤلاء إحدى عشرة سيدة تزوّج بهن الرسول ﷺ، وبني بهن وتوفيت منهن اثنتان - خديجة وزينب أم المساكين - في حياته، وتوفي هو عن التسع البواقي.

وأما الاثنتان اللتان لم يُنَّ بهما، فواحدة من بني كلاب، وأخرى من كندة، وهي المعروفة بالجونية، وهناك خلافات لا حاجة إلى بسطها.

وأما السراري فالمعروف أنه تسرّى باثنتين إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم، الذي توفي صغيرًا بالمدينة في حياته ﷺ، في ٢٨/ أو ٢٩ من شهر شوال سنة ١٠هـ وفق ٢٧ يناير سنة ٦٣٢م. والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاه لنفسه، وقيل: بل هي من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجحه ابن القيم، وزاد أبو عبيدة اثنتين أخريين، جميلة أصابها في بعض السبي، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش^(١).

ومن نظر إلى حياة الرسول ﷺ عرف جيدًا أن زواجه بهذا العدد الكثير من النساء في أواخر عمره بعد أن قضى ما يقارب ثلاثين عامًا من ريعان شبابه وأجود أيامه مقتصرًا على زوجة

(١) انظر زاد المعاد ٢٩/١.

واحدة شبه عجوز - خديجة ثم سودة - عرف أن هذا الزواج لم يكن لأجل أنه وجد بغته في نفسه قوة عارمة من الشبق، لا يصبر معها إلا بمثل هذا العدد الكثير من النساء؛ بل كانت هناك أغراض أخرى أجَلَّ وأعظم من الغرض الذي يحققه عامة الزواج.

فاتجاه الرسول ﷺ إلى مصاهرة أبي بكر وعمر بزواجه بعائشة وحفصة - وكذلك تزويجه ابنته فاطمة بعلي بن أبي طالب، وتزويجه ابنته رقية ثم أم كلثوم بعثمان بن عفان - يشير إلى أنه يبغي من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة، الذين عرف بلاءهم وفداءهم للإسلام في الأزمات التي مرت به، وشاء الله أن يجتازها بسلام.

وكان من تقاليد العرب الاحترام للمصاهرة، فقد كان الصهر عندهم بابًا من أبواب التقرب بين البطون المختلفة، وكانوا يرون مناوأة ومحاربة الأصهار سُبَّةً وعارًا على أنفسهم، فأراد رسول الله ﷺ بزواج عدة من أمهات المؤمنين أن يكسر سورة عدا القبايل للإسلام، ويُطْفِئ حدة بغضائهما، كانت أم سلمة من بني مخزوم - حي أبي جهل وخالد بن الوليد - فلما تزوجها رسول الله ﷺ لم يقف خالد من المسلمين موقفه الشديد بأحد، بل أسلم بعد مدة غير طويلة طائعًا راغبًا، وكذلك أبو سفيان لم يواجه رسول الله ﷺ بأي محاربة بعد زواجه بابنته أم حبيبة، وكذلك لا نرى من قبيلتي بني المصطلق وبني النضير أي استفزاز وعداء بعد زواجه بجويرية وصفية؛ بل كانت جويرية أعظم النساء بركة على قومها، فقد أطلق الصحابة أسر مائة بيت من قومها حين تزوجها رسول الله ﷺ، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ، ولا يخفى ما لهذا المن من الأثر البالغ في النفوس.

وأكبر من كل ذلك وأعظم أن النبي ﷺ كان مأمورًا بتزكية وتنقيف قوم لم يكونوا يعرفون شيئًا من آداب الثقافة والحضارة والتقيّد بلوازم المدنية، والمساهمة في بناء المجتمع وتعزيزه.

والمبادئ التي كانت أسسًا لبناء المجتمع الإسلامي، لم تكن تسمح للرجال أن يختلطوا بالنساء، فلم يكن يمكن تثقيفهن مباشرة مع المراعاة لهذه المبادئ، مع أن ميسر الحاجة إلى تثقيفهن لم يكن أهون وأقل من الرجال، بل كان أشد وأقوى.

وإذن فلم يكن للنبي ﷺ سبيل إلا أن يختار من النساء المختلفة الأعمار والمواهب ما يكفي لهذا الغرض، فيزكيهن ويربيهن، ويعلمهن الشرائع والأحكام، ويتقهن بثقافة الإسلام حتى يعدهن؛ لتربية البدويات والحضرية، العجائز منهن والشابات، فيكفين مؤنة التبليغ في النساء.

وقد كان لأمهات المؤمنين فضل كبير في نقل أحوالهن ﷺ المنزلية للناس، خصوصًا من طالت حياته. منهن كعائشة، فإنها روت كثيرًا من أفعاله وأقواله.

وهناك نكاح واحد كان لنقض تقليد جاهلي متأصل، وهي قاعدة التبنّي، وكان للمتبنّي عند

العرب في الجاهلية جميع الحرمات والحقوق التي كانت للابن الحقيقي سواء بسواء. وكانت قد تأصلت تلك القاعدة في القلوب، بحيث لم يكن محوها سهلاً، لكن كانت تلك القاعدة تعارض معارضة شديدة للأسس والمبادئ التي قرّرها الإسلام في النكاح والطلاق والميراث وغير ذلك من المعاملات، وكانت تلك القاعدة تجلب كثيراً من المفاسد والفواحش التي جاء الإسلام؛ ليمحوها عن المجتمع.

ولهدم تلك القاعدة أشار الله تعالى إلى عدم الاعتداد بالتبني، وكانت ابنة عمه رسول الله ﷺ زينب بنت جحش تحت زيد، ولم يكن بينهما توافق، حتى همّ زيد بطلاقها، فخشي رسول الله ﷺ أن يقع في امتحان إبطال قاعدة التبني بنكاحها بعد انقضاء العدة لو طلقها زيد. وذلك في ساعة تألب الأحزاب على رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان رسول الله ﷺ يخاف دعاية المنافقين والمشركين واليهود، وما يكون له من الأثر السيئ في نفوس ضعفاء المسلمين، فأحب أن لا يطلق زيد؛ حتى لا يقع رسول الله ﷺ في هذا الامتحان.

ولا شك أن هذا التردد والانحياز كان لا يطابق تمام المطابقة للعزيمة التي بعث بها رسول الله ﷺ، فعاتبه الله على ذلك فيما بعد وقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وكان قدر الله أن زيداً طلقها، فزوّج الله رسوله ﷺ بها بعد أن انقضت عدتها. وقد أوجب عليه هذا النكاح، ولم يترك له خياراً ولذلك تولى الله هذا النكاح بنفسه يقول: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وذلك ليهدم قاعدة التبني فعلاً كما هدمها قولاً: ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥] ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وكم من التقاليد المتأصلة الجازمة لا يمكن هدمها أو تعديلها لمجرد القول، بل لا بد له من مقارنة فعل صاحب الدعوة، ويتضح ذلك بما صدر من المسلمين في عمرة الحديبية، كان هناك أولئك المسلمون الذين رأهم عروة بن مسعود الثقفي، لا يقع من النبي ﷺ نخامة إلا في يد أحدهم، ورأهم يتبادرون إلى وضوئه حتى كادوا يقتتلون عليه، نعم كان أولئك الذين تسابقوا إلى البيعة على الموت أو على عدم الفرار تحت الشجرة، والذين كانوا فيهم مثل أبي بكر وعمر، لما أمر النبي ﷺ أولئك الصحابة المتفانين في ذاته - بعد عقد الصلح - أن يقوموا فينحروا هديهم لم يقيم لامثال أمره أحد، حتى أخذه القلق والاضطراب، ولكن لما أشارت عليه أم سلمة أن يقوم إلى هديه فينحر، ولا يكلم أحداً ففعل، تبادر الصحابة إلى

اتباعه في فعله، فتسابقوا إلى نحر جزورهم. وبهذا الحادث يتضح جلياً ما هو الفرق بين أثري القول والفعل لهدم قاعدة راسخة.

وقد أثار المنافقون وسائس كثيرة، وقاموا بدعايات كاذبة واسعة حول هذا النكاح، أثر بعضها في ضعفاء المسلمين، لا سيما أن زينب كانت خامسة أزواجه ﷺ، ولم يكن يعرف المسلمون حل الزواج بأكثر من أربع نسوة، وأن زيذاً كان يُعْتَبَرُ ابناً للنبي ﷺ، والزواج بزوجة الابن كان من أغلظ الفواحش، وقد أنزل الله في سورة الأحزاب حول الموضوعين ما شفى وكفى، وعلم الصحابة أن التبنّي ليس له أثره في الإسلام، وأن الله تعالى وسّع لرسوله ﷺ في الزواج ما لم يوسع لغيره، لأغراضه النبيلة الممتازة.

هذا، وكانت عشرته ﷺ مع أمهات المؤمنين في غاية الشرف والنبيل والسمو والحسن، كما كن في أعلى درجة من الشرف والقناعة والصبر والتواضع والخدمة والقيام بحقوق الزواج، مع أنه كان في شظف من العيش لا يطيقه أحد قال أنس: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفاً مرفقاً حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميماً بعينه قط^(١) وقالت عائشة: إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار فقال لها عروة: ما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء^(٢). والأخبار بهذا الصدد كثيرة.

ومع هذا الشظف والضيق لم يصدر منهم ما يوجب العتاب إلا مرة واحدة - حسب مقتضى البشرية، وليكون سبباً لتشريع الأحكام - فأنزل الله آية التخيير ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَا أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً وَلَئِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩] وكان من شرفهن ونبلهن أنهن آثرن الله ورسوله، ولم تمل واحدة منهن إلى اختيار الدنيا.

وكذلك لم يقع منهن ما يقع بين الضرائر مع كثرتهم إلا شيء يسير من بعضهن حسب اقتضاء البشرية، ثم عاتب الله عليه فلم يعدن له مرة أخرى، وهو الذي ذكره الله في سورة التحريم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ إلى تمام الآية الخامسة.

وأخيراً أرى أنه لا حاجة إلى البحث في موضوع مبدأ تعدد الزوجات، فمن نظر في حياة سكان أوربا الذين يصدر منهم النكير الشديد على هذا المبدأ، ونظر إلى ما يقاسون من الشقاوة والمرارة، وما يأتون من الفضائح والجرائم الشنيعة، وما يواجهون من البلايا والقلاقل لانحرافهم عن هذا المبدأ كفى له ذلك عن البحث والاستدلال، فحياتهم أصدق شاهد على عدالة هذا المبدأ، وإن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار.

(١) صحيح البخاري ٩٥٦/٢.

(٢) المصدر نفسه والصفحة.

الصفات والأخلاق

كان النبي ﷺ يمتاز من كمال خَلْقِهِ وكمال خُلُقِهِ بما لا يحيط بوصفه البيان، وكان من أثره أن القلوب فاضت بإحلاله، والرجال تفتانوا في حياته وإكباره، بما لا تعرف الدنيا لرجل غيره، فالذين عاشروه أحَبُّوه إلى حد الهيام، ولم يبالوا أن تندق أعناقهم ولا يחדش له ظفر، وما أحبوه كذلك إلا لأن أنصبت من الكمال الذي يعيش عادة لم يرزق بمثلها بشر وفيما يلي نورد ملخص الروايات في بيان جماله وكماله مع اعتراف العجز عن الإحاطة.

جمال الخلق:

قالت أم معبد الخزاعية عن رسول الله ﷺ - وهي تصفه لزوجها، حين مر بخيمتها مهاجرة - :
- ظاهر الوضأة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تُعَبْهُ ثُجْلَةٌ، ولم تزر به صعلة، وسيم قسيم، في عينيه دَعَجٌ، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه سطح، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فضل، لا نزر، ولا هذر، كأن منطق خرزات نظمن يتحدرن، ربعة، لا تقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند^(١).

وقال علي بن أبي طالب - وهو ينعت رسول الله ﷺ - : لم يكن بالطويل المُمعَّط، ولا القصير المتردد، وكان رُبْعَةً من القوم، ولم يكن بالجَعْدِ القَطِيطِ، لا بالسَّبِطِ، وكان جَعْدًا رَجَلًا، ولم يكن بالمُطَهَّمِ ولا بالمُكَلَّمِ، وكان في الوجه تَدْوِيرٌ، وكان أبيضَ مشربًا، أَدْعَجَ العينين، أَهْدَبَ الأَشْفَارَ، جَلِيلَ المُشَاشِ والكَتَدِ، دقيق المسربة، أجرد، شَنَّ الكفين والقدمين، إذا مشى تَقَلَّعَ كأنما يمشي في صَبَبٍ، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين، أجود الناس كَفًّا، وأجراً الناس صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة

(١) زاد المعاد ٤٥/٢. الثجلة: ضخامة البدن. الصعلة: صغر الرأس. وسيم قسيم: حسن جميل. الدعج: سواد العين. وفي أشفاره وطف: في شعر أشفاهه طول. صحل: بحة وخشونة. سطح: طول. أزج: الحاجب الرقيق في الطول. لا نزر ولا هذر: أي وسط لا قليل ولا كثير. محفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. المحشود: الذي يجتمع إليه الناس. ولا مفندا: لا يفند أحدًا أي يهجه ويستقل عقله بل جميل المعاشرة حسن الصحبة، صاحبه كريم عليه.

أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله، ﷺ^(١).

وفي رواية عنه: أنه كان ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسربة، إذا مشى تكفأ تكفياً كأنما ينحط من صلب^(٢).

وقال جابر بن سمرة: كان ضليع الفم، أشكل العين، منهوس العين^(٣).

وقال أبو الطفيل: كان أبيض، مليح الوجه، مقصداً^(٤).

وقال أنس بن مالك: كان بسط الكفين. وقال: كان أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق، ولا آدم، قُبُضَ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء^(٥).

وقال: إنما كان شيء - أي من الشيب - في صدغيه. وفي رواية: وفي الرأس بُذَ^(٦).

وقال أبو جحيفة: رأيت بياضاً تحت شفته السفلى: العنفقة^(٧).

وقال عبد الله بن بسر: كان في عنقته شعرات بيض^(٨).

وقال البراء: كان مربوعاً بعيد ما بين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء، لم أر شيئاً قط أحسن منه^(٩).

وكان يسدل شعره أولاً لحبه موافقة أهل الكتاب، ثم فرَّق رأسه بعد^(١٠).

قال البراء: كان أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً^(١١).

(١) ابن هشام ٤٠١/١، ٤٠٢، وجامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوزي ٣٠٣/٤، والمُصَنَّف: المتناهي في الطول. الجعد: ملتوي ومتقبض الشعر. القلط: شديد الجعودة. السبط: المسترسل. المظهم: متنفخ الوجه وقيل الفاحش السمن، وقيل النحيف الجسم. المكثم: هو اجتماع لحم الوجه بلا جهومة. أهذاب الأشفار: طويل شعر الأجفان. جليل المشاش: أي عظيم رؤوس العظام كالمرفقين والكفين والركبتين. الكند: مجتمع الكتفين وهو الكاهل. أجرد: هو الذي ليس على بدنه شعر. المسربة: الشعر الدقيق الذي هو كأنه قضيب من الصدر إلى السرة. الشثن: الغليظ الأصابع من الكفين والقدمين. البيهية: المفاجأة.

(٢) المصدر نفسه الأخير. الكراديس: رؤوس العظام وقيل هي ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين والمنكبين أراد أنه ضخم الأعضاء.

(٣) صحيح مسلم ٢٥٨/٢ ضليع الفم: عظيم الفم. أشكل العين: طويل شق العين. منهوس العقب: قليل اللحم.

(٤) المصدر نفسه. مقصداً: هو الذي ليس بجسيم ولا نحيف ولا طويل ولا قصير.

(٥) صحيح البخاري ٥٠٢/١. أزهر اللون: أبيض مشرب بحمرة. الأبيض الأمهق: شديد البياض كلون الجص. الآدم: الأسمر والمعنى: ليس بأسمر ولا بأبيض كربه البياض بل أبيض بياضاً نيراً مشرباً.

(٦) المصدر نفسه، وصحيح مسلم ٢٥٩/٢. والبذ: بضم النون وفتح الباء أو بفتح النون وتسكين الباء ومعناها: شعرات متفرقة.

(٧) صحيح البخاري ٥٠١/١، ٥٠٢.

(٨) المصدر نفسه ٥٠٢/١.

(٩) المصدر نفسه.

(١٠) صحيح البخاري ٥٠٣/١.

(١١) المصدر نفسه ٥٠٢/١، وصحيح مسلم ٢٥٨/٢.

وسُئِلَ: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر. وفي رواية: كان وجهه مستديرًا^(١).

وقالت الربيع بنت معوذ: لو رأيته رأيت الشمس طالعة^(٢).

وقال جابر بن سمرة: رأيته في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ وإلى القمر - وعليه حلة حمراء - فإذا هو أحسن عندي من القمر^(٣).

وقال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث^(٤).

وقال كعب بن مالك: كان إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر^(٥).

وعِرِقَ مرة وهو عند عائشة، فجعلت تبرق أسارير وجهه، فتمثلت له بقول أبي كبير الهذلي:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل^(٦)

وكان أبو بكر إذا رآه يقول:

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام^(٧)

وكان عمر ينشد قول زهير في هرم بن سنان:

لو كنت من شيء سوى البشر كنت المضيء ليلة البدر

ثم يقول كذلك كان رسول الله ﷺ^(٨).

وكان إذا غضب احمرَّ وجهه، حتى كأنما فُقيء في وجنتيه حبُّ الرُّمان^(٩).

وقال جابر بن سمرة: كان في ساقيه حُموشة، وكان لا يضحك إلا تبسُّمًا، وكنت إذا نظرت إليه قلت: أكحل العينين، وليس بأكحل^(١٠).

(١) صحيح البخاري ٥٠٢/١، وصحيح مسلم ٢٥٩/٢.

(٢) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٧/٢.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل ص ٢، والدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٨/٢.

(٤) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذى ٣٠٦/٤، مشكاة المصابيح ٥١٨/٢.

(٥) صحيح البخاري ٥٠٢/١.

(٦) ملخص تهذيب تاريخ دمشق ١/ ٣٢٥.

(٧) خلاصة السير ص ٢٠.

(٨) خلاصة السير ص ٢٠.

(٩) مشكاة المصابيح ٢٢/١، ورواه الترمذي في أبواب القدر: باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٣٥/٢.

(١٠) جامع الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذى ٣٠٦/٤. والحُموشة: أي دقة ولطافة متناسبة لساثر أعضائه.

قال ابن عباس: كان أفلج الثنتين، إذا تكلمم رؤي كالنور يخرج من بين ثنياه^(١).

وأما عنقه فكأنه جيدٌ دمية في صفاء الفضة، وكان في أشفاره غطف، وفي لحيته كثافة، وكان واسع الجبين، أزج الحواجب في غير قرن بينهما، أفنى العرنين، سهل الخدين، من لبتة إلى سرتة يجري كالقضب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، سواء البطن والصدر، مسيح الصدر عريضه، طويل الزند، رحب الراحة، سبط القصب، خُمَصَانُ الْأَخْمَصِينَ، سائل الأطراف، إذا زال زال قلعا، يخطو تكفيا ويمشي هونا^(٢).

وقال أنس: ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف النبي ﷺ، ولا شممت ريحا قط أو عرفا قط، وفي رواية: ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا، أطيّب من ريح أو عرف رسول الله ﷺ^(٣).

وقال أبو جحيفة: أخذت بيده، فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك^(٤).

وقال جابر بن سمرة - وكان صبيّا - : مسح خدي فوجدت ليده بردا أو ريحا كأنما أخرجها من جونة عطار^(٥).

وقال أنس: كأن عرقه اللؤلؤ، وقالت أم سليم: هو من أطيّب الطيب^(٦).

وقال جابر: لم يسلك طريقا فيتبعه أحد إلا عُرِفَ أنه قد سلكه من طيب عرفه، أو قال: من ريح عرقه^(٧).

وكان بين كتفيه خاتم النبوة مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده، وكان عند ناغض كتفه اليسرى، جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل^(٨).

(١) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٨/٢. والأفلج: الذي بين أسنانه تباعد. والثنيا: أسنان مقدمة الفم.

(٢) خلاصة السير ص ١٩، ٢٠. الجيد: العنق. الدمية: الصورة المصورة. الأقنى: الذي ارتفع أعلى أنفه واحذوب وسطه وضاق منخراه. والعرنين: الأنف وما صلب منه. سبط القصب: الممتد الذي ليس فيه تعقد ولا تنوء، والقصب يريد بها ساعديه وساقيه. الأخمص من القدم: الموضع الذي لا يلبص بالارض منها عند الوطء، والخمصان: المبالغ منه أي: أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض.

(٣) صحيح البخاري ٥٠٣/١، صحيح مسلم ٢٥٧/٢.

(٤) صحيح البخاري ٥٠٢/١.

(٥) صحيح مسلم ٢٥٦/٢. جونة عطار: التي يعد فيه الطيب ويحرز.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) رواه الدارمي ... مشكاة المصابيح ٥١٧/٢.

(٨) صحيح مسلم ٢٥٩/٢، ٢٦٠. الثآليل: هو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها.

كمال النفس ومكارم الأخلاق:

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغة القول، وكان من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم، وعلم السنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأيد الإلهي الذي مدده الوحي.

وكان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفات أدبه الله بها، وكل حلیم قد عُرِفَتْ منه زلة، وحُفِظَتْ عنه هفوة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا، قالت عائشة: ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها^(١)، وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاء.

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة^(٢). وقال جابر: ما سُئِلَ شيئاً قط فقال: لا^(٣).

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفرَّ عنه الكماة والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يُدْبِرُ، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أُخْصِيَتْ له فرة، وحُفِظَتْ عنه جولة سواه، قال علي: كنا إذا حمي البأس واحمَرَّتِ الحلق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه^(٤). قال أنس: فرز أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قِبَلَ الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا، لم تراعوا»^(٥).

وكان أشدَّ الناس حياءً وإغضاءً، قال أبو سعيد الخدري: كان أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئاً عُرِفَ في وجهه^(٦)، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض

(١) صحيح البخاري ٥٠٣/١.

(٢) المصدر نفسه ٥٠٢/١.

(٣) المصدر نفسه ٥٠٢/١.

(٤) انظر الشفاء للفاضي عياض ٨٩/١ ومثل ذلك روى أصحاب الصحيح والسنن.

(٥) صحيح مسلم ٢٥٢/٢، وصحيح البخاري ٤٠٧/١.

(٦) صحيح البخاري ٥٠٤/١.

الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جُلَّ نظره الملاحظة، لا يشافه أحدًا بما يكره حياء وكرم نفس، وكان لا يُسمَّى رجلًا بلغ عنه شيء يكرهه، بل يقول. «ما بال أقوام يصنعون كذا». وكان أحق الناس بقول الفرزدق:

يغضي حياء ويغضي من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسم

وكان أعدل الناس، وأعفَّهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك محاوروه وأعداؤه، وكان يُسمَّى قبل نبوته الأمين، ويتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام، روى الترمذي عن علي أن أبا جهل قال له: إنا لا نكذبك، ولكن نُكذِّبُ بما جئت به، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُعِيتُ اللَّهُ بِمَخَادُونَهُمْ﴾^(١) [الأنعام: ٣٣]، وسأل هرقل أبا سفيان، هل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا.

وكان أشدَّ الناس تواضعًا، وأبعدهم عن الكبر، يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، وكان يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم، قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان بشرًا من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه^(٢).

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظم شفقة ورأفة ورحمة بالناس، أحسن الناس عشرة وأدبًا، وأبسط الناس خلقًا، أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشًا، ولا متفحشًا، ولا لعانًا، ولا صخابًا في الأسواق ولا يُجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يدع أحدًا يمشي خلفه، وكان لا يترفع على عبيده وإمائه في مأكَل ولا ملبس، ويخدم من خدمه، ولم يقل لخادمه أفٍ قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويشهد جنازتهم، ولا يحقر فقيرًا لفقره كان في بعض أسفاره فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: عليّ ذبحها وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نحن نكفيك. فقال: «قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه» وقام وجمع الحطب^(٣).

ولترك هند بن أبي هالة يصف لنا رسول الله ﷺ؛ قال هند فيما قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، ولا يتكلَّم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلَّم بجوامع الكلم، فصلاً لا فضول فيه

(١) مشكاة المصابيح ٥٢١/٢.

(٢) المصدر نفسه ٥٢٠/٢.

(٣) خلاصة السير ص ٢٢.

ولا تقصير، دمعًا ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذمُّ شيئًا، ولم يكن يذم ذواقًا - ما يطعم - ولا يمدحه، ولا يقام لغضبه إذا تعرض للحق بشيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها - سماحة - وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غصَّ طرفه، جل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

وكان يخزن لسانه إلا عمَّا يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويؤليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عمَّا في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبِّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملؤا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر على الحق، ولا يجاوزه إلى غيره . . الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواسة ومؤازرة.

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن - لا يميز مكانًا - إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه؛ حتى لا يحسب جلسيه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجته صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سألَه حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا تُرْفَع فيه الأصوات، ولا تؤن به الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحداً، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رؤوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الشاء إلا من مكافئ^(١).

(١) انظر الشفا للقاضي عياض ١/١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، وانظر أيضًا شمائل الترمذي.

وقال خارجه بن زيد: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يعرض عن تكلم من غير جميل، كان ضحكه تبسمًا، كلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم، توقيراً له واقتداء به^(١).

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ محلى بصفات الكمال المنقطعة النظير، أدبه ربه فأحسن تأديبه، حتى خاطبه مثيلاً عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وكانت هذه الخلال مما قرب إليه النفوس، وحببه إلى القلوب، وصيره قائداً تهوي إليه الأفئدة، وألان من شكيمة قومه بعد الإباء، حتى دخلوا في دين الله أفواجاً.

وهذه الخلال التي أتينا على ذكرها خطوط قصار من مظاهر كماله وعظيم صفاته، أما حقيقة ما كان عليه من الأمجاد والشمائل فأمر لا يُدرَكُ كنهه، ولا يسبر غوره، ومن يستطيع معرفة كنه أعظم بشر في الوجود بلغ أعلى قمة من الكمال، استضاء بنور ربه، حتى صار خلقه القرآن؟

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس - الهند

١٣/١١/١٣٩٦ هـ، ٦/١١/١٩٧٦ م

ثبت المراجع

- ١ - إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام
شهاب الدين أحمد بن محمد الأسدي المكي (م ١٠٦٦هـ) المطبعة السلفية بنارس الهند
١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
- ٢ - الأدب المفرد
محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) طبع استانبول ١٣٠٤هـ.
- ٣ - الأعلام
خير الدين الزركلي. الطبعة الثانية القاهرة ١٩٤٥م.
- ٤ - البداية والنهاية
إسماعيل بن كثير الدمشقي مطبعة السعادة مصر ١٩٣٢م.
- ٥ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام
أحمد بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ) المطبع القومي كانفور الهند ١٣٢٣هـ.
- ٦ - تاريخ أرض القرآن
السيد سليمان الندوي (١٣٧٣هـ) معارف بريس أعظم كره - الهند ١٩٥٥م (الطبعة الرابعة).
- ٧ - تاريخ إسلام
شاه أكبر خان نجيب آبادي مكتبة رحمت ديوبند يوبي الهند.
- ٨ - تاريخ الأمم والملوك
ابن جرير الطبري المطبعة الحسينية المصرية.
- ٩ - تاريخ عمر بن الخطاب
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي مطبعة التوفيق الأدبية بمصر.
- ١٠ - تحفة الأحوزي
أبو العلي عبد الرحمن المباركفوري (١٣٥٣هـ-١٩٣٥م) جيد برقي بريس دهلي الهند
١٣٤٦-١٣٥٣هـ.
- ١١ - تفسير ابن كثير
إسماعيل بن كثير الدمشقي دار الأندلس بيروت.
- ١٢ - تفهيم القرآن
الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي مركزي مكتبة جماعت إسلامي الهند.

١٣- تلقیح فہوم اہل الأثر

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (م ٥٩٧ھ) جيد برقي پريس دہلي الہند.

١٤- جامع الترمذي

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ھ-٢٧٩ھ) المكتبة الرشيدية دہلي الہند.

١٥- الجهاد في الإسلام (الأردو)

الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي، إسلامك بليكشنز لميتد لاہور (باكستان) الطبعة الرابعة ١٩٦٧م.

١٦- خلاصة السير

محب الدين أبو جعفر أحمد بن عبد الله الطبري (م ٦٧٤ھ) دلي برنتينك پريس دہلي الہند ١٣٤٣ھ.

١٧- رحمة للعالمين

محمد سليمان سلمان المنصور فوري (م ١٩٣٠م) حنيف بُكدبولي.

١٨- رسول أكرم كي سياسي زندگي

الدكتور حميد الله، بارس سالم كمبني ديوبند - يوبي الہند ١٩٦٣م.

١٩- الروض الأنف

أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (٥٠٨-٥٨١ھ) المطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢ھ-١٩١٤م.

٢٠- زاد المعاد

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب المعروف بابن القيم (٦٩١-٧٥١) المطبعة المصرية الطبعة الأولى ١٣٤٧-١٩٢٨م.

٢١- سفر التكوين

٢٢- سنن ابن ماجه

أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (٢٠٩-٢٧٣ھ).

٢٣- سنن أبي داود

أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني ٢٠٢-٢٧٥ھ ج ١ المطبع المجيدي كانفور الہند ١٣٧٥ھ ٢ المكتبة الرحيمية ديوبند يوبي الہند.

٢٤- سنن النسائي

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (٢١٥-٣٠٣ھ) المكتبة السلفية لاہور (باكستان).

- ٢٥- السيرة الحلبية
ابن برهان الدين.
- ٢٦- السيرة النبوية
أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (٢١٣ أو ٢١٨هـ) شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر المطبعة الثانية ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
- ٢٧- شرح شذور الذهب
أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف المعروف بابن هشام الأنصاري (٧٠٨-٧٦١) مطبعة السعادة بمصر.
- ٢٨- شرح صحيح مسلم
أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ) المكتبة الرشيدية دهلي الهند ١٣٧٦هـ.
- ٢٩- شرح المواهب اللدنية
الزرقاني نسخة عتيقة مخرومة الأوائل.
- ٣٠- الشفا بتعريف حقوق المصطفى
القاضي عياض مطبعة عثمانية استانبول ١٣١٢هـ.
- ٣١- صحيح البخاري
محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) المكتبة الرحيمية (ديوبند الهند) ١٣٨٤-١٣٨٧هـ.
- ٣٢- صحيح مسلم
مسلم بن الحجاج القشيري المكتبة الرشيدية دهلي الهند ١٣٧٦هـ.
- ٣٣- صحيفة حقوق
٣٤- صلح الحديبية
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- ٣٥- الطبقات الكبرى
محمد بن سعد مطبعة بريل ليدن ١٣٢٢هـ.
- ٣٦- عون المعبود شرح أبي داود
أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي (الطبعة الأولى الهندية).
- ٣٧- غزوة أحد
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية).
- ٣٨- غزوة بدر الكبرى
محمد أحمد باشميل (الطبعة الثالثة) ١٣٧٦هـ-١٩٧٦م.

- ٣٩- غزوة خيبر .
 محمد أحمد باشميل (الطبعة الثانية) دار الفكر ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- ٤٠- غزوة بني قريظة
 محمد أحمد باشميل (الطبعة الأولى) ١٣٧٦هـ-١٩٦٦م.
- ٤١- فتح الباري
 أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣-٨٥٢) المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة. القاهرة.
- ٤٢- فقه السيرة
 محمد الغزالي. دار الكتاب العربي بمصر الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
- ٤٣- في ظلال القرآن
 سيد قطب، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان الطبعة الثالثة.
- ٤٤- القرآن الكريم
 ٤٥- قلب جزيرة العرب
 فؤاد حمزة المطبعة السلفية ومكتبتها، الروضة بمصر ١٣٥٢هـ-١٩٢٣م.
- ٤٦- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين
 السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي الطبعة الرابعة مكتبة دار العروبة القاهرة ١٣٨١هـ-١٩٦١م.
- ٤٧- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية
 الشيخ محمد الخضري بك، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة الثامنة ١٣٨٢هـ.
- ٤٨- مختصر سيرة الرسول
 شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي النجدي (م ١٢٠٦) مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة الأولى (١٣٧٥هـ-١٩٥٦م).
- ٤٩- مختصر سيرة الرسول
 الشيخ عبد الله بن محمد النجدي آل الشيخ (م بمصر ١٢٤٢) المطبعة السلفية ومكتبتها الروضة بمصر ١٣٧٩هـ.
- ٥٠- مدارك التنزيل
 للنسفي.
- ٥١- مرقاة المفاتيح ج ٢
 الشيخ أبو الحسن عبيد الله الرحمانى المباركفوري نامي بريس لكنؤ الهند ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م.

- ٥٢- مروج الذهب
أبو الحسن علي المسعودي مطبعة الشرق الإسلامية القاهرة.
- ٥٣- المستدرک
أبو عبد الله محمد الحاكم النيسابوري دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد. الهند.
- ٥٤- مسند أحمد
الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٦٤هـ).
- ٥٥- مسند الدارمي
أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ١٨١-٢٥٥هـ.
- ٥٦- مشكاة المصابيح
ولي الدين محمد بن عبد الله التبريزي، المكتبة الرحيمية ديوبند يوبي - الهند.
- ٥٧- معجم البلدان
ياقوت الحموي.
- ٥٨- المواهب اللدنية
للقسطلاني المطبعة الشرفية ١٣٣٦هـ-١٩٠٧م.
- ٥٩- موطأ الإمام مالك
الإمام مالك بن أنس الأصبحي (م ١٦٩ هـ) المكتبة الرحيمية ديوبند يوبي - الهند.
- ٦٠- وفاء الوفا
علي بن أحمد السمهودي.

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٥	كلمة معالي الشيخ محمد علي الحركان
٩	مقدمة الناشر
١٣	كلمة المؤلف
١٥	موقع العرب وأقوامها
١٥	موقع العرب
١٦	أقوام العرب
٢٢	الحكم والإمارة في العرب
٢٢	الملك باليمن
٢٤	الملك بالهيرة
٢٥	الملك بالشام
٢٦	الإمارة بالحجاز
٣٠	الحكم في سائر العرب
٣١	الحالة السياسية
٣٢	ديانات العرب
٣٧	الحالة الدينية
٣٩	صور من المجتمع العربي الجاهلي
٣٩	الحالة الاجتماعية
٤١	الحالة الاقتصادية
٤٢	الأخلاق
٤٤	نسب النبي ﷺ وأسرته
٤٤	نسب النبي ﷺ
٤٥	الأسرة النبوية
٥٠	المولد وأربعون عامًا قبل النبوة
٥٠	المؤلد

٥٠ في بني سعد
٥٢ إلى أمه الحنون
٥٣ إلى جده العطوف
٥٣ إلى عمه الشفيق
٥٣ يستسقى الغمام بوجهه
٥٤ بحيرا الراهب
٥٤ حرب الفجار
٥٤ حلف الفضول
٥٥ حياة الكدح
٥٥ زواجه خديجة
٥٦ بناء الكعبة وقضية التحكيم
٥٧ السيرة الإجمالية قبل النبوة
٥٩ العهد المكي
٦٠ في ظلال النبوة والرسالة
٦٠ في غار حراء
٦٠ جبريل ينزل بالوحي
٦٢ فترة الوحي
٦٢ جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية
٦٤ استطراد في بيان أقسام الوحي
٦٦ المرحلة الأولى : من جهاد الدعوة إلى الله
٦٦ ثلاث سنوات من الدعوة السرية
٦٦ الرعيل الأول
٦٧ الصلاة
٦٨ الخبر يبلغ إلى قریش إجمالاً
٦٩ المرحلة الثانية: الدعوة جهاراً
٦٩ أول أمر بإظهار الدعوة
٦٩ الدعوة في الأقربين
٧٠ على جبل الصفا
٧٠ الصدع بالحق وردود فعل المشركين
٧١ المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة

٧٢	أساليب شتى لمجابهة الدعوة
٧٣	الاضطهادات
٧٥	موقف المشركين من رسول الله ﷺ
٧٥	وفد قريش إلى أبي طالب
٧٥	قريش يهددون أبا طالب
٧٦	قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى
٧٧	اعتداءات على رسول الله ﷺ
٨٠	دار الأرقم
٨٠	الهجرة الأولى إلى الحبشة
٨١	سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين
٨٢	الهجرة الثانية إلى الحبشة
٨٢	مكيدة قريش بمهاجري الحبشة
٨٤	الشدة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله ﷺ
٨٦	إسلام حمزة بن عبد المطلب
٨٦	إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
٩٠	ممثل قريش بين يدي الرسول ﷺ
٩١	رؤساء قريش يفاوضون الرسول وأبو جهل يريد القضاء عليه ﷺ
٩٢	مساومات وتنازلات
٩٣	حيرة قريش وتفكيرهم الجاد واتصالهم باليهود
٩٤	موقف أبي طالب وعشيرته
٩٥	المقاطعة العامة
٩٥	ميثاق الظلم والعدوان
٩٥	ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب
٩٦	نقض صحيفة الميثاق
٩٨	آخر وفد قريش إلى أبي طالب
١٠٠	عام الحزن
١٠٠	وفاة أبي طالب
١٠٠	خديجة إلى رحمة الله
١٠١	تراكم الأحزان
١٠٢	الزواج بسودة رضي الله عنها

١٠٣	عوامل الصبر والثبات
١٠٩	المرحلة الثالثة: دعوة الإسلام خارج مكة
١٠٩	الرسول ﷺ في الطائف
١١٣	عرض الإسلام على القبائل والأفراد
١١٣	القبائل التي عرض عليها الإسلام
١١٤	المؤمنون من غير أهل مكة
١١٧	ست نسيمات طيبة من أهل يثرب
١١٨	استطرد - تزويج رسول الله ﷺ بعائشة
١١٩	الإسراء والمعراج
١٢٤	بيعة العقبة الأولى
١٢٥	سفير الإسلام في المدينة
١٢٥	النجاح المغتبط
١٢٧	بيعة العقبة الثانية
١٢٨	بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية
١٢٨	بنود البيعة
١٢٩	التأكيد من خطورة البيعة
١٣٠	عقد البيعة
١٣٠	اثنا عشر نقيباً
١٣٠	نقباء الخزرج
١٣١	نقباء الأوس
١٣١	شيطان يكشف المعاهدة
١٣١	استعداد الأنصار لضرب قريش
١٣٢	قريش تقدم الاحتجاج إلى رؤساء يثرب
١٣٢	تأكد الخبر لدى قريش ومطاردة المبايعين
١٣٤	طلائع الهجرة
١٣٧	في دار الندوة «برلمان قريش»
١٣٨	النقاش البرلماني والإجماع على قرار غاشم بقتل النبي ﷺ
١٤٠	هجرة النبي ﷺ
١٤٠	تطويق منزل الرسول ﷺ
١٤١	الرسول ﷺ يغادر بيته

١٤٢ من الدار إلى الغار
١٤٢ إذ هما في الغار
١٤٤ في الطريق إلى المدينة
١٤٨ النزول بقاء
١٤٩ الدخول في المدينة
١٥٢ الحياة في المدينة
١٥٤ المرحلة الأولى : الحالة الراهنة في المدينة عند الهجرة
١٦٠ بناء مجتمع جديد
١٦٠ بناء المسجد النبوي
١٦١ المؤاخاة بين المسلمين
١٦٢ ميثاق التحالف الإسلامي
١٦٣ أثر المعنويات في المجتمع
١٦٦ معاهدة مع اليهود
١٦٦ بنود المعاهدة
١٦٨ الكفاح الدامي
١٦٨ استفزازات قريش ضد المسلمين بعد الهجرة واتصالهم بعبد الله بن أبي
١٦٨ إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام
١٦٩ قريش تهدد المهاجرين
١٦٩ الإذن بالقتال
١٧٠ الغزوات والسرايا قبل بدر
١٧٦ غزوة بدر الكبرى : أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة
١٧٦ سبب الغزوة
١٧٦ مبلغ قوة الجيش الإسلامي وتوزيع القيادات
١٧٧ الجيش الإسلامي يتحرك نحو بدر
١٧٧ النذير في مكة
١٧٧ أهل مكة يتجهزون للغزو
١٧٨ قوام الجيش المكي
١٧٨ مشكلة قبائل بني بكر
١٧٨ جيش مكة يتحرك
١٧٨ العير تفلت

١٧٩	هم الجيش المكي بالرجوع ووقوع الانشقاق فيه
١٧٩	تخرج موقف الجيش الإسلامي
١٧٩	المجلس الاستشاري
١٨٠	الجيش الإسلامي يواصل سيره
١٨١	الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف
١٨١	الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي
١٨٢	نزول المطر
١٨٢	الجيش الإسلامي يسبق إلى أهم المراكز العسكرية
١٨٢	مقر القيادة
١٨٣	تعبئة الجيش وقضاء الليل
١٨٣	الجيش المكي في عرصة القتال ووقوع الانشقاق فيه
١٨٦	الجيشان يترآان
١٨٦	ساعة الصفر وأول وقود المعركة
١٨٧	المبارزة
١٨٧	الهجوم العام
١٨٧	الرسول ﷺ يناشد ربه
١٨٨	نزول الملائكة
١٨٨	الهجوم المضاد
١٨٩	إيلس ينسحب عن ميدان القتال
١٨٩	الهزيمة الساحقة
١٨٩	صمود أبي جهل
١٩٠	مصرع أبي جهل
١٩١	من روائع الإيمان في هذه المعركة
١٩٣	قتلى الفريقين
١٩٤	مكة تتلقى أنباء الهزيمة
١٩٥	المدينة تتلقى أنباء النصر
١٩٦	الاختلاف على الغنائم
١٩٦	الجيش النبوي يتحرك إلى المدينة
١٩٧	وفود التهئة
١٩٧	قضية الأسارى

١٩٩	القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
٢٠١	النشاط العسكري بين بدر وأحد
٢٠٢	غزوة بني سليم بالكدر
٢٠٢	مؤامرة لاغتيال النبي ﷺ
٢٠٣	غزوة بني قينقاع
٢٠٤	نموذج من مكيدة اليهود
٢٠٥	بنو قينقاع ينقضون العهد
٢٠٦	الحصار ثم التسليم ثم الجلاء
٢٠٧	غزوة السوق
٢٠٧	غزوة ذي أمر
٢٠٨	قتل كعب بن الأشرف
٢١١	غزوة بحران
٢١١	سرية زيد بن حارثة
٢١٣	غزوة أحد
٢١٣	استعداد قريش لمعركة ناقمة
٢١٤	قوام جيش قريش وقيادته
٢١٤	جيش مكة يتحرك
٢١٤	الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو
٢١٥	استعداد المسلمين للطوارئ
٢١٥	الجيش المكي إلى أسوار المدينة
٢١٥	المجلس الاستشاري لأخذ خطة الدفاع
٢١٦	كتيب الجيش الإسلامي وخروجه إلى ساحة القتال
٢١٧	استعراض الجيش
٢١٧	المبيت بين أحد والمدينة
٢١٧	تمرد عبد الله بن أبي وأصحابه
٢١٨	بقية الجيش الإسلامي إلى أحد
٢١٩	خطة الدفاع
٢٢٠	الرسول ﷺ ينفث روح البسالة في الجيش
٢٢٠	تعبئة الجيش المكي
٢٢١	مناورات سياسية من قبل قريش

٢٢١ جهود نسوة قريش في التحميس
٢٢٢ أول وقود المعركة
٢٢٢ ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته
٢٢٣ القتال في بقية النقاط
٢٢٤ مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب
٢٢٤ السيطرة على الموقف
٢٢٥ من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة
٢٢٥ نصيب فصيلة الرماة في المعركة
٢٢٥ الهزيمة تنزل بالمشركين
٢٢٦ غلطة الرماة الفظيعة
٢٢٦ خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامي
٢٢٧ موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق
٢٢٧ تبدد المسلمين في الموقف
٢٢٩ احتدام القتال حول رسول الله ﷺ
٢٢٩ أخرج ساعة في حياة الرسول ﷺ
٢٣١ بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ
٢٣٢ تضاعف ضغط المشركين
٢٣٢ البطولات النادرة
٢٣٤ إشاعة مقتل النبي ﷺ وأثره على المعركة
٢٣٤ الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف
٢٣٥ مقتل أبي بن خلف
٢٣٥ طلحة ينهض بالنبي ﷺ
٢٣٧ آخر هجوم قام به المشركون
٢٣٧ تشويه الشهداء
٢٣٧ مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة
٢٣٨ بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب
٢٣٩ شماتة أبي سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر
٢٣٩ مواعدة التلاقي في بدر
٢٣٩ التثبت من موقف المشركين
٢٤٠ تفقد القتلى والجرحى

٢٤١ جمع الشهداء ودفنهم
٢٤٢ الرسول ﷺ يثني على ربه عز وجل ويدعوه
٢٤٢ الرجوع إلى المدينة، ونوادير الحب والتفاني
٢٤٣ الرسول ﷺ في المدينة
٢٤٣ قتلى الفريقين
٢٤٣ حالة الطوارئ في المدينة
٢٤٤ غزوة حمراء الأسد
٢٤٧ القرآن يتحدث حول موضوع المعركة
٢٤٨ الحكم والغايات المحمودة في هذه الغزوة
٢٤٩ السرايا والبعوث بين أحد الأحزاب
٢٤٩ سرية أبي سلمة
٢٥٠ بعث عبد الله بن أنيس
٢٥٠ بعث الرجيع
٢٥١ مأساة بئر معونة
٢٥٣ غزوة بني النضير
٢٥٦ غزوة بدر الثانية
٢٥٧ غزوة دومة الجندل
٢٥٩ غزوة الأحزاب
٢٧٠ غزوة بني قريظة
٢٧٥ النشاط العسكري بعد هذه الغزوة
٢٧٥ مقتل سلام بن أبي الحقيق
٢٧٦ سرية محمد بن مسلمة
٢٧٧ غزوة بني لحيان
٢٧٧ متابعة البعث والسرايا
٢٨٠ غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع (في شعبان سنة ٥، أو ٦ هـ)
٢٨١ دور المنافقين قبل غزوة بني المصطلق
٢٨٣ دور المنافقين في غزوة بني المصطلق
٢٨٣ ١ - قول المنافقين: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»
٢٨٥ حديث الإفك
٢٨٦ البعث والسرايا بعد غزوة المريسيع

٢٨٩ عمرة الحديبية (في ذي القعدة سنة ٦هـ)
٢٨٩ سبب عمرة الحديبية
٢٨٩ استنفار المسلمين
٢٨٩ المسلمون يتحركون إلى مكة
٢٩٠ محاولة قريش صد المسلمين عن البيت
٢٩٠ تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامي
٢٩٠ بديل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش
٢٩١ رسل قريش
٢٩٢ هو الذي كف أيديهم عنكم
٢٩٢ عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش
٢٩٢ إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان
٢٩٣ إبرام الصلح وبنوده
٢٩٤ رد أبي جندل
٢٩٤ النحر والحلق للحل عن العمرة
٢٩٤ الإباء عن رد المهاجرات
٢٩٥ ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة
٢٩٦ حزن المسلمين ومناقشة عمر مع النبي ﷺ
٢٩٧ انحلت أزمة المستضعفين
٢٩٨ إسلام أبطال من قريش
٢٩٩ المرحلة الثانية - طور جديد
٣٠٠ مكاتبة الملوك والأمراء
٣٠٠ ١- الكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة
٣٠٢ ٢- الكتاب إلى المقوقس ملك مصر
٣٠٣ ٣- الكتاب إلى كسرى ملك فارس
٣٠٤ ٤- الكتاب إلى قيصر ملك الروم
٣٠٦ ٥ - الكتاب إلى المنذر بن ساوى
٣٠٧ ٦ - الكتاب إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة
٣٠٧ ٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق
٣٠٨ ٨- الكتاب إلى ملك عمان
٣١٠ النشاط العسكري بعد صلح الحديبية

٣١٠	غزوة الغابة أو غزوة ذي قرد
٣١٢	غزوة خيبر ووادي القرى (في المحرم سنة ٥٧هـ)
٣١٢	سبب الغزوة
٣١٢	الخروج إلى خيبر
٣١٣	عدد الجيش الإسلامي
٣١٣	اتصال المنافقين باليهود
٣١٣	الطريق إلى خيبر
٣١٤	بعض ما وقع في الطريق
٣١٥	الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر
٣١٥	حصون خيبر
٣١٦	معسكر الجيش الإسلامي
٣١٦	التهيؤ للقتال وبشارة الفتح
٣١٦	بدء المعركة وفتح حصن ناعم
٣١٧	فتح حصن الصعب بن معاذ
٣١٨	فتح قلعة الزبير
٣١٨	فتح قلعة أبي
٣١٨	فتح حصن التزار
٣١٩	فتح الشطر الثاني من خيبر
٣٢٠	المفاوضة
٣٢٠	قتل ابني أبي الحقيق لنقض العهد
٣٢٠	قسمة الغنائم
٣٢١	قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعرين
٣٢٢	الزواج بصفية
٣٢٢	أمر الشاة المسمومة
٣٢٣	قتلى الفريقين في معارك خيبر
٣٢٣	فدك
٣٢٣	وادي القرى
٣٢٤	تيماء
٣٢٤	العود إلى المدينة
٣٢٥	سرية أبان بن سعيد

٣٢٦	بقية السرايا والغزوات في السنة السابعة
٣٢٦	غزوة ذات الرقاع
٣٣٠	عمرة القضاء
٣٣٣	معركة مؤتة
٣٣٣	سبب المعركة
٣٣٣	أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم
٣٣٣	توديع الجيش الإسلامي وبكاء عبدالله بن رواحة
٣٣٤	تحرك الجيش الإسلامي، ومباغتته حالة رهية
٣٣٤	المجلس الاستشاري بمعان
٣٣٤	الجيش الإسلامي يتحرك نحو العدو
٣٣٥	بداية القتال، وتناوب القواد
٣٣٦	الراية إلى سيف من سيوف الله
٣٣٦	نهاية المعركة
٣٣٧	قتلى الفريقين
٣٣٧	أثر المعركة
٣٣٧	سرية ذات السلاسل
٣٣٨	سرية أبي قتادة إلى خضرة
٣٣٩	غزوة فتح مكة
٣٣٩	سبب الغزوة
٣٤٠	أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح
٣٤١	التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء
٣٤٣	الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة
٣٤٣	الجيش الإسلامي ينزل بمر الظهران
٣٤٣	أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ
٣٤٥	الجيش الإسلامي يغادر مر الظهران إلى مكة
٣٤٥	قريش تباغت زحف الجيش الإسلامي
٣٤٦	الجيش الإسلامي بذى طوى
٣٤٦	الجيش الإسلامي يدخل مكة
٣٤٧	الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام
٣٤٧	الرسول ﷺ يصلي في الكعبة ثم يخطب أمام قریش

٣٤٨	لا تثريب عليكم اليوم
٣٤٨	مفتاح البيت إلى أهله
٣٤٨	بلال يؤذن على الكعبة
٣٤٨	صلاة الفتح أو صلاة الشكر
٣٤٩	إهدار دماء رجال من أكابر المجرمين
٣٥٠	إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير
٣٥٠	خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثاني من الفتح
٣٥٠	تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ في مكة
٣٥١	أخذ البيعة
٣٥٢	إقامته ﷺ بمكة، وعمله فيها
٣٥٢	السرايا والبعوث
٣٥٤	المرحلة الثالثة
٣٥٥	غزوة حنين
٣٥٥	مسير العدو ونزوله بأوطاس
٣٥٥	معجب الحروب يغلط رأي القائد
٣٥٦	سلاح استكشاف العدو
٣٥٦	سلاح استكشاف رسول الله ﷺ
٣٥٦	الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين
٣٥٧	الجيش الإسلامي يباغت الرماة والمهاجمين
٣٥٧	رجوع المسلمين واحتدام المعركة
٣٥٨	انكسار حدة العدو، وهزيمته الساحقة
٣٥٨	حركة المطاردة
٣٥٨	الغنائم
٣٥٩	غزوة الطائف
٣٦٠	قسمة الغنائم بالجعرانة
٣٦١	الأنصار تجد على رسول الله ﷺ
٣٦٢	قدوم وفد هوازن
٣٦٢	العمرة والانصراف إلى المدينة
٣٦٤	البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح
٣٦٤	المصدقون

٣٦٥	السرايا
٣٦٨	غزوة تبوك في رجب سنة ٩هـ
٣٦٨	سبب الغزوة
٣٦٨	الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغسان
٣٦٩	الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان
٣٧٠	زيادة خطورة الموقف
٣٧٠	الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم
٣٧٠	الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان
٣٧١	المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو
٣٧١	الجيش الإسلامي إلى تبوك
٣٧٣	الجيش الإسلامي بتبوك
٣٧٣	الرجوع إلى المدينة
٣٧٤	المخلفون
٣٧٥	أثر الغزوة
٣٧٦	نزول القرآن حول موضوع الغزوة
٣٧٦	بعض الوقائع المهمة في هذه السنة
٣٧٧	حج أبي بكر رضي الله عنه
٣٧٨	نظرة على الغزوات
٣٨٠	الناس يدخلون في دين الله أفواجا
٣٨٠	الوفود
٣٩٠	نجاح الدعوة وأثرها
٣٩٢	حجة الوداع
٣٩٦	آخر البعوث
٣٩٧	إلى الرفيق الأعلى
٣٩٧	طلائع التوديع
٣٩٧	بداية المرض
٣٩٧	الأسبوع الأخير
٣٩٨	قبل الوفاة بخمسة أيام
٣٩٩	قبل أربعة أيام
٤٠٠	قبل يوم أو يومين

٤٠٠ قبل يوم
٤٠٠ آخر يوم من الحياة
٤٠١ الاحتضار
٤٠٢ تفاقم الأحزان على الصحابة
٤٠٢ موقف عمر
٤٠٢ موقف أبي بكر
٤٠٣ التجهيز وتوديع الجسد الشريف إلى الأرض
٤٠٥ البيت النبوي
٤١٠ الصفات والأخلاق
٤١٠ جمال الخلق
٤١٤ كمال النفس ومكارم الأخلاق
٤١٩ ثبت المراجع
٤٢٥ فهرس الموضوعات